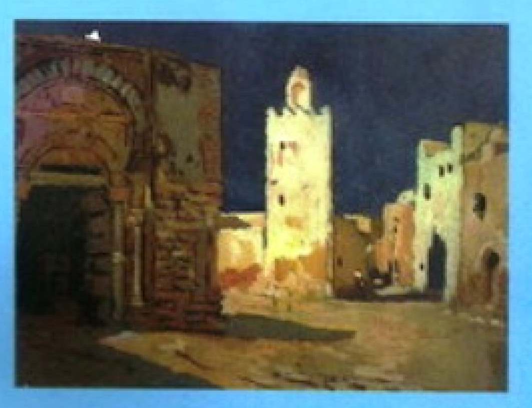


الخلفاء الراشدون

بين

الاستخلاف والاستشهاد



تأليف

د. صلاح عبدالفتاح الخالدي




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين





مكتبة المهتدين الإسلامية




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

قبسات تاريخية

(١)

الخلفاء الراشدون

بين الاستخلاف والاستشهاد

مشاهد ولقطات من أصح الروايات

عبر وعظات

اقتبسها وصاغها

الدكتور

صلاح عبد الفتاح الخالدي

دار القلم

مكتبة المهتدين الإسلامية

الدار الشامية

بيروت

الطّبْعة الأولىٰ
١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

تطلب جميع منشوراتنا في المملكة العربية السعودية
من دار البشير بجدة
جدة : ٢١٤٦٣ - ص ب : ٢٨٩٥ - هاتف : ٦٦٠٨٩٠٤ - ٦٦٥٧٦٢١

مقـدّمَة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونتوب إليه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا. من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن دراسةَ التاريخ، ومطالعةَ أحداثه ووقائعه، نافعةٌ مؤثرة، وتقدمُ لمن يقوم بها فوائدَ ودروساً عديدة. وقد أَمرنا اللهُ بالنظرِ في ما جرى للسابقين، ودراسةِ ذلك، والاعتبارِ منه، وأخذِ الدلالات والدروس والفوائد.

ودراسةُ التاريخ الإسلامي الذي استوعب أربعةَ عشر قرناً حتى الآن، تُحقق هذه الدلالاتِ والدروس والفوائد والعبر.

وهذا التاريخُ المديدُ بقرونه الأربعة عشر، هو تاريخُ المسلمين، باعتبارهم أفراداً وشعوباً، يعيشون حياتهم بكلٍّ ما فيها، من إيجابيات وسلبيات، وحسناتٍ وسيئات.

إنه تاريخ المسلمين، وليس تاريخَ الإسلام، ونحبُّ أن نؤكدَ على هذه الحقيقة، التي قد يُغالِط بها بعض المغرضين أو المخدوعين.

ليس كلُّ تاريخ المسلمين هو تاريخ الإسلام، ولا يصلحُ تاريخ المسلمين أن يكون حَكَماً على الإسلام!

هناك فرقٌ بين تاريخ الإسلام وتاريخ المسلمين.

تاريخ المسلمين هو الحياةُ التي عاشها المسلمون، والأحداثُ التي صنعوها، سواء كانوا أفراداً أو جماعات، دولاً أو حكومات، حكاماً أو محكومين.

كيف عاش المسلمون حياتَهم في تلك الفترة من تاريخهم، حياتَهم السياسية أو الاقتصادية أو العلمية أو الاجتماعية. كيف كان حكامهم ومحكوموهم في تلك الفترة، وكيف تعاملوا مع غيرهم من الأمم، وكيف كانت قوَّتُهم أو ضعفهم، وحدتُهم أو فُرقتهم، طاعتهم أو معصيتهم، قربُهم من الله أو بُعدهم عنه، التزامُهم بالإسلام أو تفلتُهم منه !!.

وهذا يعني أن تاريخ المسلمين على مدار قرونه الأربعة عشر، فيه الخيرُ والشر، فيه الخطأُ والصواب، فيه الصفحاتُ السوداء المظلمة، وفيه الصفحاتُ البيضاء المنيرة المشرقة، فيه ما يُخجل المسلم عندما يطلع عليه، ويؤلمه ويحزنه، وفيه ما يجعله يرفعُ رأسه زهواً وعزة، فيه مظاهر العزة والقوة والكرامة، والتمكين للمسلمين، وفيه ظواهرُ الذل والضعف والجبن والهوان.

وأَبرزُ مثال على الجوانب السوداء المظلمة من تاريخ المسلمين، هو تاريخُ المسلمين الرسمي في هذا العصر !!

ولا غرابة في أن نجد كل هذه المتناقضات والمتقابلات في تاريخ المسلمين، فهم بشر، يُخطئون ويُصيبون، يَعصون ويطيعون، يضعفون ويتقوّون، يرتفعون وينخفضون، وينجذبون نحو هذا أو ذاك، في حياتِهم ومسيرتهم وحركتهم.

ولقد جعلَ اللهُ الحكيم صلةَ المسلمين بإسلامهم هي المقياس الذي يُقاس به تاريخهم، وجعلَ تاريخَهم المشرق المنير مرتبطاً بقوةِ ارتباطهم بإسلامهم، أفراداً وجماعات، شعوباً وحكومات، فإذا ما ضعفَ ارتباطهم بالإسلام، نزلوا عن القمةِ السامقة والدرجة العالية، وارتكسوا

في الذلِّ والجبن والهوان، لا يعودون للمنزلةِ الرفيعةِ ثانية إلا إذا عادوا إلى توثيق وتمتين ارتباطهم بالإسلام.

ورحمَ اللهُ عمرَ بن الخطاب عندما أعطانا هذا المقياس بقوله: نحن قومٌ أعزَّنا اللهُ بالإسلام، ومهما ابتغينا العزة في غيره أذلَّنا الله !!

هذا هو تاريخُ المسلمين بما لهم وما عليهم فيه، وكم يخطىءُ من يجعلُ هذا الركامَ كلَّه تاريخاً للإسلام، وكم يظلم الإسلام في ذلك !!

إن الإسلامَ لا يعترفُ بكل تاريخ المسلمين، ولا يقرُّ الصفحات السوداء ـ وهي كثيرة ـ التي سطَّرها المسلمون في تاريخهم، إنه يرفضُها وينكرها ويتبرأُ منها.

تاريخُ الإسلام هو الصفحاتُ البيضاء المشرقة المنيرة التي سطَّرها المسلمون، هو مظاهرُ قوتهم وعزتهم وتمكينهم، عندما كانوا ملتزمين حقاً بالإسلام.

إن الإسلامَ لا يعترفُ إلا بالحياةِ الكريمةِ التي عاشها المسلمون، لمَّا ارتبطوا به، وهو لا يقبلُ إلا الأحداث التي صنعَها هو لهم، والمجد الذي بناه هو لهم، والطريقَ التي رسمها هو لهم، والعزةَ التي قدمها هو لهم !

أما عندما كانوا يرفضون عطاءه وبناءه وطريقه ومجده، ويذهبون إلى السراب والضياع والتيه، فإنه لا يقرُّ هذا منهم، ولا يقبلُ أن يُضاف هذا إليه.

وهذا يقودُنا إلى حقيقة أخرى، وهي أنه ليس كلُّ تاريخ المسلمين مقدّساً، وليست كلُّ أحداثه ووقائعه مقبولةً مرضية، ومن ثم لا نتعامل مع أحداث تاريخنا بتعصبٍ وتقديس، ولا نتهالك في «تبرير» كل ما فعله السابقون، ولا نتبنَّى كلَّ ما صدر عنهم.

إن المقبولَ عندنا هو الصواب والصحيح والجيد مما صدر عن أسلافنا، أما الخطأُ والباطل الذي صدر عنهم فهو مرفوض عندنا، وإننا

نعترف بصدوره عنهم، ثم نُنكره ونُلقيه ونتبرأ منه !

ويجبُ أن يتعرفَ المسلمون على تاريخ أسلافهم، بكلِّ ما فيه، وأنْ يطَّلعوا على صفحاته البيضاء والسوداء، وأن يستفيدوا من ذلك كله، وأن يعتبروا به.

ولتحقيقِ هذه الغاية، وتقديمِ هذه الخدمة، كانت هذه «القبسات التاريخية» التي نقتبسُها من تاريخنا، ونقدمُها للقراء الكرام.

إننا نقفُ مع تاريخنا بعض الوقفات، ونُمضي معه بعضَ الساعات والأوقات، ونقلب فيه بعضَ الصفحات، ونقتطفُ منه بعض المقتطفات، ونقتبس منه هذه المقتبسات.

في هذه القبسات التاريخية، صفحاتٌ بيضاء مشرقة، وفيها نقاطٌ سوداء مظلمة، فيها ما يسرُّ ويُفرح، وفيها ما يُؤلم ويُحزن، فيها ما يرفعُ رأس المسلم تيهاً وافتخاراً، وفيها ما يجعله يطأطىء رأسه حياءً وخجلاً.

وتتجاور فيها الآلام مع الآمال، والإيجابيات مع السلبيات.

ولكن في هذه كلها تتحققُ العبرُ والعظات !!

وللقراء علينا شرطٌ واحد، هو أن نحرصَ على اقتباسِ هذه القبسات بما فيها من مشاهد ولقطات، من أصحِّ الأخبار والأقوال والروايات.

سنقلبُ في «دفاتر» تاريخنا، ونطلعُ على صفحاته، و «سننبش» في سطوره، ثم نقدم هذه «الأنابيش التاريخية».

إننا لا نقدم هذه الأنابيش والقبسات للتسلية، وتحقيق المتعةِ القصصية، ولا نريدُ أن تتحولَ عند القراء إلى قصص وحكايات، يُمضون بها الأوقات.

إنما نريدُ أن نقفَ عندها، دارسين ناظرين، وفاحصين متدبرين، ومتعظين معتبرين.

وقد شاء اللهُ أن تكون الحلقةُ الأولى من هذه القبسات التاريخية، عن

أفضل المسلمين بعد رسول الله ﷺ، وهم الخلفاء الراشدون الأربعة رضوان الله عليهم.

قدمنا للقراء الكرام مشاهدَ استخلافِ واستشهادِ كل منهم، كيف اختاره المسلمون خليفة، وكيف نجح الجناة في اغتياله، فلقي ربه شهيداً.

ولا ندري متى ستكون الحلقة الثانية من هذه القبسات، ولا ما هو موضوعها، فالقبسات عندنا وفيرة كثيرة، والله الذي يقدِّرُ ما يشاء سبحانه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

صويلح. الخميس ٢٨/ ١/ ١٤١٥

٧/ ٧/ ١٩٩٤

الدكتور

صلاح عبد الفتاح الخالدي

الخلفاء الراشدون
بين الاستخلاف والاستشهاد

الثناء على الصحابة والخلفاء

إن عهدَ الخلفاء الراشدين هو أفضلُ عهود التاريخ الإسلامي، وإن فترةَ حكمهم هي أبركُ الفترات، وإن جيلَهم هو جيلُ القدوة للمسلمين اللاحقين، كيف لا وهم أصحاب رسول الله ﷺ، الذين أثنى عليهم الله سبحانه بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقد أمرنا الله بمحبتِهم، والثناءِ عليهم، والدعاءِ لهم، وتطهيرِ قلوبنا من الغل والكره والحقد عليهم، بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠].

وقد أثنى عليهم رسول الله ﷺ بقوله: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».

الخلافة ثلاثون سنة

وقد استمرتْ فترةُ الخلفاء الراشدين ثلاثين سنة كاملة، ثم جاءت بعدها فترةُ حكم بني أمية، وبذلك صدق حديث رسول الله ﷺ، الذي قال فيه: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون مُلكاً».

بدأتْ فترةُ الخلفاء الراشدين من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة للهجرة، عندما بُويع أبو بكر الصديق رضي الله عنه خليفة، وانتهت في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين للهجرة، عندما تنازل الحسنُ بن علي لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، في عام الجماعة، حيث اجتمعتْ كلمةُ المسلمين على معاوية، بعد فرقة استمرت سنوات.

ولهذا كان الصحابيُّ الجليلُ معاوية رضي الله عنه يقول: أنا آخر الخلفاء، وأولُ الملوك.

وقد شهدتْ فترةُ الخلفاء الراشدين «مَدّاً إسلامياً» قوياً، وحركةً إسلاميةً جهادية مباركة، حيث انساحَ المجاهدون المسلمون في البلدان، وجاهدوا أعداءَ الله، وأَزالوا دولَ الكفار، وأدخلوا شعوب المنطقة في الإسلام.

المؤامرات الحاقدة ضد الخلفاء والأمة

وأَحدثتْ هذه الانتصاراتُ الإسلامية زيادةً في حقد الأعداء الموتورين، ضد الإسلام والمسلمين، من اليهود والنصارى والمجوس، فخططوا وتآمروا على الإسلام والمسلمين، وكادوا ضدهم.

وحرص هؤلاء الحاقدون على إفسادِ حياة المسلمين، وإحلال الفرقة والخلاف بينهم، وتمزيقِ وحدتهم، وإضعافِ صفهم.

ووجَّهوا مؤمراتهم ضدَّ الخلفاء الراشدين، وإذا كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد مات موتاً عادياً، بعد خلافة قصيرة، فإن الأعداء قد تمكنوا من اغتيال الخلفاء الآخرين: عمر وعثمان وعلي، حيث لَقوا وجهَ الله شهداءَ إن شاء الله.

فترة الخلفاء مليئة بالأحداث

وكانت فترةُ الخلفاء الراشدين مليئةً بالأحداث والتطورات، كانت فترة حركيةً عملية جهادية، وهي من أخصبِ فترات التاريخ الإسلامي، وأغزرها مادة، وأغناها بالأخبار والأقوال والمعلومات.

وتناقل الإخباريون أحداثَ وتطورات ومفاجآت هذه الفترة.

وأَوصلوها لمن بعدهم، ودوَّنها «كَتَبَةُ» التاريخ في كتبهم ومصنفاتهم.

وإذا كانت الأحزابُ والفرقُ والمذاهب قد حدثتْ بعد فترة الخلفاء

الراشدين، من الشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة، فقد أقبلَ كلٌّ منها على فترةِ الخلفاء الراشدين، لينصرَ حزبه، ويحتجَّ لمذهبه، ويدَّعي اتباعَه للحق والصواب.

إخباريون ثقات وإخباريون كاذبون

ولما لم يَجدْ بعضُ أصحاب الأهواء ما يريدون من حياة الصحابة، قاموا بوضع الروايات، واختلاقِ الأخبار، ونسبتها للصحابة كذباً وزوراً وبهتاناً.

وبينما وجد إِخباريون صادقون ثقات، نقلوا أخبارَ الصحابة بصدقٍ وأمانةٍ وموضوعية، وقد سجَّلَها المؤرخون المسلمون واعتمدوها وقبلوها، فقد كان هناك إِخباريون وضّاعون هالكون، قاموا بوضع الأكاذيب والافتراءات، واختلاقها وإشاعتها، ونسبتها للصحابة الكرام ونشرها بين الناس، وقد سمع المؤرخون المسلمون هذه الأكاذيب والافتراءات، ووصلتْ إليهم.

مؤرخون سجلوا كل شيء

قام المؤرخون المسلمون الأوائل ـ كالإمام الطبري ـ بتسجيلِ وتدوين كلِّ ما وصلهم من الروايات والأخبار عن فترة الخلفاء الراشدين، سواء كانت رواياتٍ صحيحة، صادرةً عن إخباريين صادقين ثقات، أو كانت رواياتٍ كاذبة مختَلَقَة، صادرة عن إِخباريين وضاعين هالكين.

دوّنوا هذا الركام الكبير في مصنفاتهم وخلطوا الصحيح منها بالباطل المكذوب، ولم «يَفْرُزوا» الصحيحَ منها عن غيره، ولم يُخَرِّجوا تلك الروايات، أو يحكموا على رجالها.

لكنهم أوردوا تلك الروايات مسندة، وذكروا رجال كلِّ سَند، وكانوا يوردون في الحدث الواحد عدة روايات مكررة، أو متعارضة متناقضة.

من باب الأمانة العلمية

ولم يكن إيرادُهم لكل ذلك الركام من الروايات والأخبار، اعتماداً لها، وثقة بها، وقَبولاً لمضمونها، بل كان إيرادهم من قبل «الأمانة العلمية»، التي دعتْهم إلى تسجيلِ وتدوين كلِّ ما وصل إليهم، سواء كان

صدقاً أو كذباً، حقاً أو باطلاً، وسواء كان رواتُه عُدولاً صادقين، أو مجروحين وضّاعين كاذبين.

وتركوا للقارىء من بعدهم أنْ يُحسن «الاختيار»، وأن يقومَ باعتماد الروايات الصحيحة، ونبذِ وطرحِ الروايات الكاذبة.

ودعوا إلى حسن الاختيار والتخريج

ودعَوْه إلى عدم أخذ كل ما سجّلوه ودوّنوه، وعدم اِعتماد كلِّ ما ذكروه، بل نبّهوه ـ تصريحاً ـ إلى أن في كتبهم رواياتٍ باطلة مكذوبة! وعليه أنْ يحسنَ النظر والدراسة، وأنْ يَعرضَ ما سجلوه على المقياس الدقيق، والميزان الصائب، وهو قواعدُ «علم الجرح والتعديل» التي وضعها أئمةُ الحديث، الذين حفظوا أحاديثَ رسول الله ﷺ، وأحسنوا «فرزَ» الصحيح والحسن منها عن الضعيف والموضوع!

من بعدهم أخذوا الحق والباطل

ونسي مُعظمُ القارئين في كتب التاريخ الإسلامي الأولى ـ كتاريخ الطبري ـ نصيحةَ هؤلاء الأعلام المؤرخين، وأَقبلوا على كل ذلك «الركام» في مصنفاتهم، وأَخذوه وقبلوه واعتمدوه، حتى ما كان رواياتٍ مكذوبةً وضعها إِخباريون وضاعون!!

ونسبوا هذه الأكاذيبَ الموضوعة إلى أصحاب رسول الله ﷺ، واعتبروها مصادرَ تاريخية ثابتة، ومعلوماتٍ تاريخية مأمونة، وترجمةً تاريخية لفترةِ الخلفاء الراشدين.

ولذلك خرجوا بنتائج خاطئة، ونسبوا لكثيرٍ من الصحابة الكرام فظائعَ وجرائمَ وكبائر ومنكرات.

مغرضون ينشرون أغاليط تاريخية

وجاء المغرضون الحاقدون، أو المغفَّلون المخدوعون بهم من المسلمين، في هذا العصر، وأخذوا كلَّ ما وجدوه في المصنفات التاريخية الأولى، ممّا يوافق هواهم، ويحققُ الإساءةَ لفترة الخلافة الراشدة، وعرضوا تلك الأكاذيبَ في مصنفات وكتابات، ادَّعَوا لها العلميةَ والمنهجية، والبحث والتحري والموضوعية، ودَعوا القراءَ لأخذها واعتمادها.

وانتشرت هذه الكتاباتُ بين مسلمي هذا الزمان، و«كَوَّنوا» منها ثقافة تاريخية، وجعلوا منها معلومات تاريخية صادقة لفترة الصحابة.

وسائلون يبحثون عن الصحيح

وكان بعضُ الأخوة الكرام، ممن يطَّلعُ على كتابات هؤلاء المعاصرين، أو الروايات المكذوبة عند كتب السابقين، يرفضُها بفطرته، ويتشكَّكُ فيها بفراسته، ثم يقوم بالسؤال عن الحقيقة في المسألة !

كثيراً ما كانت توجَّه لنا أسئلة مخلصة من إخوة مخلصين، حول بعض الأحداثِ زمن الصحابة الكرام، فنقومُ بالإجابة عنها، وتقديمِ الصحيحِ منها.

الحاجة الماسة لتأريخ فترة الخلفاء

انطلاقاً من هذا الأمر، وجدْنا الحاجةَ ماسة، إلى تقديمِ خلاصةٍ تاريخية عن بعض الأحداث المثيرة، التي وقعت في عهد الخلفاء الراشدين، وبخاصةٍ تلك الأحداثُ التي صاحبها عنفُ المؤامرةِ الكيديّة من الأعداء، ثم كثرت حولَها الأكاذيب والافتراءات، واختلفتْ من ثم في تحليلها الآراء، وتباينت حولها الأحكام.

القبسات عن استخلافهم واستشهادهم

اخترْنا موضوعَ «استخلاف الخلفاء الراشدين واستشهادهم»، لنقدمَ له صورةً مجملة، ولقطاتٍ ومشاهد سريعة، واعتمدنا في ذلك على الرواياتِ الصحيحة المقبولة، وأعرضْنا عن الروايات المكذوبة المردودة.

لم يكن هدفُنا في هذه «القبسات التاريخية» عن الخلفاء الراشدين من حيث استخلافهم واستشهادهم، نقدَ الروايات المكذوبة، وبيانَ كذبِ رواتها الوضاعين، ولا مناقشة مضمون هذه الأكاذيب، مناقشةً علمية منهجية، وإظهار تهافُتِ وزيفِ ما فيها.

تقديم علم وليس نقداً

فما أردْنا كتابة «مناقشات تاريخية» ـ مع أن الموضوع مناسب للبحثِ والكتابة والتحري والتدقيق، وعسى أنْ يعينَ اللهُ أحدَ الباحثين على الكتابة فيه، والنقاش حوله.

إنما أردْنا أن نقدمَ للقراء الكرام صورةً مجملة، مستقاةً من خلاصة الروايات الصحيحة، لتكون زاداً علمياً يتزوّدون به، و«وجبةً» ثقافيةً يقبلون عليها، و«مادةً» تاريخية يَشيدون بها علمَهم التاريخي.

نرى أنه لا بدَّ من الكتابة في اتجاهين، في كلِّ الموضوعات الإسلامية، من: عقيدة، وتفسير، وحديث، وتاريخ، وفقه، ولغة.

الكتابة البنائية والكتابة النقدية في العلوم الإسلامية

اتجاهٌ إيجابي «بِنائي»، بتقديمِ خلاصةٍ علمية موضوعية «بنائِيَّةٍ إيجابية» لتكون علماً ومعرفةً وقناعة وزاداً للقارىء المسلم.

واتجاهٌ علميٌ نقديٌ ثقافي، بعرْضِ وجهات النظر المردودة في موضوع البحث، ونقدِها ونقضها وردِّها وإبطالها، وبيان زيفها وباطلها، ليحذرَها القارىء المسلم، ولا ينخدعَ بها.

ومما يؤسفُ له في «تراثنا الثقافي الإسلامي» أنَّ معظمَ مؤلفاتِ علمائنا الأعلام ـ في مختلف العلوم الإسلامية ـ إنما تسير في الاتجاه الثاني النقدي، وهذا مطلوبٌ وواجب، ولا بد منه، ولكن ليس هو كل شيء !!

إنَّ المؤلفات الإيجابية «البنائية» في أي موضوع، قليلة، إن لم تكن نادرة !!

هذه ملاحظةٌ نسجِّلُها لنقررَ أننا في هذه القبسات التاريخية عن استخلاف واستشهاد الخلفاء الراشدين، سرنا في الاتجاه العلمي الأول، وهدفْنا إلى تقديمِ هذا الزاد البنائي التاريخي !!

ركام تاريخي كبير فيه حق وباطل

لما رجعْنا إلى كتبِ التاريخ الأولى، وجدنا فيها رُكاماً كبيراً من الروايات التاريخية، وهي متعارضةٌ متناقضةٌ فيما بينها، ومنها ما هو مكرر، ومنها ما ينسب للصحابة الكرام أشياء وأقوالاً وأفعالاً، لا تتفق مع إيمانهم وتقواهم وأخوتهم، ومنها ما رواه كذابون وضاعون هالكون.

ومن هذه الروايات ما هو صحيحٌ صادق، رواها صادقون ثقات،

وتبدو فيها ملامح الإنصاف والموضوعية والعلمية والمنهجية.

وجدْنا أمامَنا كلَّ هذا، فحرصْنا على «حُسْنِ» الانتقاء والاختيار، وأَخْذِ ما صحَّ منها، مما رواه الثقات، وما يتفقُ مع إيمان وتقوى الصحابة.

اعتماد الصحيح المقبول

وقد استعنَّا في ذلك بما قرره علماء التاريخ الإسلامي المنصفون، وما اعتمده علماء الحديث المطّلعون، واعتمدنا ما اعتمدوه، وقبلنا ما قبلوه، ورفضْنا ما رفضوه، فنحن في اختيارنا لما اخترناه، متّبعون لأهل العلم والاختصاص في هذا المجال!

الاقتباس من تاريخ الطبري

كان مرجعُنا الأول والأهم هو «تاريخ الأمم والملوك» لإمام المؤرخين والمفسرين، أبي جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله، واعتمدْنا في هذا الكتاب على الطبعةِ التي أصدرها محمد أبو الفضل إبراهيم.

لقد جمعَ الطبري في تاريخه وأوعى، وسجلَ فيه أخباراً صحيحة، وروايات موضوعة باطلة، ودَعاك إلى حسنِ الاختيار العلمي المنهجي.

وقد اخترنا من الروايات والأخبار التي فيه أصحَّها وأصدقَها، واعتمدْنا على ما اعتمده العلماءُ المحققون منها.

والاستعانة بتاريخ ابن كثير

وأهم المصنفات التي نظرنا في رواياتِ تاريخ الطبري من خلالها هي:

«البداية والنهاية» للإمام المؤرخ المحدث ابن كثير.

و«الكامل في التاريخ» للإمام المؤرخ ابن الأثير.

وأخذْنا معظمَ ما أخذه ابن كثير، وقبلْنا معظمَ ما قبله، وقلنا بمعظم ما قالَ به، لأنه مؤرخٌ منصف، ومحدثٌ خبير، وكان اعتماده في التأْريخ لحياة الصحابة على الروايات الصحيحة للإمام ابن جرير الطبري.

واستفدْنا في الكلام على الخليفتين: عثمان وعلي رضي الله عنهما، على كتابيْن منصفيْن:

واعتماد تحقيقات العواصم من القواصم

«العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد رسول الله ﷺ» للإمام القاضي أبي بكر محمد بن عبد الله، ابن العربي المالكي، الذي أصدرَه وعلقَ عليه الإمام محب الدين الخطيب رحمه الله، ووضع له هوامشَ علمية موضوعية، لا يستغني عنها قارىءٌ منصف.

و«الخليفة المفترى عليه: عثمان بن عفان، رضي الله عنه» للشيخ المؤرخِ محمد الصادق عرجون رحمه الله، والذي وضعَ النقاط على الحروف في كثير من الإشكالات التي أُثيرت على عثمان رضي الله عنه.

ترتيب وتنسيق الأحداث

أَخذتُ الروايات التاريخية الصحيحة من تاريخ الطبري، مستعيناً بميزانِ ومقياسِ ومنظارِ ابن كثير، وكان دوري هو الترتيب التاريخي المتسلسلُ للأحداث التي أوردْتُها، ثم التنسيقُ بينها، ثم صياغتُها صياغةً كتابيةً أدبية معاصرة..

التصرف في الصياغة

أي أنني كنتُ أتصرف في الصياغة أحياناً، بإضافةِ بعض الكلمات والجمل التي توضحُ الخبرَ الذي أُورده، أو المشهدَ الذي أسجله، وذلك لتوضيحِ الصورة أمام القارىء، وهذه الكلماتُ المضافة لا تُضيف معلوماتٍ جديدة «مُدْرَجَة» زيادةً على ما قاله السابقون، وإنما هي للتوكيدِ والتوضيح، ونحن نعلم أن علماءَ الحديث يجيزون روايةَ أحاديثِ رسول الله ﷺ بالمعنى، وبدون إضافة أفكار أو معلومات جديدة، وإذا جاز هذا في أحاديث رسول الله ﷺ، فإنه في الروايات التاريخية عن الصحابة الكرام أكثر جوازاً!!!.

خمس قبسات

القبساتُ التاريخية التي اقتبستها من تاريخ الطبري وتاريخ ابن كثير خمسة. وهي:

الأولى: مرض الرسول ووفاته

القبسةُ الأولى: مرضُ رسول الله ﷺ واحتضارُه، ثم تفاصيلُ الأيامِ الخمسة الأخيرة من حياته عليه الصلاة والسلام، والوقوفُ أمام الساعات

الأخيرة له، وبعد ذلك أثرُ موتِه على الصحابة، ثم تغسيلُه وتكفينه والصلاةُ عليه ودفنه ﷺ.

واعتمدتُ في ذلك على الروايات الصحيحة التي أوردها الإمام ابن كثير، وأَخَذَها من أصح الأحاديث.

وهدفي من هذا هو تقديمُ صورةٍ صحيحة للقراء عن مرض رسول الله ﷺ ووفاته، واستبعادُ الروايات غير الصحيحة، التي قد يذكرها بعضهم لاستثارةِ عواطف القراء أو المستمعين.

وذكرتُ هذه القبسة عن الرسول ﷺ، باعتبارها تمهيداً لما بعدها، حيث جاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه خليفة، بعد وفاةِ رسول الله ﷺ.

الثانية: استخلاف الصديق ثم وفاته

القبسةُ الثانية: «أبو بكر الصديق رضي الله عنه: بين الاستخلاف والوفاة»، حيث أوردتُ مشهدَ اجتماعِ أعيان الصحابة في «سقيفة بني ساعدة»، وما أسفر عنه من اختيار أبي بَكر الصديق رضي الله عنه خليفة، ومبايعةِ الصحابة له، وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي بايعه مرتين.

وذكرتُ الحلَّ الرشيد الذي وفقَ اللهُ له الخليفة الراشد الصديق رضي الله عنه، لأعظم المشكلات التي واجَهته: مشكلة جيش أسامة، ومشكلة المرتدين ومانعي الزكاة.

لم يكن الصديق شهيداً

ثم ذكرتُ مشهدَ مرض أبي بكر رضي الله عنه واحتضارِه ووفاته، ثم الصلاة عليه ودفنه.

ولم أعتمدْ ما قالهُ بعضُ المؤرخين من أنّ أبا بكر رضي الله عنه قد مات مسموماً، حيث وضعَ له أعداءُ الإسلام السم في طعامه، وبهذا اعتبروه شهيداً، وقلتُ بما قال به معظم المؤرخين من أنّ وفاته كانت وفاةً عادية طبيعية، بانتهاء أجله.

ورغم أن أبا بكر لم يكن شهيداً، إلا أن عنوان الكتاب «الخلفاء

الراشدون: بين الاستخلاف والاستشهاد» كان من باب التغليب ـ كما يقول علماء اللغة ـ لأنَّ ثلاثةً من الخلفاء الأربعة كانوا شهداء !!

الثالثة: استخلاف عمر واستشهاده

القبسةُ الثالثة: «عمر بن الخطاب رضي الله عنه: بين الاستخلاف والاستشهاد». وقد ذكرتُ تفاصيل مبايعته، وأهمَّ أعمالهِ في خلافته، ثم وقفت وقفة مطولة أمام مؤامرة اغتياله، التي كان يحسُّ هو بها، ويعلم أن الفتنَ ستدخل على الأمة بعد مقتله، ثم تابعت عرض تفاصيل المؤامرة، التي حاكها الثالوث الحاقد: اليهودي النصراني المجوسي، وعرضتُ صورَ ولقطاتِ تنفيذ المؤامرة، على يد المجوسي أبي لؤلؤة، ثم مشهد عمر رضي الله عنه عند احتضاره، ثم استشهاده، وما أوصى به قبل موته.

الرابعة: استخلاف عثمان واستشهاده

القبسةُ الرابعة: «عثمان بن عفان رضي الله عنه: بين الاستخلاف والاستشهاد». ذكرتُ فيها تفاصيلَ مشهد الشورى، الذي قام به عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، والذي أدى إلى مبايعة عثمان.

البطء في عرض مسلسل الفتنة ودور السبئيين فيها

وحرصتُ على التأني والبطء في عرضِ أحداث الفتنة، التي بدأت بعد ست سنوات من استخلاف عثمان، وبدأتُ عرضَ «مسلسل» الأحداث أولاً بأول، ولقطة لقطة، منذُ أنْ بدأتْ في الكوفة والبصرة، ثم استفاد منها اليهود الحاقدون، وغذّاها الشيطان اليهودي «عبد الله بن سبأ».

ووظَّفَ المذنبين واللصوص وطالبي الزعامة من المسلمين، واستغفلَ الرعاع والسذج من الأعراب والجاهلين من المسلمين، واستعانَ بهؤلاء جميعاً في إفسادِ حياة المسلمين، وزعزعةِ نظامهم، وقتْلِ خليفتهم.

تابعتُ خطواتِ «التنظيم السبئي» الذي أنشأه عبدُ الله بن سبأ، وفروعَه العاملة في مصر والكوفة والبصرة، وأهم أتباعه وأعوانه فيها.

كما رصدتُ خطة هؤلاء «السبئيين» في نشر الإشاعات ضد عثمان ووُلاته، وفي الزحفِ على المدينة المنورة، ثم احتلالها مدة أربعين يوماً.

وعرضتُ الأحداثَ المفصلةَ في المدينة، في أيامِ الحصار الأخيرة،

وحرصتُ على ذكر التفاصيل الصحيحة للأيام الأخيرة من عُمْر عثمان رضي الله عنه، ومسارعة السبئيين بالهجوم على بيته، ثم الإقدام على جريمة اغتياله وقتله رضي الله عنه، ثم سجلت مشهد الصلاة عليه ودفنه.

الخامسة: استخلاف علي واستشهاده

القبسة الخامسة: «علي بن أبي طالب رضي الله عنه: بين الاستخلاف والاستشهاد» التقطتُ فيها طرفَ الخيط منذُ استشهاد عثمان، وعرضتُ مشهدَ اختيار علي بن أبي طالب، وأهمَّ المداولات والمشاورات، التي قام بها السبئيون أولاً مع أعيان الصحابة، ثم استنجاد واستغاثة الصحابة بعلي ليرضى بالاستخلاف، وينقذَ الأمة، وإقدامَ علي على القيام بهذه المسؤولية، بتضحية وفدائية، مع علمه بعواقبها ونتائجها.

اختلاف الصحابة في الموقف من علي

وقدمتُ لقطاتٍ من خروج بعض الصحابة كطلحة والزبير وعائشة، وعدمِ طاعةِ بعض الصحابة له كمعاوية وعمرو بن العاص، واعتزال بعض الصحابة الفتنة كسعيد بن زيد وسعد بن أبي وقاص، ودعوةِ بعض الصحابة إلى عدم القتال كأبي موسى الأشعري وعمران بن حصين، وحيرةِ بعض الصحابة كالقعقاع بن عمرو التميمي، واستبسال بعض الصحابة في نصرة علي كعمار بن ياسر وعبد الله بن عباس، رضي الله عنهم أجمعين.

السبئيون زمن علي

وحرصتُ على متابعةِ رصدِ خطوات السبئيين في جيش علي، وجهودِهم في نشر الفُرقة والفتنة بين المسلمين، والقضاءِ على محاولات الصلح، كما فعلوا قبيل معركة «الجمل». وسجلت دورَ هؤلاء السبئيين في مضاعفة مشكلات علي، وإضعاف موقفه أمام الآخرين، لوجودهم في جيشه، وقدمتُ وجهة نظره في ذلك.

مجمل الأحداث والمعارك زمن علي

وتابعتُ خطواتِ القضاء على هذا «التنظيم السبئي»، في البصرة قبل معركة الجمل، وبعد معركة الجمل، ثم إبادة هذا التنظيم المعادي في معركة صفين، وقتْل بعض الناجين من هذا التنظيم بعد صفين، كمقتل الأشتر النخعي في طريقه إلى مصر، ومقتل حرقوصِ بن زهير مع الخوارج !!

وعرضتُ مجملَ أحداث البصرة ومعركة الجمل، واستشهاد طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام رضي الله عنهما.

وقدمتُ مجملَ أحداث معركة صفين، وما نتج عنها من دعوة للتحكيم، وتابعتُ اجتماعَ الحَكَمين أبي موسى وابن العاص في «أَذْرُح»، وما اتفقا عليه، مما لم تنفذه الأمة بعد ذلك.

مشكلة علي مع الخوارج

ووقفتُ مع علي رضي الله عنه في مشكلته الأخيرة والخطيرة مع الخوارج، تكلمتُ فيها بإيجاز عن تطورِ وتَسارعِ مشكلتهم، منذ خروجهم على علي أثناء معركة صفين، ثم تكفيرهم له لَقبوله التحكيم قبل دخوله الكوفة، ثم مفارقتهم له بعد ذلك، ثم مقتل معظمهم في معركة «النهروان».

وأخيراً عرضتُ مشهدَ التآمر الخارجي على علي، الذي أعده عبد الرحمن بن ملجم، والذي نجحَ في النهاية في ضرب علي بالسيف ضربة قاتلة.

وعشتُ مع علي ساعاته الأخيرة، التي انتهتْ باستشهاده، ثم عرضت صورةَ الصلاة عليه ودفنِه.

استخلاف الحسن وتنازله لمعاوية عام الجماعة

وأحببتُ أن أختم هذه القبسة بذكرِ خلاصةٍ موجزةٍ لاستخلاف ابنه الحسن رضي الله عنه، والأسبابِ التي حملتْه على مصالحة معاوية، والتنازل له عن الخلافة، ونبوءة الرسول ﷺ الصادقة في ذلك.

وكانت آخرُ لقطةٍ من هذه المشاهد واللقطات، لقطةَ مبايعة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، لتنتهي به فترة الخلافة الراشدة، وتبدأ به فترةُ الملك، وذلك في عام «الجماعة»!!

والحمد لله رب العالمين على فضله وعونه وتوفيقه.

* * *

القبسة الأولى

مرض الرسول ﷺ ووفاته

بعد حجة الوداع

حجَّ رسول الله ﷺ حجتَه الوحيدة، وهي «حجةُ الوداع»، في السنة العاشرة من الهجرة.

وعاد الرسول ﷺ إلى المدينة في آخرِ شهرِ ذي الحجة، من السنة العاشرة، فأقام بالمدينة بقيةَ ذي الحجة، ومحرم وصفر، من السنة الحادية عشرة للهجرة.

الرسول يشكل جيش أسامة ويزيل الشبهات حول إمرته

وفي شهرِ صفر من السنة الحادية عشرة بعثَ رسول الله ﷺ جيشاً من المسلمين المجاهدين، وأَمَّرَ عليهم «أسامةَ بن زيد» رضي الله عنهما.

وأَمَرَ «أسامةَ بن زيد» أنْ يتوجَّه نحو الشام، وأن يحارب الرومَ وأعوانَهم من العرب الغساسنة في «البلقاء»، وأن يأخذَ بثأر أبيه «زيد بن حارثة» رضي الله عنه، الذي استُشهدَ في معركة «مؤتة».

وكان في جيشِ أسامة مجموعةٌ من كبار المهاجرين والأنصار، منهم «عمرُ بن الخطاب» رضي الله عنه.

وكأنَّ بعضَهم تكلمَ في إمارةِ «أسامة بن زيد» رضي الله عنه، وهو الشابُّ الصغير في السن، فقالَ رسول الله ﷺ: إنْ تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارةِ أبيه من قبل، وايْمُ الله إنْ كان لخليقاً للإمارة، وإنْ كانَ لمن أحبِّ الناس إليَّ، وإنَّ ابنَه أسامة لمن أحب الناس إليَّ ![1]

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٥: ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

الجيش ينتظر بسبب مرض الرسول المفاجىء

وكان جيشُ أسامة هو آخرَ بعثٍ بعثَهُ رسول الله ﷺ، حيث عسكرَ الجيش في منطقة «الجُرْف» قربَ المدينة، بسببِ مرضِ الرسول ﷺ، ينتظرون ما سيكون من أمْرِ الرسول عليه الصلاة والسلام، فليس من المناسبِ أنْ يغادرَ الجيشُ المدينة، والرسول ﷺ مريض[1].

ابتدأَ مرضُ الرسول ﷺ في الأيامِ الأخيرة من شهرِ صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة.

الرسول يزور البقيع قبل أسبوعين من وفاته

وفي أول شهرِ ربيع الأول، وقبلَ حوالي أسبوعين من وفاتِه، قامَ الرسول ﷺ بزيارةِ مقبرة «بَقيع الغَرْقَد» التي كان يُدْفَنُ فيها الصحابة رضوان الله عليهم، فاستغفرَ للصحابة الأموات ودعا لَهم.

وكانت زيارتُه للبقيع في منتصف الليل، فلما أصبحَ الصباحُ ابتدأَ مرضُ الرسول ﷺ[1].

روى الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عائشة رضي الله عنها قالت: رجعَ رسول الله ﷺ من البقيع، فوجَدَني وأنا أجدُ صداعاً في رأسي، وأنا أقول: وارَأْساه. فقال: بل أنا والله ياعائشة وارأساه.

ثم قال لي: ما ضَرَّك ياعائشة، لو مِتِّ قبلي، فتولَّيْتُ أَمْرَك، وقمتُ عليك، وكفَّنْتُك، وصلَّيْتُ عليك، ودفنْتُك !!

فقلت: والله إني لأحسب لو كان ذلك، لقد رجعتَ إلى بيتي فأَعرسْتَ فيه ببعضِ نسائك !.

فضحكَ رسول الله ﷺ.

الرسول يقيم في بيت عائشة أثناء مرضه

ثم اشتدَّ المرض على رسول الله ﷺ، وهو يدورُ على نسائه، وزادَ المرض عليه وهو في بيت «ميمونة» رضي الله عنها[1].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٥ : ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

وكان رسول الله ﷺ يسألُ في مرضه الذي مات فيه: أينَ أنا غداً ؟ أين أنا غداً ؟

يريدُ في بيتِ أيِّ زوجة من زوجاته، لأنه كان يَقْسِمُ لكل زوجة منهنَّ ليلَتَها.

وقالت عائشةُ رضي الله عنها: استأذنَ رسول الله ﷺ نساءَهُ أن يُمرَّضَ في بيتي، فأذِنَّ له.

فخرجَ رسول الله ﷺ من بيت ميمونة إلى بيت عائشة، وهو مريض، عاصبٌ رأسه، وكان بين رجلين من أهله، أحدُهما عَمُّه العباس، والثاني عليُّ بن أبي طالب، وكانت رِجْلاه تَخُطّان الأرضَ من المرض !!

فبقيَ في بيتِ عائشة حتى توفّاه الله[1].

روى عروةُ بن الزبير عن خالته عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا اشتكى نَفَثَ على نفسه بالمعوّذات، ومسحَ عنه بيده. فلما اشتكى وجعَه الذي تُوُفِّيَ فيه، طفقْتُ أنفثُ على نفسه بالمعوّذات التي كان ينفث، وأمسح بيد النبي ﷺ عنه.

الرسول يشكو أثر السم الذي وضع له في خيبر

وروى عروةُ أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أن النبيَ ﷺ كان يقول في مرضه الذي مات فيه: ياعائشة ماأزالُ أجدُ ألمَ الطعام الذي أكلْتُ في خيبر، فهذا أوانُ انقطاعِ أَبْهَري من ذلك السمّ.

والأَبْهَر هو وريدُ العُنُق.

يُشيرُ الرسول ﷺ إلى اليهودية التي قدمَتْ له الذراعَ المسمومةَ يوم فتح خيبر، حيث أخذَ منه لقمةً فمضَغَها ثم لفظَها ورماها، وقال: إن هذا الذراعَ يخبرُني أنه مسموم. بينما أكلَ من ذلك الذراعِ المسمومِ الصحابيُّ «بِشْرُ بن البَراء» فتوفِّي.

---

(١) البداية والنهاية ٥: ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

وسألَ رسول الله ﷺ اليهودية: ما حملَكِ على ما صنعت؟ فقالت: إنْ كنتَ نبياً فلن يضرَّك، لأن الله سيخبرُكَ أنه مسموم، وإنْ كنت كاذباً مِتَّ بالسّمّ، واسترَحْنا منك!

فكان أثرُ السمِّ يعاودُ الرسول ﷺ.

ابن مسعود يرى أن الرسول شهيد

وقد كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يرى أن الرسول ﷺ ماتَ متأثراً بسمٍّ اليهودية للذراع، ولذلك فهو شهيد!

قال ابنُ مسعود: «لأن أحلفَ تسعاً أنَّ رسول الله ﷺ قُتِلَ قتلاً، أحبُّ إليَّ منْ أنْ أحلفَ واحدة أنه لم يُقْتَل، وذلك أنَّ الله اتخذه نبياً، واتَّخَذه شهيداً!!»[1].

سبب بكاء فاطمة ثم ضحكها من حديث الرسول لها

وروى مسروقٌ عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما مرضَ رسول الله ﷺ في بيتها، اجتمعَ عنده جميعُ نسائه، لم تتخلَّفْ واحدةٌ منهن.

وبينما كنَّ مجتمعات جاءت ابنته فاطمةُ رضي الله عنها تمشي، لا تُخطىءُ مشيتُها مشيةَ أبيها.

فقال لها رسول الله ﷺ: مرحباً بابنتي، فأَقعدها عن يمينه، ثم سارَّها بشيء فبكَتْ! ثم سارّها بشيء فضحكَتْ!!

فلما قامت فاطمةُ رضي الله عنها من عندِ أبيها سألَتها عائشةُ رضي الله عنها عن ما قاله الرسول ﷺ لها، فأبكاها ثم أضحكها!

فأجابَتْها قائلةً: ما كنتُ لأُفشي سرَّ رسول الله ﷺ!!

فلما توفيَ الرسول ﷺ قالتْ عائشة لفاطمة رضي الله عنهما: أَسْأَلُكِ لما لي عليكِ من الحق، لما أخبرتيني عن ما سارَّك به رسول الله ﷺ.

قالت فاطمة: أما الآن فنعم!

---

(١) البداية والنهاية ٥: ٢٢٥ ـ ٢٢٧.

سارّني أولاً فقال لي: إنَّ جبريلَ كان يعارِضُني في القرآن كل سنة مرة، وقد عارضني في هذا العام مرتَيْن، ولاأرى ذلك إلا لاقترابِ أَجَلي، فاتَّقي الله واصْبِري، فِنِعْمَ السَّلَف أنا لك، فبكَيْتُ !!

ثم سارّني ثانياً، فقال لي: أما ترضين أنْ تكوني سيدةَ نساءِ العالمين، وستكونين أولَ الناسِ لحوقاً بي من أهل بيتي ! فضحكْتُ !

وقد توفيتْ فاطمةُ رضي الله عنها، بعد حوالي ستةِ أشهر من وفاة أبيها، وكانت فعلاً أول أهل بيته لحوقاً به، وصدقَ رسولُ الله ﷺ !»[1]

أحداث الأيام الخمسة الأخيرة من حياة الرسول

وقد أرادَ الرسولُ ﷺ أنْ يكتبَ للمسلمين كتاباً حتى لا يختلفوا، وكان هذا قبل وفاتِه بخمسةِ أيام.

وكان هذا في صباحِ يوم الخميس الثامنِ من ربيع الأول في السنةِ الحادية عشرة.

ومعلومٌ أن الرسول ﷺ توفيَ يومَ الإثنين في الثاني عشر من شهر ربيع الأول.

صباح الخميس الثامن من ربيع الأول

روى الزُّهريُّ عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما قال: «حضرَ رجالٌ في البيت عندَ رسول الله ﷺ، فقالَ لهمَ الرسول ﷺ: هلمُّوا أكتبْ لكم كتاباً، لا تضِلّوا بعدَه أبداً !

فقال بعضُهم: إنَّ رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، وحسْبُنا كتابُ الله.

كان الرسول يريد أن يكتب للمسلمين كتابا بالعهد لأبي بكر

وقال بعضُهم: هاتوا يكتب لكم كتاباً.

فاختلفوا عند الرسول ﷺ، واختصموا وتنازعوا.

فقال رسول الله ﷺ: قوموا، ولا ينبغي عندي التنازع !!

---

(١) البداية والنهاية ٥: ٢٢٦.

وكان ابنُ عباس رضي الله عنهما يقول: إنَّ الرزيةَ كلَّ الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ، وبينَ أن يكتبَ لهم ذلك الكتاب !!»

والكتابُ الذي كان يريد أن يكتبُه، لئلا يختلفَ المسلمون بعد وفاته، هو العهدُ لأبي بكر الصديق رضي الله عنه بالخلافة.

لأنَّ عمَّهُ العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه كان يريد الأمْرَ في بني هاشم!

العباس يشير على علي بطلب الخلافة من الرسول وعلي يرفض

روى عبدُ الله بن كعب بن مالك عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم قال: «خرجَ عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه من عند رسول الله ﷺ في وَجَعِه الذي توفيَ فيه، فقال له الناس: يا أبا الحسن: كيفَ أصبحَ رسول الله ﷺ؟

فقال علي: أصبح بحمد الله بارئاً.

فأخذ العباسُ بن عبد المطلب بيد عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنهما، فقال له: أنت والله بعد ثلاثٍ عَبْدُ العصا!! وإني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يُتَوَفَّى من وَجَعِه هذا! وإني لأعرفُ وجوه بني عبد المطلب عندَ الموت!

اذهبْ بنا إلى رسول الله ﷺ، فلنسأله فيمن هذا الأمر؟ إنْ كان فينا علمْنا ذلك، وإن كان في غيرنا علِمْناه، فأوصى بنا!!

فقال له عليّ: إنّا والله، لئن سألْناها رسول الله ﷺ فَمَنَعَناها، لا يُعْطيناها الناسُ بعده، وإني والله لاأسألُها رسول الله ﷺ»[1].

والدليلُ على أنَّ الرسول ﷺ كان يريدُ أن يكتب بالخلافة لأبي بكر مارواه القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لقد هممت أن أرسلَ إلى أبي بكر فأعهَدَ إليه، لئلا يقول

---

(١) البداية والنهاية ٥: ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

القائلون، أو يتمنّى المتمنّون، يأبى الله ذلك والمؤمنون !».

أقوال وأفعال الرسول الأخيرة تشير إلى ترشيحه لأبي بكر

وقد كان الرسول ﷺ في أيامه الأخيرة يشيرُ إلى أبي بكر، وكأنه يوحي للمسلمين أنّ الأمر سيكون من بعده لأبي بكر.

ومن أصرح ما ورد من ذلك ما رواه جُبير بن مطعم رضي الله عنه قال: «أتت امرأةٌ إلى رسول الله ﷺ، فأَمَرَها أن ترجعَ إليه بعد ذلك.

فقالت له: أرأيتَ إن جئتُ ولم أجدْكَ ؟ وهي تعني الموت.

فقال لها: إن لم تجديني فأتي أبا بكر !!»

آخر خطبة للرسول يوم الخميس

وفي يوم الخميسِ الثامنِ من ربيع الأول ـ قبل وفاتِه ﷺ بخمسة أيام ـ خرجَ عليه الصلاة والسلام من بيت عائشة إلى المسجد، وخطبَ خطبةً مؤثِّرة، وكانت هي آخرَ خطبةٍ له ﷺ في المسلمين ﷺ.

وهذه الخطبةُ هي عوضٌ وبديلٌ عن الكتاب الذي كان يريدُ أن يكتبه للمسلمين، وأنْ يعهدَ فيه بالخلافة لأبي بكر.

وقد روى خطبتَه بعض الصحابة منهم: أبو سعيد الخدري، وعبد الله بن عباس، وأم سلمة وعائشة رضي الله عنهم.

روى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عائشة رضي الله عنها قالَت: قال رسول الله ﷺ قبلَ وفاتِه بخمسةِ أيام: «أَريقوا عليَّ الماءَ من سبعِ قِرَب، لم تُحلَلَ أَوْكِيَتُهُنّ، حتى أخرُجَ فأعهدَ إلى الناس.

قالت: فطفقْنا نصبّ عليه الماء من تلك القِرَب، حتى طفقَ يشيرُ إلينا بيده، أنْ قد فعلتُنّ !».

وقالتْ أمّ سلمة رضي الله عنها: خرجَ رسول الله ﷺ عاصباً رأسَه، فلما استوى على المنبر، تحدَّقَ الناس بالمنبر، يسمعون خطبته.

بعض ما قاله الرسول في تلك الخطبة

وقد بيَّنَ ﷺ في هذه الخطبة فضْلَ أبي بكر الصديق رضي الله عنه على باقي الصحابة، وفي هذا إشارةٌ لهم إلى أن لا ينازعوه الأمرَ بعد الرسول ﷺ !!

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: قالَ رسول الله ﷺ في خطبته:

«إنَّ اللهَ خَيَّرَ عبداً بين الدنيا، وبين ما عنده، فاختارَ ذلك العبدُ ما عندَ الله!

ففهِمَها أبو بكر رضي الله عنه من بين الناس، فبكى، وقالَ للرسولِ ﷺ: بأَبي أنت وأُمّي يارسول الله، نفديكَ بآبائنا وأمهاتنا وأنفسنا وأموالِنا!!

قالَ أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: فعجبْنا لبكاءِ أبي بكر، ولكنْ كان رسول الله ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكر أعلَمَنا به.

إشارته إلى فضل أبي بكر

ومما قالَه رسول الله ﷺ في تلك الخطبة عن فضلِ أبي بكر الصديق:

إنَّ أمَنَّ النَّاسِ عليَّ في صحبتِهِ ومالِه أبو بكر، ولو كنت متخذاً غير ربي خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً، ولكنْ خلَّةَ الإسلام ومودَّتَه، وإن ربي اتخذَني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً.

ثم قال: لا يبقى بابٌ في المسجدِ إلا سُدّ، إلا باب أبي بكر!!».

وذلكَ لأنَّ بعضَ الصحابة جعلوا لهم أبواباً توصِلُ إلى داخلِ المسجد، يدخلونَ إليه منها، فأمرَ رسول الله ﷺ بسدٍّ وإغلاقِ تلك الأبوابِ كلِّها، إلا بابَ أبي بكر الصديق، فإنه أمرَ بإبقائِه مفتوحاً.

وقد اعتبر العلماء هذا الاستثناءَ لأبي بكر رضي الله عنه، إشارةً من الرسول ﷺ للمسلمين، ليجعلوه خليفةً لهم، وكأنَّ الخلافةَ هي البابُ الذي يخرجُ منه أبو بكر الصديق ليصلِّي بالمسلمين!

وكان مما فعله الرسول ﷺ في تلك الخطبة: أنْ أوصى بالأنصار خيراً، واستغفر لشهداءِ أُحُد، ونهى عن اتخاذ القبور مساجد، وذلك في قوله:

«إنَّ قوماً ممن كانوا قبلكُم، اتخذوا قبور أنبيائهم وصلحائِهم مساجد، فلا تتخذوا القبور مساجد، فإنّي أنهاكم عن ذلك!

وبعدما أنهى الرسول ﷺ خطبتَه، أعادوه إلى بيت عائشة رضي الله عنها، فاشتدَّ به الوَجَع، وزادَ عليه المرض»[1]

الرسول لا يقدر على الصلاة إماماً من يوم الخميس

لما اشتدَّ الوجعُ بالرسول ﷺ، يومَ الخميس المذكور، عجزَ عن الصلاة بالمسلمين ! فأَمَرَ من يصلي بهم !

روى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن زمعة بن الأسود رضي الله عنه قال: «لما اشتد المرض برسول الله ﷺ وأنا عنده في نفرٍ من المسلمين، دعا بلالُ بن أبي رباح رضي الله عنه للصلاة.

الرسول يرفض إمامة عمر ويريد أبا بكر

فقال رسول الله ﷺ: مُرُوا من يصلّي بالناس ! قال ابنُ زُمْعَة رضي الله عنه: فخرجتُ فإذا عُمر مع الناس، وكان أبو بكر غائباً.

فقلت: قُمْ ياعُمر فصلِّ بالناس !

فلما قام عمر ليصلي، سمعَ رسول الله ﷺ صوتَه ـ وكان صوتُ عمر رضي الله عنه جهورياً ـ فغضبَ ﷺ، وقال: أين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون !

فبعثُوا إلى أبي بكر رضي الله عنه، فجاء وصلى بالمسلمين !

ثم قال عمرُ لابن زمعة رضي الله عنهما: وَيْحَك، ماذا صنعْتَ يابن زمعة ؟ والله ما ظننْتُ حين أَمَرْتَني، إلا أن رسول الله ﷺ أمرني بذلك، ولولا ذلك ما صلَّيت.

قال عبد الله بن زمعة: والله ما أَمَرَني رسول الله ﷺ، ولكن حين لم أرَ أبا بكر، رأيتكَ أحقَّ من حَضَر !!».

الرسول ينص على إمامة أبي بكر ويرد على عائشة

ثم نصَّ الرسول ﷺ على أبي بكر، ليصلِّي بالناس.

روى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عائشة

---

(١) البداية والنهاية ٥: ٢٢٨ ـ ٢٣١.

رضي الله عنها، قالت: «لما مرض رسول الله ﷺ، مرضه الذي مات فيه، قال: مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس!

فقلت: يارسول الله: إنَّ أبا بكر رجلٌ رقيقٌ أسيف، إذا قرأ القرآنَ لا يملكُ دمعَهُ، وإذا قامَ مقامَكَ لم يستطع أن يصلِّي بالناس، فلو أمرت غيره ليصليَ بالناس يارسول الله!

قالت: والله ما حَمَلني على ذلك إلا أني خشيتُ أنْ يتشاءَمَ الناسُ بأبي بكر، لأني علمت أنه لنْ يقومَ أحدٌ مقامَ رسول الله ﷺ إلا تشاءمَ الناسُ به، فأحببتُ أنْ يعدلَ رسول الله ﷺ عن أبي بكر إلى غيره!!

قالت: فراجعْتُ رسول الله ﷺ، وعاودْتُه مرتين أو ثلاثاً، ليكلِّف غير أبي بكر.

ولكنه قال: مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس، وإنَّكُنَّ صواحب يوسف!!»[1].

قالت: فصلّى أبو بكر بالناس من ذلك اليوم، إلى أن قُبِضَ رسول الله ﷺ بعد خمسة أيام!

آخر صلاة الرسول إماماً ظهر يوم الخميس

وكانت آخر صلاة صلاها رسول الله ﷺ إماماً بالمسلمين هي صلاة الظهر، من يوم الخميس، الثامنِ من ربيع الأول.

روى الأسود عن عائشة رضي الله عنها أن الرسول ﷺ قال: «مُروا أبابكرٍ فليصلِّ بالناس».

فخرجَ أبو بكر رضي الله عنه ليصلي بالناس.

ولما أُقيمت الصلاة، ووقف أبو بكر ليصلي إماماً، وجدَ الرسولُ ﷺ في نفسه خِفَّةً، فخرج يُهادى بين كلٍّ من العباس وعليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنهما، فلما رآه أبو بكر أرادَ أن يتأخرَ ليتقدم رسول الله ﷺ ليصلي بالناس.

---

(١) البداية والنهاية ٥: ٢٣١ ـ ٢٣٣.

فأومأ إليه رسول الله ﷺ: أن ابْقَ مكانَك.

فأَجْلسا الرسول ﷺ إلى جنبِ أبي بكر. ووقف أبو بكر إلى يمينِ رسول الله ﷺ!

وكان الإمامُ هو الرسول ﷺ، حيث صلى بالناس قاعداً، وصلَّى أبو بكر رضي الله عنه قائماً، مقتدياً بالرسول عليه الصلاة والسلام، وصلّى الناسُ بصلاة أبي بكر رضي الله عنه!!».

الرسول ينقطع عن الناس ثلاثة أيام كوامل

ثم عادَ رسول الله ﷺ إلى بيتِ عائشةَ ظهرَ يوم الخميس، وما صلّى بالناس بعد ذلك لشدة مرضه.

انقطعَ الرسول ﷺ عن الناس ثلاثة أيامٍ كاملة، وهي الجمعةُ والسبت والأحد، وعجزَ عن الخروج إليهم، أو الصلاة معهم، لاشتداد المرض عليه، صلى الله عليه وسلم.

وفي صباح يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول، أُقيمت صلاة الفجر، وتقدم أبو بكر ليصلِّي بالناس، فكشف الرسول ﷺ سِتْرَ حجرتِه الشريفة ينظرُ للمسلمين وهو يبتسم...

قال أنس بن مالك رضي الله عنه ـ وكان يقوم على خدمة رسول الله ﷺ ـ: لم يخرج النبيُّ ﷺ إلينا ثلاثةَ أيام، بسبب وَجَعِه، وكان أبو بكر يصلي بنا.

الرسول يلقي «نظرة الوداع» على المسلمين فجر الإثنين

فلما كان فجرُ يومِ الإثنين، أُقيمت الصلاة فتقدّمَ أبو بكر ليصلّي بنا، وبينما كُنّا صفوفاً في الصلاة، كشفَ النبي ﷺ ستْرَ الحجرة، ينظر إلينا، فلما رأينا وجهَ النبي ﷺ، مارأينا منظراً كان أعجبَ إلينا من وجهه ﷺ، كأنَّ وجهه ورقةُ مصحف، وكان يتبسمُ ويضحك..

فكدنا نُفتتنُ من الفرح برؤيةِ النبي ﷺ، ونكَص أبو بكر إلى الصفِّ في الخلف، ظنّاً منه أن الرسول ﷺ خارجٌ ليصلي بنا، فأومأَ إلينا رسول الله ﷺ أن أتموا صلاتكم!

ثم أَرخى الستر . . وصلّى المسلمون الفجر . .

وكانتْ هذه آخر مرةٍ يشاهد فيها المسلمون الرسولَ ﷺ حياً، وآخر مرة ينظرُ إليهم فيها . .

وقد ودَّعَهم الرسول ﷺ بتلك النظرةِ الحانية، وتلك الابتسامةِ الحبيبة !!

أبو بكر يظن شفاء الرسول ويذهب إلى السنخ

ولما صلّى أبو بكر الفجر بالناس، ورأى نظرةَ وابتسامةَ رسول الله ﷺ، دخلَ على ابنته عائشةَ رضي الله عنها، وقال لها :

ياعائشة ما أرى رسول الله ﷺ، إلا قدْ أقلعَ عنه الوجع، وزالَ عنه المرض. وهذا يومُ ابنةِ خارجة، وإني ذاهبٌ إليها .

وابنةُ خارجة هي إِحدى زوجتَيْ أبي بكر الصديق، وكانت ساكنةً في منطقة «السَّنْح»، وهي منطقةٌ زراعيةٌ تقعُ شرقيَّ المدينة، وهي ضاحيةٌ من ضواحيها .

فركبَ أبو بكر فرسَه بعد فجرِ يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول، وتوجَّهَ إلى بيتِ زوجته في منطقة السَّنْح[1] !!

ابن مسعود يروي عن توعك وحمىٰ الرسول

ودخلَ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه على رسول الله ﷺ، وهو يوعَكُ وعْكاً شديداً من الحمّى التي أصابَتْه .

قال عبد الله بن مسعود: «دخلتُ على رسول الله ﷺوهو يُوعك، فمَسَسْته، فقلت: يارسولَ الله، إنك لتوعكُ وعكاً شديداً !

قال: أجل، إني أوعَكُ كما يوعَكُ الرجلان منكم !

قلت: إنَّ لك لأجْرَيْن؟

قال: نعم ! والذي نفسي بيده، ما على الأرضِ مسلمٌ يُصيبُه أذى، من مرضٍ فما سواه، إلا حطَّ الله عنه خطاياه، كما تحطُّ الشجرةُ ورَقَها !!».

---

(١) البداية والنهاية ٥: ٢٣٣ ـ ٢٣٥.

وقالت عائشةُ رضي الله عنها: ما رأيتُ الوجعَ على أحدٍ أشدَّ منه على رسول الله ﷺ.

وأسامة بن زيد بعود الرسول

وكان أسامةُ بن زيد رضي الله عنه مُعسكِراً بالجيش في منطقة «الجُرْف»، فلما سمع باشتدادِ المرض على رسول الله ﷺ، دخلَ على الرسولِ عليه الصلاة والسلام في صباحِ يومِ الإثنين!

قال أسامة: «لما ثَقُلَ رسول الله ﷺ، هبطْتُ، وهبطَ الناسُ معي إلى المدينة، فدخلتُ على رسولِ الله ﷺ، وقد أَصْمَتَ فلا يتكلمُ من شدةِ المرض، فجعلَ رسول الله ﷺ يرفعُ يديه إلى السماء، ثم يضعُها على وجهه، فعرفتُ أنه يدعو لي[1]!».

عائشة تروي اللحظات الأخيرة من حياة الرسول

وقد روتْ عائشةُ رضي الله عنها اللحظاتِ الأخيرة من حياة الرسول ﷺ، وهي ما كانتْ في ضحى يوم الإثنين، الثاني عشر من ربيع الأول.

قالت: «لما نزلَ برسول الله ﷺ المرض، طفقَ يطرحُ خميصةً له على وجهه، فإذا اغتمَّ كشَفَها عن وجهه. فقال وهو كذلك: لعنةُ الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد!

الرسول يمسح وجهه بالماء

وقالت: «رأيتُ رسول الله ﷺ وهو يموت، وعنده قدَحٌ فيه ماء، وهو يُدخلُ يده في القدَح، ثم يمسحُ وجهه بالماء، ثم يقول: لا إله إلا الله، إنَّ للموتِ لسكَرات! اللهمَّ أعنّي على سكراتِ الموت!».

الرسول يختار الآخرة

وقالت: «كنّا نُحَدَّثُ أن النبي ﷺ لا يموت حتى يخيَّرَ بين الدنيا والآخرة. فلما كان مرضُ رسول الله ﷺ، الذي مات فيه، عرَضَتْ له بَحّة، فسمعتُه يقول: «مع الذينَ أنعمَ اللهُ عليهم، من النبيّين والصديقين والشهداءِ والصالحين، وحسنَ أولئك رفيقاً». فعلِمْنا أنّه يُخَيَّر!».

---

(١) البداية والنهاية ٥: ٢٣٧.

آخر كلمة للرسول

وقالتْ: أسندْتُ رسول الله ﷺ إلى صدري، فأصغَيْتُ إليه قبل أن يموت، فسمعتُهُ وهو يقول: اللهمّ اغفِر لي، وارحَمْني، وألحِقْني بالرفيقِ الأعلى!

وقالت: إنَّ من نعمة الله عليَّ، أن رسول الله ﷺ توفيَ في يَوْميَ وفي بيتي، وبين سَحْري ونَحْري، وإنَّ اللهَ جمع بين ريقي وريقِه عند الموت!

الرسول يستعمل السواك

فقد دخلَ علَيَّ أخي عبدُ الرحمن بن أبي بكر، ومعه سِواكٌ رطبة، وأنا مُسْنِدَةٌ رسول الله ﷺ إلى صدري!

فرأيتُ رسول الله ﷺ ينظرُ إلى السواك، وقد عرفْتُ أنه يحب السواك ويألَفُه.

فقلتُ له: آخذُهُ لك؟

فأشارَ برأسه. أي: نَعَم.

فأخذْتُ السواك من عبد الرحمن، فليَّنْتُها له، ثم دفعْتُها له.

فأَمَرَّها على فيه، واستَنَّ بها، أحسنَ ما كان مُسْتَناً، ثم حاولَ أن يناولَني إياها، فلم يستطع، فسقطَتْ من يده... فجمعَ اللهُ بين ريقي وريقه في آخر يوم من الدنيا، وأولِ يومٍ من الآخرة!!

خروج روح الرسول الشريفة من جسده الشريف

وقالت: كان بين يدَي رسول الله ﷺ «ركْوَة» فيها ماء، فجعلَ يُدْخِلُ يده في الماء، فيمسحُ بها وجْهَه، ثم يقول: لاإله إلا الله، إنَّ للموتِ لسَكَرات.

ثم نَصب أُصبعه اليُسرى، وجعلَ يقول: في الرفيقِ الأعلى، في الرفيقِ الأعلى.

ثم قُبضَ رسول الله ﷺ، ومالَتْ يدُه في الماء.

فنظرْتُ إليه حين مالَتْ عنقُه، فعرفْتُ أنه قد قَضى ﷺ.

وريح المسك تفوح في البيت

فلما خرَجَتْ «نَفْسُه» ﷺ، لم أجدْ ريحاً قطُّ أطيبَ منها؟

وقالت أمُّ سلمة رضي الله عنها: «وضعْتُ يدي على صدرِ رسول الله ﷺ يومَ مات، ومَرَّت عليَّ جُمَعٌ بعد ذلك، وأنا آكلُ وأتوضأُ وما يَذهبُ ريحُ المسك من يدي!!»(١).

وفاته ضحى يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول

وكانت وفاةُ رسول الله ﷺ ضحى يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول، في السنة الحادية عشرة للهجرة!!

وانتشرَ خبرُ موتِ الرسول ﷺ بين المسلمين، وأُصيبوا بصدمةٍ وذُهول، ومنهم من لم يصدقْ ذلك!

عمر يخطب وينفي موت الرسول

قال أبو هريرة رضي الله عنه: «لما توفيَ رسول الله ﷺ، قام عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه فقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمونَ أن رسول الله ﷺ قد توفي، وإن رسول الله ﷺ ما مات، ولكنهُ ذهب إلى ربه، كما ذهبَ موسى بن عمران، حيثُ غابَ عن قومه أربعين ليلة، ثم رجعَ إليهم بعد أن قيل: قد مات! ووالله ليرجِعَنَّ رسول الله ﷺ كما رجع موسى، فليقطِّعَنَّ أيدي رجالٍ وأرجلَهم، حيثُ زعموا أن الرسول ﷺ مات!.

أبو بكر يأتي من السنح

وذهبَ سالم بن عبيد رضي الله عنه إلى أبي بكر الصديق بالسَّنْح، الذي ذهب إليه بعد الفجر، وأعلَمه بوفاة رسول الله ﷺ.

فأقبَلَ على فرسٍ له، حتى دخل المسجد، ورأى المسلمين يتكلمون عن موتِ رسول الله ﷺ، ما بين مُصدِّق ومكذِّب، فلم يكلِّم أحداً منهم.

قالت عائشة رضي الله عنها: أقبلَ أبو بكر على فَرَس، من مسكنه، بالسَّنْح، حتى نزل، فدخَل المسجد، فلم يكلم الناس، ودخلَ على رسول الله ﷺ، وهو مسجى، مغطًى ببُرْد..

ما قاله أبو بكر أمام الرسول

فكشفَ عن وجهِ رسول الله ﷺ، ثم أكبَّ عليه، فقبَّله، ثم بكى..

---

(١) البداية والنهاية ٥: ٢٣٧ ـ ٢٤١.

ثم قال: بأبي أنت وأمي، طِبْتَ حَيّاً ومَيْتاً يارسول الله، والله لا يجمعُ اللهُ عليك موتتين أبداً، أما الموتةُ التي كُتِبَتْ عليك فقد مِتَّها !!

وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: خرجَ أبو بكر، وعمرُ بن الخطاب يكلمُ الناس.

فقال أبو بكر: اجلسْ ياعمر. فأبى عمرُ أنْ يجلس !

ثم قال: اجلسْ ياعمر. فأبى عمرُ أنْ يجلس !

ثم قال: اجلسْ ياعمر. فأبى عمرُ أنْ يجلس !

فلما رآه لا ينصت، صعدَ المنبر، وأقبلَ على الناس، فلما سمعَ الناسُ كلامَه، أَقبلوا عليه وتركوا عمر.

فحمدَ أبو بكر الله، وأثنى عليه، ثم قال:

أبو بكر يعلن وفاة الرسول

أيها الناس: مَنْ كان يعبدُ محمداً، فإنَّ محمداً قد مات. ومَنْ كان يعبدُ الله، فإن الله حيٌّ لا يموت !

ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فوالله لكأنَّ الناسَ لم يعلموا أنَّ اللهَ أنزلَ الآية، حتى تلاها أبو بكر، فتلقَّاها منه الناس كلّهم، وصاروا يتلونها ويذكرونها كلُّهم !

وقال عمر: والله ماهو إلا أن سمعتُ أبا بكر يتلو الآية، فكأنَّني لم أسمعْها من قبل، وعند ذلك عرفْتُ أنه الحق، وأنَّ رسول الله ﷺ قد مات، فوقعتُ على الأرض، ما تَحْمِلُني رِجْلاي !!!»[1].

عائشة تعلق على موقفي أبي بكر وعمر

وعلَّقت عائشة رضي الله عنها على كلام عمر وكلام أبي بكر رضي الله عنهما، بشأن موت رسول الله ﷺ.

---

(١) البداية والنهاية ٥: ٢٤١ ـ ٢٤٣.

قالت: ما كان من خطبَتيْهما من خطبةٍ إلا نفع الله بها:

لقد خوَّفَ عمرُ الناس، وإنَّ فيهم لنفاقاً، فردَّهُمُ الله بذلك.

ولقد بصَّرَ أبو بكر الناسَ الهدى، وعرَّفَهم الحق الذي عليهم!!

بيعة أبي بكر في نفس اليوم

وفي نفسِ يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول، تمتْ بيعةُ أبي بكر الصديق خليفةً للمسلمين في «سقيفة بني ساعدة»، وسنعودُ للبيعة في القبسة التالية إن شاء الله.

ونتابعُ الكلام على تغسيلِ رسول الله ﷺ، ثم تكفينه، ثم الصلاةِ عليه، ودفنِه، عليه الصلاة والسلام!

وفاة الرسول عن ثلاث وستين سنة

وقد ذكرتْ عائشةُ رضي الله عنها اليومَ الذي ماتَ فيه الرسول ﷺ، وعُمُرَه الذي عاشه على وجه الأرض.

روى عروةُ بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت: «توفيَ رسولُ الله ﷺ يومَ الإثنين، لثنتَيْ عشرةَ ليلة خَلَتْ، من شهرِ ربيع الأول، وهو ابنُ ثلاثٍ وستين سنة»[1].

وقد شرعَ المسلمونَ بتجهيزِ الرسول ﷺ يوم الثلاثاء، الثالثِ عشر من ربيع الأول، لأنهم قاموا يوم الإثنين بانتخاب أبي بكر خليفة، ومبايعته.

كيفية غسل الرسول ومن غسله

روى عكرمةُ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «اجتمَعَ أهْلُ الرسول ﷺ لغَسْلِه، وهم: عمُّه العباسُ بن عبد المطلب، وعليُّ بن أبي طالب، والفضْلُ بن عباس، وقُثَمُ بن عباس، وأسامةُ بن زيد..».

وروى عبد الله بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما أرادوا غسْلَ النبي ﷺ قالوا: ما ندري: أَنُجَرِّدُ رسولَ الله ﷺ من ثيابه كما نجرِّدُ موتانا، أم نُغَسِّلُه وعليه ثيابُه؟ فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم، فما منهم من أحد إلا وذقنُه في صدْرِه..

---

(١) البداية والنهاية ٥: ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

ثم كلَّمَهم مكَلِّم من ناحيةِ البيت، لا يدرون من هو: أَنْ غَسِّلوا رسول الله ﷺ، وعليه ثيابُه!

فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغَسَّلوه، وعليه قميص، يصبّون الماءَ فوقَ القميص، ويدلُكونَه بالقميص!»[1].

ولمّا غسّلوه كفَّنوه.

كيفيـــــة تكفين الرسول

روى عروةُ بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كُفِّنَ رسول الله ﷺ في ثلاثةِ أثوابٍ بيض، سَحوليةٍ يمانيةٍ، من قُطن ليس فيها قميص ولا عمامة»[2].

الصـــــلاة على الـرسـول فـرادى وليس جماعة

وبعدَ ذلك صلوا عليه. ولم يصلّوا عليه جماعةً بإمام، ولكن كانوا يصلّون عليه فرادى، أَفْواجاً أَفْواجاً.

حيثُ وُضِعَ على السرير في بيتِ عائشة يوم الثلاثاء، الثالثِ عشر من ربيع الأول، فصلّى عليه الرجال والنساءُ والصبيانُ والعبيد.

روى عكـرمـةُ عـن ابـن عبـاس رضـي الله عنهمـا قـال: «لمـا مـات رسول الله ﷺ، أُدْخلَ عليه الرجالُ، فصلّوا عليه بغير إمام، فلما فرغوا، أُدخلَ النساء فصلّيْنَ عليه، ثم أُدْخلَ الصبيان فصلوا عليه، ثمّ أدخلَ العبيدُ فصلوا عليه».

وكانوا يصلّون فرادى أَرسالاً، لم يؤُمَّهم أحدٌ في صلاتهم على رسول الله ﷺ.

السبب في صلاتهم فرادىٰ

ولم يكن السببُ في عدمِ صلاتهم عليه جماعة، هو عدم وجود الإمام، فقد تمتْ مبايعةُ أبي بكر الصديق رضي الله عنه خليفة، يوم الإثنين!

---

(١) البداية والنهاية ٥: ٢٦٠.
(٢) البداية والنهاية ٥: ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

ولعلَّ السبب في عدمِ صلاتهم عليه جماعة ـ كما قال بعض العلماء ـ هو أنْ يُباشرَ كلُّ واحدٍ من الناس الصلاةَ عليه، منه إليه مباشرة، بدونِ إمام، ولتتكرَّرَ الصلاةُ عليه مرةً بعد مرة، حيثُ صلّى عليه كلُّ فردٍ من المسلمين في المدينة، من الرجالِ والنساءِ والصبيانِ والعبيدِ والإماء.

وهذه خاصيةٌ لرسول الله ﷺ، أما موتى المسلمين فصلاةُ الجنازة عليهم جماعة.

واستمرّ المسلمون يصلّون على رسول الله ﷺ فرادى، يومَ الثلاثاء، وليلة الأربعاء[1].

وفي ليلةِ الأربعاء الرابعِ عشر من ربيع الأول أرادَ المسلمون دفْنَ رسول الله ﷺ.

دفن الرسول حيث قبض ليلة الأربعاء

ولم يعرفوا أين يدفنونه؟ هل في المكان الذي قُبضَ فيه، وهو بيتُ عائشة؟ أم في البقيع بين موتى المسلمين؟

روى عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنه لم يُدفَنْ نبيٌّ قط، إلا حيث قُبض».

وهذا معناهُ أن يُدفَنَ رسول الله ﷺ في بيت عائشة رضي الله عنها.

وقد رأتْ عائشةُ رضي الله عنها رؤيا، فقصَّتها على أبيها، وكان أبو بكر رضي الله عنه من أكثر الصحابة تعبيراً للرؤيا.

رؤيا عائشة حول الأقمار الثلاثة

قالت له: رأيتُ ثلاثةَ أقمار وقَعْن في حجري!

فقال لها: إنْ صدَقتْ رؤياك، دُفِنَ في بيتك ثلاثةٌ من خيرِ أهلِ الأرض!

فلما قُبِضَ رسول الله ﷺ، قال لها أبو بكر: «ياعائشة هذا خيرُ أقمارك!».

---

(١) البداية والنهاية ٥: ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

ونعلَمُ أنه قد دُفنَ في بيتِ عائشة رسول الله ﷺ، ثم أبو بكر ثم عمر، رضي الله عنهما.

وقد نحّى الصحابةُ السريرَ الذي قبضَ عليه رسولُ الله ﷺ، ثم حَفَروا له قبرَه مكانَ السرير.

روى القاسم بن محمد بن أبي بكر عن عائشة رضي الله عنها قالت: «توفيَ رسول الله ﷺ يومَ الإثنين، ودُفِنَ ليلةَ الأربعاء!»[1].

الذين دخلوا قبر الرسول

ولما تمَّ حفرُ القبر، دخلَ القبرَ كلٌّ من العباس، والفضلُ بن عباس، وعليُّ بن أبي طالب رضي الله عنهم.

وقد كانتْ حجرةُ عائشةَ رضي الله عنها شرقيَّ المسجدِ النبوي، وكان قبرُ رسول الله ﷺ في الزاوية الغربيةِ الجنوبية من الحجرة.

إدخال قبر الرسول ضمن المسجد فيما بعد

وبقيت حجرةُ عائشةَ خارج المسجد، وفي الجهةِ الشرقية منه، حتى خلافةِ الوليد بن عبد الملك. فلما صارَ الوليدُ بن عبد الملك خليفة، أَمَرَ واليه على المدينة «عمر بن عبد العزيز» بتوسيعِ المسجد النبوي، فقام عمرُ بن عبد العزيز بتوسعةِ المسجد من الجهة الشرقية، وبذلك أدخلَ الحجرةَ النبوية في المسجد!

فصارَ قبرُ رسول الله ﷺ، وقبرا صاحبَيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، داخلَ المسجد النبوي!![2]

وقد تأثَّر الصحابةُ تأثُّراً بالغاً بوفاةِ رسول الله ﷺ، وحزنوا عليه حزناً شديداً، وبكوهُ بكاءً حاراً.

رواية أنس عن تأثر وحزن المسلمين

قالَ أنسُ بن مالك رضي الله عنه: «لما كان اليومُ الذي قَدِمَ فيه رسول الله ﷺ المدينة، أَضاءَ منها كلُّ شيء، فلما كان اليوم الذي مات

---

(١) البداية والنهاية ٥: ٢٦٦ ـ ٢٦٩.
(٢) البداية والنهاية ٥: ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

فيه، أظلمَ منها كلُّ شيء، وما نفضْنا أيدينا عن رسول الله ﷺ، حتى أنكَرْنا قلوبَنا !».

وكان من أشدِّ الناسِ حُزناً عليه ـ والحزنُ عَمَّ جميعَ المسلمين ـ ابنتُه فاطمةُ رضي الله عنها.

فاطمة تكلم أباها وتتكلم بعد دفنه

روى ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لما ثقلَ النبيُّ ﷺ، صار يتغشَّاه الكرب. فقالت فاطمة: واكَرْبَ أبتاه.

فقال لها رسول الله ﷺ: ليس على أبيك كرْبٌ بعد اليوم !

فلما ماتَ رسول الله ﷺ، قالت فاطمة رضي الله عنها: واأَبتاه، أجابَ رباً دعاه، واأَبتاه، إلى جنة الفردوس مأواه، واأَبتاه، إلى جبريل نَنْعاه !!

فلما تمَّ دفنُ رسول الله ﷺ، قالت فاطمةُ رضي الله عنها: ياأنس: كيف طابَتْ أنفُسكم أن تحثوا على وجه رسول الله ﷺ التراب ؟!!

قال حمادُ بن زيد راوي الحديث عن ثابت البناني: كان ثابتٌ إذا روى هذا الحديث الذي قالَتْه فاطمة رضي الله عنها، بكى، حتى تختلفَ أضلاعُه !!».

وكانت «أمُّ أيمن» حاضنةُ رسول الله ﷺ، شديدةَ الحزن لانقطاعِ الوحيِ بوفاةِ رسول الله ﷺ.

أم أيمن تبكي وتُبكي من معها لانقطاع الوحي

روى ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «ذهب رسول الله ﷺ إلى أمِّ أيمن زائراً، وذهبْتُ معه، فقرَّبَتْ إليه شراباً، فلم يَشرَبْه، إما لأنه كان صائماً، وإما لأنه كان لا يُريده.

فأقبلَتْ أمُّ أيمن تضاحِكُ رسول الله ﷺ.

فلما توفي رسولُ الله ﷺ، قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما: انطلقْ بنا إلى أمِّ أيمنَ نزورُها !

فلما زاراها بكَت.

فقالا لها: ما يُبكيك ؟ أما تعلمين أن ما عندَ الله خيرٌ لرسوله ﷺ ؟

فقالتْ لهما: إني والله أعلمُ أن ماعندَ الله خيرٌ لرسوله ﷺ، ولا أبكي لذلك، ولكنني أبكي لأن الوحي قد انقطع من السماء !!

فهيَّجَتْهُما على البكاء، فصارا يبكيان!!»[1].

حسان بن ثابت يرثي الرسول شعراً

وكان «حسان بن ثابت» شاعرُ الرسول ﷺ، شديدَ الحزن على وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، وسَجَّل حُزْنَه في قصائدَ شعرية رفيعة، رثى بها رسول الله ﷺ.

ومما قاله في ذلك الرثاء:

بِطَيْبَةَ رَسْمٌ لِلرَّسولِ وَمَعْهَدُ ... مُنيرٌ وَقَدْ تَعْفو الرُّسومُ وَتَهْمَدُ

وَلا تَمْتَحي الآياتُ مِنْ دارِ حُرْمَةٍ ... بِها مَنْبَرُ الهادِي الذي كانَ يَصْعَدُ

وَواضِحُ آثارٍ وَباقي مَعالِمٍ ... وَرَبْعٌ لَهُ فيهِ مُصَلّى وَمَسْجِدُ

بِها حُجُراتٌ كانَ يَنْزِلُ وَسْطَها ... مِنَ اللهِ نورٌ يُسْتَضاءُ ويُوقَدُ

مَعارِفُ لم تُطْمَسْ على العَهْدِ آيُها ... أَتاها البِلا فَالآيُ مِنْها تَجَدَّدُ

فَبورِكْتَ ياقَبْرَ الرَّسولِ وبُورِكَتْ ... بِلادٌ ثَوى فيها الرَّشيدُ المُسَدَّدُ

وَبورِكَ لَحْدٌ مِنْكَ ضُمِّنَ طَيِّباً ... عَلَيْهِ بِناءٌ مِنْ صَفيحٍ مُنَضَّدُ

تُهيلُ عَلَيْهِ التُّرْبَ أَيْدٍ وأَعْيُنٌ ... عَلَيْهِ، وَقَدْ غارَتْ بِذَلِكَ أَسْعُدُ

لَقَدْ غَيَّبوا حِلْماً وَعِلْماً ورَحْمَةً ... عَشِيَّةَ عَلَّوْهُ الثَّرى لا يُوَسَّدُ

ورَاحوا بِحُزْنٍ ليسَ فيهِمْ نَبِيُّهُمْ ... وَقَدْ وَهَنَتْ منهُمْ ظُهورٌ وأَعْضُدُ

يُبَكّونَ مَنْ تَبْكي السَّماواتُ يَوْمَهُ ... وَمَنْ قَدْ بَكَتْهُ الأرضُ فَالنَّاسُ أَكْمَدُ

وَهَلْ عَدَلَتْ يَوْماً رَزِيَّةُ هَالِكٍ ... رَزِيَّةَ يَوْمٍ ماتَ فيهِ مُحَمَّدُ ؟

فَبَكّي رَسولَ اللهِ ياعَيْنُ عَبْرَةً ... وَلا أَعْرِفَنْكِ الدَّهْرَ دَمْعَكِ يَجْمُدُ

وَمالَكِ لا تَبْكينَ ذَا النِّعْمَةِ الذي ... عَلى النَّاسِ مِنْها سابِغٌ يَتَغَمَّدُ

---

(١) البداية والنهاية ٥: ٢٧٣ ـ ٢٧٥.

فَجودي عَلَيْهِ بالدُّموعِ وَأَعْوِلي لِفَقْدِ الذي لا مِثْلَهُ الدَّهْرَ يوجَدُ
ومَا فَقَدَ الماضونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ وَلا مِثْلُـهُ حَتَّـى القِيـامَـةِ يُفْقَـدُ

وصلى اللهُ على سيدِنا محمدٍ النبيِّ الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، عددَ ما أحاطَ به علمُه، وخطَّ به قلمُه، وأحصاهُ كتابه[1] !!.

* * *

(١) البداية والنهاية ٥: ٢٨٠ ـ ٢٨١.
اعتمدنا في موضوع مرض الرسول ﷺ واحتضاره ووفاته ودفنه ورثائه على المصادر التاريخية الصحيحة.
وكان أكثر اعتمادنا على كتاب «البداية والنهاية» للإمام المؤرخ المحدث ابن كثير: انظر البداية والنهاية ٥: ٢٢٣ ـ ٢٨٢.
ورجعنا أيضاً إلى: السيرة النبوية لابن هشام، وتاريخ الطبري، وتاريخ ابن الأثير، وإلى دلائل النبوة للبيهقي.

القبسة الثانية
أبو بكر الصديق رضي الله عنه
بين الاستخلاف والوفاة

اختيار الخليفة بعد ساعات من وفاة الرسول

عَرَفْنا أنَّ رسول الله ﷺ قُبِضَ في ضحى يوم الإثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأول، من السنة الحادية عشرة للهجرة. وأنَّ وفاتَه كانت في بيت عائشة رضي الله عنها.

وبعد ساعات من وفاته عليه الصلاة والسلام، سارعَ المسلمون في التفكير في اختيارِ ومبايعةِ خليفةٍ له.

فما أن غابت شمسُ يوم الإثنين المذكور، حتى كانوا قد اختاروا أبا بكر الصديق رضي الله عنه خليفةً لهم، وبعدَ ذلك قاموا بتجهيز رسول الله ﷺ، من حيثُ غسْلُه، وتكفينُه، والصلاة عليه، ودفنه.

دلالة ذلك على أهمية الخلافة

وهذه الخطوةُ الموفقة من الصحابة كانت خطوةً عظيمةً رائدة، قدَّموا فيها اختيارَ الخليفة الحاكم، على دفنِ أحبِّ الناسِ إلى قلوبهم، محمدٍ ﷺ.

وهي تشيرُ إلى نظامِ الحكم في الإسلام، وأهميةِ وجودِ الحاكم الإمامِ الخليفة، الذي يسوسُ المسلمين، ويحكمُ بأمرِ الله عز وجل.

ولا يجوزُ أن «يَشْغَرَ» منصب الإمامة والخلافة من هذا الخليفة، ولو لساعات أو أيام، ويجب أن يُقدَّمَ اختيارُ ومبايعةُ هذا الخليفة على كلِّ أمر. كما فعل الصحابة الكرام رضوان الله عليهم.

وقد روى عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما،

حديثَ «سقيفة بني ساعدة»، وكيفيةَ اختيارِ الصديق رضي الله عنه خليفة، ومبايعتَه هناك البيعةَ الأولى.

عبد الرحمن بن عوف يروي لابن عباس كلام عمر

روى عبيدُ الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه:

«أن ابنَ عباس كان في الحج، في آخرِ حجةٍ حجَّها عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته.

وكان ابن عباس مع عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، بمِنى، في موسم الحج، وكان يُقرِىءُ عبد الرحمن بن عوف القرآن، ويعارضُه به، ويُسَمِّعُه له.

فرجعَ عبد الرحمن بن عوف مرةً إلى رحله بمنى، وكان ابن عباس ينتظره، ليسمِّعَ له القرآن.

فقال عبد الرحمن بن عوف لابن عباس: إن رجلاً أتى عمر بن الخطاب، وهو بمنى فقال له:

ابن عوف ينصح عمر أن لا يخطب في منى

يا أميرَ المؤمنين: إنَّ فلاناً يقول: لو ماتَ عمر بن الخطاب لبايعتُ فلاناً خليفة بعده!

فغضبَ عمر وقال: سأقف الليلةَ خطيباً في المسلمين بمِنى، وأحذِّرهم هؤلاء الناس، الذين يريدون أن يَغْصبوهم أمرهم! بتعيينِ من يشاؤون خليفة، دون مشورةٍ ومبايعةٍ من المسلمين!

فقال له عبد الرحمن بن عوف: يا أميرَ المؤمنين، لا تفعلْ ذلك، ولا تخطبْ في الناس هذه الليلةَ بذلك!

لأن موسم الحجِّ يجمعُ رعاعَ الناس وغوغاءَهم، وعندما تقوم أنت خطيباً، فهم الذين يكونون أمامَك في مجلسِك، وأخشى أن تقولَ أنت كلاماً فلا يَعوه، ولا يفهموه، ولا يضعوه موضعَه الصحيح، ولكن يفهمونه خطأً، وينشرونهُ بين الناس، وينسبونهُ لك!!

ولكن انتظرْ يا أمير المؤمنين حتى تأتيَ المدينة، فإنها دار الهجرةِ والسنة، وتجتمعُ فيها بعلماء المسلمين وأشرافِهم، وتقول لهم ما تريد، فيعونَ مقالتَك، ويضعونَها موضعَها، ويفهمونَ كلامَك!

فقال له عمر: لئن قدمْتُ المدينةَ صالحاً، لأقولنَّ ذلك للناس إن شاء الله، في أولِ مقامٍ أقومُه، وأولِ خطبة أخطُبُها.

ابن عوف يروي خطبة عمر في المدينة

قال عبد الرحمن بن عوف: فلما انتهى موسمُ الحج، وقدِمْنا المدينةَ، وجاءتْ أولُ جمعةٍ بعدَ قدومِنا، عجلْتُ الذهاب إلى المسجد مبكّراً.

فلما دخلتُ المسجدَ النبويّ، وجدتُ سعيدَ بن زيد رضي الله عنه قد سَبَقني إلى المسجد، وهو جالسٌ عند ركنِ المنبر الأيمن.

فجلسْتُ بجانبه واقتربْتُ منه، بحيث كانت ركبتي تحكُّ ركبَتَه.

وبينما نحن جالسان دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه المسجد، فقلت لسعيد بن زيد: ليقولَنَّ عمرُ الآن كلاماً على المنبر في خطبة الجمعة، ما قالَه من قبل، ولا قالَه أحدٌ غيرُه!!

فأنكرَ سعيدُ بن زيد كلامي، وقال: ما عسيْتَ أن يقولَ كلاماً ما قالَه أحدٌ غيرُه؟

قلت له: سوفَ تسمع!

قال عبد الرحمن بن عوف: فجلس عمر على المنبر، فلما انتهى المؤَذِّن من الأذان، وقفَ عمر، فأثنى على الله بما هو أهلُه، ثم قال:

ماذا قال عمر في خطبته

«أيها الناس: إني سأقولُ الآن مقالةً، قدَّر الله لي أن أقولَها، لا أدري، لعلَّها بين يدَي أجَلي، فمن وَعى المقالة وعقلها وفهمها فليُحَدِّث بها حيثُ انتهت به راحلتُه، ولينْشُرها بين الناس. ومن لم يعِها ولم يعقِلها ولم يفهمها فلا يحدِّث بها، ولا أُحلُّ له أن يكذبَ عليَّ!!

أشار إلى حكم رجم الزاني المحصن

إن الله تبارك وتعالى بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، وكان مما أنزلَ عليه آية الرجم، فقرأناها ووعيْناها، ورَجَم

رسول الله ﷺ، ورجَمْنا بعده. وأخشى إن طالَ بالناس زمان، أن يقول قائلٌ: لا نجدُ آية الرجْم في كتاب الله، فيضلّوا بتْركِ فريضة، قد أنزلها الله عزَّ وجلَّ. فالرجْمُ في كتابِ الله حقٌّ على منْ زنى، إذا أُحصن، من الرجال والنساء، إذا قامَت بينة، أو الحَبَل، أو الاعتراف!

ألا وإنا كنّا نقرأ: لا ترْغَبوا عن آبائكم، فإنَّ كُفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم.

عمر يرفض الخلافة بغير الشورى والاختيار

ألا وإن رسول الله ﷺ قال: «لا تُطْروني، كما أَطْرَت النصارى عيسى ابن مريم عليه السلام، فإنما أنا عبدُ الله، فقولوا: عبدُ الله ورسوله!!».

وقد بلَغَني أنَّ قائلاً منكم يقول: لو مات عُمر، بايعْتُ فلاناً!

فلا يغترنَّ امرؤٌ أنْ يقول: إنَّ بيعةَ أبي بكر رضي الله عنه كانت فَلْتَةً وفجأةً!

استخلاف الصديق لا يقاس عليه

ألا وإنها كانت كذلك، إلا أن الله عزَّ وجلَّ وقى شرَّها. وليس فيكم اليوم مَنْ تُقطَعُ إليه الأعناق، وتُوجَّه إليه الأنظار، مثلُ أبي بكر!

وقد كان من خبَرِنا حين توفي رسول الله ﷺ: أنه تخلَّف عليٌّ والزبير رضي الله عنهما، ومن كان معهما، في بيت فاطمةَ بنتِ رسول الله ﷺ.

وتخلَّفَ عنا الأنصار بأجمعهم في سقيفة بني ساعدة.

واجتمعَ المهاجرون إلى أبي بكر.

فقلتُ له: يا أبا بكر: انطلِق بنا إلى إخوانِنا من الأنصار!

ذهاب عمر مع الصديق إلى سقيفة بني ساعدة

فانطَلَقْنا إليهم في سقيفة بني ساعدة، فلَقيَنا رجلان صالحان ـ وهما عُوَيْمُ بن ساعِدَة ومَعْنُ بن عدي ـ فقالا لنا: أين تريدونَ يامعشر المهاجرين؟

فقلت: نريدُ إِخواننا هؤلاء من الأنصار.

فقالا لنا: لا عليكم أنْ لا تَقْربوهم، واقضوا أَمْركم!

فقلت: واللهِ لنأتينَّهم.

الأنصار في السقيفة لاختيار خليفة منهم

فجئناهم في سقيفةِ بني ساعِدَة، فإذا هم مجتمعون فيها وبينهم رجلٌ مُزَّمِّل يتغطَّى بثيابه.

فقلت: من هذا؟

فقالوا: سَعْدُ بن عُبادَة.

فقلت: مالَه؟

قالوا: هو وَجِعٌ مريضٌ!

فجلَسْنا معهم.

ولما جلسنا قام خطيبُهم فأثنى على الله عزَّ وجلَّ، بما هو أهله، ثم قال:

قول خطيب الأنصار

«أما بعد: فنحن أنصارُ الله عزَّ وجل وكتيبةُ الإسلام، وأنتم يامعشر المهاجرين رهطٌ وجماعةٌ منّا، وقد جاءت جماعةٌ منكم معشرَ المهاجرين يريدون أن يختزلونا من أصلنا، ويأخذوا حقَّنا، ويخرجونا من هذا الأمر!!»

فلما سكتَ، أردْتُ أن أتكلَم، وقد زوَّرْتُ وهيَّأْتُ وأعددت في نفسي مقالةً أعجبَتْني، أَردُّ بها على كلام خطيبهم، وأقولها بين يدي أبي بكر.

وقد كنتُ أُداري منه بعضَ الحِدّة، وكان هو أحلمَ وأوقَرَ مني. فقال لي أبو بكر: على رِسْلِك! لأنه كان هو يريدُ أن يتكلم. فكرِهْتُ أن أُغضبه، وكان أعلم مني وأوقر.

وتكلّم، ووالله ما ترَك من كلمة أعجبَتْني في إِعدادي وتَزويري، إلا قالها في بديهته، أفضل مما كنت سأقولُها.

وكان مما قال:

ماذا قال أبو بكر في خطبته

«أما بعد:

فما ذكرتُم من خير فأنتم أهلُه، ولكن العربَ لم تعرف هذا الأمْرَ إلا لهذا الحي من قريش، لأنهم أوسط العرب نَسَباً وداراً.

وقد رضيتُ لكم أحدَ هذيْن الرجليْن: وأخذَ بيدي، وبيد أبي عبيدة بن الجراح».

فلم أكْره مما قاله أبو بكر غيرَ هذه الكلمة، ووالله لئِنْ أُقَدَّمَ فتضربَ عُنُقي لا يُقَرِّبني ذلك إلى إثم، أحبُّ إليَّ منْ أن أتأمَّرَ على قومٍ فيهم أبو بكر.

الحباب بن المنذر يرد على أبي بكر

فلما قال أبو بكر ذلك قال الحبابُ بن المنذر أحدُ الأنصار: أنا جذيلُها المحَكك، وعذيقُها المرجَّب [كأنه يقول: أنا داهيتُها، ويجبُ أن يؤْخَذَ برأيي، ويُرجَعَ إلى قولي] منّا أمير، ومنكم أمير، يامعشرَ قريش.

فلما قال الحباب بن المنذر ذلك، كثُرَ اللَّغَطُ، وارتفعَت الأصوات، حتى خشيتُ الاختلاف.

عمر ينهي الخلاف ويبايع أبا بكر

فقلْتُ لأبي بكر: أُبسطْ يَدَكَ ياأبا بكر.

فبسطَ أبو بكر يدَه، فبايَعَه عمر، ثم بايَعَه المهاجرون، ثم بايَعَه الأنصار».

وأضافَ عمرُ يقول في خطبته: «والله ما وجَدْنا فيما حضَرَنا أَمْراً، هو أقوى من مبايعةِ أبي بكر رضي الله عنه.

لقد خشينا إن فارَقنا الأنصار، ولم تكن بيعة، أن يُحْـِدثوا بَعْدَنا بيعة، ويبايعوا لأَحَدهم، فإمّا أن نُتابعَهم، ونبايعَ من بايعوه، ونعملَ مالا نَرضاه، وما ليس فيه مصلحةٌ للمسلمين، وإِمّا أنْ نخالِفَهم ونعارِضَهم، فيكون الفساد.

فمنْ بايَعَ أميراً عن غيرِ مشورةِ المسلمين، فلا بيعَةَ له، ولا بيعَة للذي بايَعَه!!»[1].

---

(١) البداية والنهاية ٥: ٢٤٥ ـ ٢٤٧.

أبو بكر يبين سبب قبوله البيعة

وقد بيَّنَ أبو بكر فيما بعد سببَ قبولِه للبيعة. فقد سَأَلَهُ رافعُ الطائي رضي الله عنه عن ما جرى في سقيفةِ بني ساعدة، وكان مما قاله لرافع:

«لقد بايَعوني وقبِلْتُها منهم، وتخوَّفتُ أن تكون فتنة، وتقع بعْدَها رِدّة، لو رفضْتُ البيعة»[1].

بيعتان لأبي بكر الأولى في السقيفة يوم الإثنين

وقد كانت بيعةُ أبي بكر الصديق من قِبَلِ مجموعة من المهاجرين والأنصار، في سقيفة بني ساعدة، يوم الإثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأول.

ولم يحضرْ هذه البيعة الأولى العباسُ أو عليٌّ أو الزبيرُ بن العوام، لأنهم كانوا مشغولين بتجهيزِ رسول الله ﷺ.

والثانية بيعة عامة في المسجد يوم الثلاثاء

وفي اليوم التالي: الثلاثاء، الثالث عشر من ربيع الأول، تَمَّت البيعةُ الثانيةُ العامّةُ لأبي بكر، من قِبَلِ المهاجرين والأنصار، في المسجد النبوي، وذلك بعد البيعةِ الأولى الخاصة، التي تمَّتْ له في سقيفةِ بني ساعدة.

وبينما رَوى عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه تفاصيلَ البيعة الأولى، فقد روى أنسُ بن مالك رضي الله عنه تفاصيلَ البيعة الثانية:

قال أنسُ بن مالك: لما كان يومُ الثلاثاء، جلس عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر، وجلسَ أبو بكر رضي الله عنه بجانب المنبر، وهو صامِتٌ لا يتكلم.

عمر يخطب في المسجد ويطلب مبايعة أبي بكر

فلما اجتمعَ الناسُ في المسجد، وقف عمر فقال: قد كنتُ أرجو أنْ يعيشَ رسول الله ﷺ، حتى يَدْبِرَنا ويكون آخرنا موتاً، فإنْ يكنْ محمدٌ ﷺ قد مات، فإن الله قد جعلَ بين أَظْهُركم نوراً، تهتدونَ به، وهو هديُ الرسول ﷺ.

وإنَّ أبا بكر هو صاحبُ رسول الله ﷺ، وهو ثاني اثنين، إذْ هُما في

---

(١) البداية والنهاية ٥: ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

الغار، وقد جَمَعَ الله أَمْرَكم عليه، وهو أَوْلى المسلمين بأُموركم، فقوموا فبايعوه!

ثم قال عمر لأبي بكر رضي الله عنه: اصعَد المنبر.

فصعدَ أبو بكر المنبر، فبايَعَه عامةُ المهاجرين والأنصار.

ثم تكلمَ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فحمدَ الله، وأَثْنى عليه بما هو أهلُه.

ثم قال: أما بعد:

نص خطبة أبي بكر بين يدي البيعة العامة

«أيها الناس: فإنّي قد وُلّيتُ عليكم ولستُ بخيرِكم! فإنْ أحْسنْتُ فأعينوني، وإنْ أسأْتُ فقوِّموني. الصدقُ أمانة، والكذبُ خيانة.

والضعيفُ منكم قويٌّ عندي، حتى أُزيحَ علَّتَه، وآخذَ الحقَّ له، إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيفٌ عندي، حتى آخذَ الحق منه، إن شاء الله.

لا يدعُ قومٌ الجهاد في سبيل الله، إلا ضربهم اللهُ بالذل، ولا يشيعُ قوم الفاحشةَ فيهم، إلا عمَّهم الله بالبلاء.

أَطيعوني ما أَطعتُ اللهَ ورسوله، فإذا عصيتُ اللهَ ورسولَه، فلا طاعة لي عليكم[1]!!!».

وقد روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه بيعة عليٍّ بن أبي طالب لأبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

الزبير وعلي يبايعان أبا بكر في ذلك اليوم

قال أبو سعيد الخدري: لما صعدَ أبو بكر المنبر، نظرَ في وجوه القوم، فلم يَرَ الزبيرَ بن العوام.

فدعا بالزبير فجاء.

فقال له أبو بكر: يابنَ عمةِ رسول الله ﷺ، وحواريَّه، أَتُريدُ أن تشقَّ عصا المسلمين؟

---

(١) البداية والنهاية ٥: ٢٤٨.

فقال الزبير: لا تثريبَ عليك ياخليفةَ رسول الله ﷺ، فقامَ الزبير، فبايَعَ أبا بكر!

ثم نظرَ أبو بكر في وجوه القوم، فلم يَرَ عليَّ بن أبي طالب. فدعا بعلي، فجاء.

فقال له أبو بكر: ياابنَ عمِّ رسول الله ﷺ، وختَنَه على ابنته، أتريدُ أن تشقَّ عصا المسلمين؟

فقال علي: لا تثريبَ عليك ياخليفة رسول الله ﷺ، فقام عليّ، فبايَعَ أبا بكر!!

وروايةُ أبي سعيد الخدري الصحيحة تدلُّ على أنَّ علياً والزبيرَ بايَعا أبا بكر في اليوم التالي لوفاةِ رسول الله ﷺ، وهو يومُ الثلاثاء[1].

اهتمام مسلم بن الحجاج بحديث مبايعة علي للصديق مع الناس

ومما يدلُّ على أهميةِ حديث أبي سعيد الخدري الصحيحِ أنَّ الإمامَ «مسلم بن الحجاج» ـ صاحب الجامع الصحيح، الذي هو أصحُّ الكتب الحديثية بعد صحيحِ البخاري ـ ذهبَ إلى شيخه الإمام الحافظ محمد بن إسحاق بن خزيمة ـ صاحب صحيح ابن خزيمة ـ فسألَه عن هذا الحديث، فكتبَ له ابن خزيمة الحديث، وقرَأه عليه.

فقال مسلمٌ لشيخه ابن خزيمة: هذا الحديث يساوي بدنة! فقال ابن خزيمة: هذا الحديثُ لا يساوي بَدَنَة فقط، إنه يساوي بدرة مال!!

حبيب بن أبي ثابت يروي مسارعة علي إلى البيعة

ومما يدلُّ على أن عليَّ بن أبي طالب كان من المبايعين لأبي بكر في البيعة العامة الثانية، يوم الثلاثاء: مارواه حبيبُ بن أبي ثابت، حيث قال:

كان عليُّ بن أبي طالب في بيته، فأتاه رجل، فقال له: قد جَلَسَ أبو بكر للبيعة.

فخرجَ عليٌّ إلى المسجدِ في قميصٍ له، ما عليه إزارٌ ولا رداء، وهو

---

(١) البداية والنهاية ٥: ٢٤٩.

متعجِّل، كراهةَ أن يبطىءَ عن البيعة. فبايَعَ أبا بكر، ثم جلس، وبَعثَ إلى ردائه، فجاؤوه به، فلبسه فوقَ قميصه.

وسعيد بن زيد يخبر عن عدم تخلف صحابي عن البيعة

وقد سألَ عمرو بن حريث سعيدَ بن زيد رضي الله عنه، فقال له: أَشهِدْتَ وفاةَ رسول الله ﷺ؟

قال: نعم.

قال له: متى بويعَ أبو بكر؟

قال سعيد: يومَ ماتَ رسول الله ﷺ، كره المسلمون أن يبقوا بعض يوم، وليسوا في جماعة!!

قال: هل خالفَ أحدٌ أبا بكر؟

قال سعيد: لا. لم يخالِفْه إلا مرتد، أو كادَ أن يرتد، وقد أَنقذَ اللهُ الأنصار، فجمَعَهم عليه وبايعوه!

قال: هل قعدَ أحدٌ من المهاجرين عن بيعته؟

قال سعيد: لا. لقدْ تتابعَ المهاجرون على بيعته!!

وروى عبدُ الرحمن بن عوف رضي الله عنه خطبةً أخرى لأبي بكر رضي الله عنه، بعدما تمتْ بيعتُه العامة الثانية.

الزبير وعلي يسجلان عتبهما بعد مبايعتهما

قال عبد الرحمن بن عوف: خطبَ أبو بكر، فقال: ماكنتُ حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة، ولا سألتُها في سرٍّ ولا علانية.

فقال علي والزبير: والله ما غضبنا إلا لأنا أُخِّرْنا عن المشورة!! وإنا لنرى أن أبا بكر هو أحقُّ الناس بها، إنه صاحبُ الغار، وإنا لنعرفُ شرَفَه، ولقد أَمَره رسول الله ﷺ أن يصلِّي بالناس، وهو حَيّ[1]!

فبايعَ علي بن أبي طالب رضي الله عنه أبا بكر الصديق رضي الله عنه مرتَيْن:

---

(١) البداية والنهاية ٥: ٢٥٠.

علي بن أبي طالب بايع أبا بكر مرتين

المرة الأولى: يومُ الثلاثاء، التالي ليوم وفاة رسول الله ﷺ، حيث جاءَ عَجِلاً مسرعاً، وعليه قميصٌ بدون إِزار، كما روى حبيب بن أبي ثابت.

والمرة الثانية: بعدَ وفاةِ فاطمة رضي الله عنها، حيث توفّيت بعد ستة أشهر من وفاةِ أبيها ﷺ[1].

وكان علي في هذه الشهور الستة متابِعاً لأبي بكر رضي الله عنه، لم يُفارِقْه في وقتٍ من الأوقات، ولم ينقطعْ عنه في جماعةٍ من الجماعات، وكان يشاركُه في المشورة، وفي تدبير أمور المسلمين.

سبب غضب فاطمة من أبي بكر، والحق معه

والذي أغضب فاطمة من أبي بكر، هو أنها جاءتْ تطالبُه بميراثِ أبيها، فأخبَرَها أن رسول الله ﷺ لم يترك ميراثاً.

روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: لا يقتسِمُ ورثتي ديناراً ولا درهماً، ما تركْتُ بعد نفقةِ نسائي ومؤنةِ عاملي، فهو صَدَقة.

وقالت عائشة رضي الله عنها حين توفي رسول الله ﷺ: اجتمعتْ أزواجُه، فأَرَدْنَ أن يبعثْنَ عثمانَ إلى أبي بكر، ليسألْنَه ميراثهن!

فقالت لهنَّ عائشة: أليس قد قال رسول الله ﷺ: لا نورث، ما تركناه صدقة؟

فوافَقْنَها على ذلك.

فاطمة تطلب ميراث النبي مع أنه لا يورث

وروى عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ فاطمةَ والعباس أتيا أبا بكر الصديق رضي الله عنهم، يلتمسان ميراثَهما من رسول الله ﷺ، وهما حينئذٍ يطلبان أرْضَه من فَدَك، وسَهْمَه من خيبر.

فقال لهما أبو بكر: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا نورَث، ما تَرَكْنا صدقة، إنما يأكُلُ آلُ محمد من هذا المال»!

---

(١) البداية والنهاية ٥: ٢٨٦.

وأنا والله لا أَدَعُ أَمْراً رأيت رسول الله ﷺ كان يصْنَعُه إلا صنَعْتُه.

فَغَضِبَتْ فاطمة، وهَجَرت أبا بكر رضي الله عنه(١).

أبو بكر يسترضي فاطمة قبل وفاتها

وقبلَ أن تموت فاطمة رضي الله عنها، ذهبَ إليها أبو بكر في بيتها، فترضّاها!

قال عامرُ الشعبي: لما مرضَت فاطمةُ رضي الله عنها، أتاها أبو بكر الصديق، فاستأذَنَ عليها.

فقال علي لفاطمة: هذا أبو بكر يستأذنُ عليك!

فقالت له: أتحبُّ أن آذنَ له؟

قال: نعم.

فأذِنَت لأبي بكر، فدَخَلَ عليها يترضّاها، وقال لها: واللهِ ما تركتُ الدارَ والمالَ والأهلَ والعشيرةَ إلا ابتغاءَ مرضاةِ الله، ومرضاةِ رسوله، ومرضاتِكم ياأهلَ البيت!

فلم يزلْ يترضّاها حتى رضيَتْ(٢)!!

علي يبايع مرة ثانية بعد وفاة فاطمة

ولما ماتتْ فاطمةُ رضي الله عنها، ذهب عليٌّ إلى أبي بكر في المسجد، وكلَّمَه أمامَ المسلمين، وعظَّمَ حقَّ أبي بكر، وذكَرَ فضيلَتَه وسابقَتَه، ثم قامَ إلى أبي بكر فبايَعَه، رضي الله عنهما.

وهذه بيعةٌ ثانية من عليٍّ لأبي بكر بعد وفاةِ فاطمة، مؤَكِّدةٌ للصلح، ولكن سبقتها بيعَتُه الأولى له، يومَ الثلاثاء، اليومُ الثاني لوفاةِ رسول الله ﷺ، كما رواها الصحابة، ورجَّحَها الإمامُ مسلم صاحب الصحيح، وشيخه الإمام ابن خزيمة!

فظنوها مبايعته الأولى

ولكن لما وقعَت بيعةُ عليّ الثانية لأبي بكر، ظن بعضُ الرواة أن علياً

---

(١) البداية والنهاية ٥: ٢٨٥.

(٢) البداية والنهاية ٥: ٢٨٩.

لم يبايعْ أبا بكر قَبْلها. ولكنَّ الصحيحَ ما قال به حُفَّاظُ الحديث، ورواتُه الثقات، كالإمام مسلم رحمه الله[1].

توفيق الله المسلمين بانتخاب الصديق خليفة

لقد اختارَ اللهُ للمسلمين الخير، عندما ألهمَهم انتخاب أبي بكر الصديق رضي الله عنه خليفةً لهم.

وقد كان أمام أبي بكر واجبٌ كبير، ومهمةٌ عظيمة، في تثبيت أركان دولة الخلافة، وحلِّ المشكلاتِ الطارئة الخطيرة، التي نتجتْ عن وفاة رسول الله ﷺ.

وقد وفقَ الله أبا بكر للرأي الصائب، في كل ما واجهه من الأمورِ والأحداثِ والمشكلات.

ولقد وُجه أبو بكر بمساوماتٍ وإغراءاتٍ وعروض عجيبة، من قِبَلِ المخالفين والمرتدين والخارجين، ليكفّوا عنه وعن المسلمين، ومالَ بعضُ الصحابة حولَه إلى قَبولِ تلك العروض والمساومات، ريثما يتقوّى المسلمون.

توفيق الله أبا بكر للرأي الصواب

ولكنَّ الله ألهمَ أبا بكر رضي الله عنه إلى رفضِ تلك العروض والمساومات، وعدم القيامِ بتنازلات، والثبات الوثيق على الكتاب والسنة، وسيرةِ رسول الله ﷺ.

---

(١) البداية والنهاية ٥: ٢٨٦.
انظر تفاصيل أحداث سقيفة بني ساعدة، وبيعة المسلمين الأولى والثانية لأبي بكر، وبيعة علي الأولى والثانية له في:
- الروض الأنف للسهيلي شرح سيرة ابن هشام ٧: ٥٥١ ـ ٥٥٧.
- ومسند أحمد بن حنبل بتحقيق شعيب الأرناؤوط ١: ٤٤٩ ـ ٥٥٤.
- وتاريخ الطبري ٣: ٢٠٣ ـ ٢١١.
- والبداية والنهاية لابن كثير ٥: ٢٤٥ ـ ٢٥٤، و ٥: ٢٨٥ ـ ٢٩١.
وكان معظم اعتمادي على روايات ابن كثير وترجيحاته وتحقيقاته النفيسة رحمه الله تعالى.

ولو أخذَ أبو بكر بما أشار عليه بعض الصحابة، بمسايرةِ وملاينةِ الخارجين، ومفاوضة مانعي الزكاة والمرتدين، لقضى على «شرعية» الدولة الإسلامية، منذ أيامها الأولى، ولانحرفت الدولةُ الإسلامية عن الالتزامِ الدقيق البصير بالكتاب والسنة.

ورضي الله عن أبي هريرة، حيث قال: واللهِ الذي لا إله إلا هو، لولا أنَّ أبا بكر استُخْلف، لما عُبِدَ الله!

بدأ الصديق عهده بهزات ومشكلات

وقد بدأ أبو بكر رضي الله عنه خلافتَه بمجموعةٍ من الهزَّات العنيفة، والمشكلاتِ الحادة، فأعانه الله على حسن الثباتِ والتثبيت، ووفَّقه إلى حسْنِ الحل والعلاج، الملتزمِ بالكتاب والسنة.

ومن المشكلات الحادة التي واجهها أبو بكر:

أخطر أربع مشكلات واجهها

١ ـ مشكلةُ وفاة رسول الله ﷺ. وقد سبقَ أن ذكرْنا موقفَه منها، وحلَّه لها، في «القبسة» التاريخية السابقة.

٢ ـ مشكلةُ اختيارِ الخليفة، وجمع المسلمين عليه، والقضاءِ على بذور الفرقة والخلاف، والحصولِ على رضا ومبايعةِ الأنصار، والحصولِ على رضا ومبايعة آل البيت كالعباس وعلي، رضي الله عنهم، وقد تكلَّمنا عن حلِّه لهذه المشكلة..

٣ ـ مشكلةُ إنفاذِ جيش أسامة.

٤ ـ مشكلةُ مساوماتِ وعروض مانعي الزكاة.

توقف جيش أسامة بسبب مرض الرسول ووفاته

أما موضوعُ جيش أسامة، فإننا نعلمُ أن رسول الله ﷺ، قد وجَّه أسامة بن زيد رضي الله عنهما إلى البلقاء من بلاد الشام، ليواجِهَ الروم هناك، ويأخذَ بثأرِ أبيه زيد بن حارثة رضي الله عنه، الذي استُشْهد في معركة مؤتة.

وكان معه ثلاثةُ آلاف مجاهد من المسلمين، فيهم كبارُ الصحابة، كعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ولما توجَّه الجيش للمسير، مرضَ رسول الله ﷺ مرضه الذي مات فيه، فعسكَرَ أسامة بن زيد بالجيش في منطقة الجُرْف قربَ المدينة، ليرى ماذا سيكون عليه أمرُ رسول الله ﷺ.

ولما تُوفي رسول الله ﷺ، توقفَ مسير جيش أسامة ولكن المشكلاتِ زادت على المسلمين في المدينة بعد وفاة رسول الله ﷺ، حيث ظهر النفاق في المدينة، وارتدَّت القبائل العربية في الجزيرة العربية، وحول المدينة، وظهرَ أشخاصٌ كذّابون ادّعوا النبوة، وامتنعَ بعضُ العرب من دفع الزكاة، وحشدَ الأعداءُ والمرتدون ومانعو الزكاة والخارجون على الخليفة جموعَهم لغزوِ المدينة، والقضاءِ على الخلافة فيها.

يشيرون على الصديق بإلغاء جيش أسامة

وكان كبارُ الصحابة حول أبي بكر الصديق يلاحظون هذه الأخطار، المحدقة بهم، فرأوا أن يبقى جيش أسامة بآلافه الثلاثة من المجاهدين، في المدينة، ليواجهَ جموعَ الغزاة!

فأشاروا على أبي بكر رضي الله عنه بإبقاءِ الجيش، وعدمِ إنفاذه إلى الشام، كما أَمَرَ رسول الله ﷺ، ورأوا أن من غير الحكمةِ خروجَ الجيش من المدينة، في هذا الجو، وتفريغَ المدينة من ثلاثةِ آلاف من خيرةِ رجالها!!

إصرار الصديق على إنفاذ الجيش

ولكن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لم يوافِقْهم على ما أشاروا به، رغم أنه كان يشاركُهم الإحساسَ بالخطر، وإدراكَ خطورةِ الموقف، لكن كيف يحلُّ لواءً عقدَهُ رسول الله ﷺ؟ وكيف يبدأُ عهده بإلغاءِ أمْرٍ أصدره رسول الله ﷺ؟ وكيف يوقِف جيشاً شكَّله رسول الله ﷺ؟

لا بدَّ من إنفاذِ الجيش كما أمر الرسول ﷺ، وليكن بعد ذلك ما يكون، ولا يكونُ إلا الخير، لأن الله لن يضيعَ أمةً تنفذُ أمرَ رسول الله ﷺ!!

عائشة تروي قصة جيش أسامة

روى عروةُ بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما بويع أبو

بكر، وجمعَ الله الأنصارَ عليه، ارتدتْ العربُ قاطبة، ونجمَ النفاق، واشرأبّت اليهوديةُ والنصرانية، والمسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية، لفقدِ نبيهم ﷺ، وقلّتِهم، وكثرةِ عدوهم.

فقال أبو بكر: ليتمَّ بعثُ أسامة، ولينفذْ جيشُ أسامة.

فقال له مَنْ حوله: إنَّ جيشَ أسامة هو معظمُ المسلمين عندك، وقد ارتدَّ العرب، ولا ينبغي لك أن تفرِّق جماعةَ المسلمين، فلا بدَّ أن يكونوا عندك!

فقال أبو بكر: والله لا أَحُلُّ لواءً عقدَه رسول الله ﷺ، ووالذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تخطفني، لأنفذْتُ بعث أسامة، كما أمَرَ رسول الله ﷺ، ولو لم يبقَ في المدينة أحدٌ غيري لأنفذْتُه.

وقال أبو بكر أيضاً: أنا أُوقِف وأَحبُس جيشاً بعثهُ رسول الله ﷺ؟ أكونُ إذاً قد اجترأتُ على أمرٍ عظيم!

والذي نفسي بيده لأن تميلَ عليَّ العرب، أحبُّ إلي من أن أَحبسَ وأوقف جيشاً بعثه رسول الله ﷺ.

امضِ يا أسامة في جيشك الذي أُمرتَ به، ثم اغزُ من حيثُ أمرك رسول الله ﷺ، من ناحيةِ فلسطين، وعلى أهل مؤتة، واعلمْ أن اللهَ سيكفينا من ورائك!!

الصديق يودع الجيش ماشياً ويستأذن لإبقاء عمر عنده

وتجهزَ جيشُ أسامة للمسير، وخرج أبو بكر إلى «الجُرْف» يستعرضُهم ويوصيهم.

وسارَ إليهم أبو بكر ماشياً، بينما كان أسامة بن زيد قائد الجيش راكباً ـ وهو دون العشرين من عمره ـ.

فلم يجدْها أسامة مناسبة، إذ كيفَ يركبُ هو، بينما خليفة المسلمين أبو بكر يمشي؟

فقال أسامة لأبي بكر: إمّا أن تركبْ وإما أن أَمشي!!

فقال له أبو بكر: والله لا أركب ولا تنزل! وماذا عليَّ لو غَبَّرْتُ قدمي في سبيل الله ساعة!!

ولما كان عمر بن الخطاب جندياً في جيش أسامة، وكان أبو بكر بحاجة إلى عمر في تسيير أمور المسلمين، فقد استأذن أبو بكرٍ أسامةَ في أن يُبقي عمرَ عنده، فقال له: إنْ رأيت أن تُبقي عمرَ عندي في المدينة!!!

فوافق أسامة على ذلك.

عودة جيش أسامة ظافراً بعد ستين يوماً

وسارَ أسامةُ بن زيد في جيشه حتى وصل تُخوم البلقاء، جنوب بلاد الشام، وأغارَ على العربِ هناك، أعوانِ الروم وعملائهم، وغابَ أسامة بجيشه ستين يوماً، ثم عادوا للمدينة غانمين سالمين منصورين.

وكانت الحكمةُ فيما رآه أبو بكر رضي الله عنه، في إنفاذِ جيشِ أسامة، وفي عدمِ حلِّ لواءٍ عقدَه رسول الله ﷺ.

يوضحُ هذه الحكمةَ أبو هريرة رضي الله عنه حيث قال: واللهِ الذي لا إله إلا هو، لولا أن أبا بكر قد استُخْلف، لما عُبِدَ الله! وأقسمَ على ذلك ثلاث مرات.

كانت الحكمة في إنفاذ الجيش ورواية أبي هريرة

فقيل له: لماذا يا أبا هريرة؟

فقال: إنَّ رسول الله ﷺ وجَّه أسامة بن زيد إلى الشام، فلما نزَلَ بذي خَشَب قُبضَ رسول الله ﷺ، ارتدت العرب حول المدينة.

فاجتمع أصحاب رسول الله ﷺ إلى أبي بكر، وقالوا له: يا أبا بكر، رُدَّ جيشَ أسامة! كيف توجههم إلى الروم وقد ارتد العرب؟

فقال أبو بكر: والله الذي لا إله غيره، لو جرَّت الكلابُ أرجلَ أزواجِ رسول الله ﷺ، ما رددتُ جيشاً وجهه رسول الله ﷺ، ولا حللْتُ لواءً عقدَه رسول الله ﷺ!

ولما سار جيشُ أسامة إلى الشام، صاروا كلما مروا بقبيلة من العرب،

قال أفرادُها: لولا أن المؤمنين أقوياء في المدينة لما خرج من عندهم هذا الجيش !

وخافت تلك القبائل وتخلّت عن مواجهة المسلمين في المدينة.

وهذا فضل الثبات على منهاجِ رسول الله ﷺ، كما فعلَ الصديق[1]!!

أمام الصديق مشكلة مانعي الزكاة

والمشكلةُ الرابعة وهي امتناع بعض العرب عن دفع الزكاة، وعُروضهم على أبي بكر، ومساوماتهم له، فقد كان موقفُ أبي بكر منها انطلاقاً من ثباتِه على الحق، وحرصِه على عدم التنازل عن جزءٍ منه، وعدمِ المساومة عليه، أو المداهنةِ فيه، مهما كان الظرفُ الصعبُ الذي يعيشُه !

قبائل العرب مرتدون أو مانعو زكاة

قال محمد بن إسحاق: ارتدَّت العربُ عند وفاةِ رسول الله ﷺ، ما خلا أهلُ المسجدين: مكة والمدينة.

ارتدتْ أَسَد وغطفان، وعليهم طُلَيْحَةُ بنُ خُوَيْلِد الأَسَدي.

وارتدت كِنْدة. وعليهم الأشعثُ بن قيس الكِندي.

وارتدت اليمن وعليهم الأسودُ العَنَسي.

وارتدت ربيعة، وعليهم المَغْرورُ بن النُّعمان.

وارتدت حنيفة، وعليهم مُسَيْلَمَةُ بن حَبيب الكذَّاب.

وارتدت سُلَيْم، وعليهم الفَجاءةُ بن عبد ياليل.

وارتدت تميم، وعليها سُجاحُ بنتُ الحارث...

عروض على الصديق بقبول الصلاة دون الزكاة

وقال القاسم بن محمد بن أبي بكر: اجتمعتْ أسدٌ وغطفان وطيء على طليحة بن خويلد الأسدي، وبَعَثوا وفوداً إلى المدينة، ليفاوِضوا أبا بكر والمسلمين، على عدمِ إعطاء الزكاة.

وقالوا: أمّا الصلاةُ فنقيمُها ونصليها، وأمّا الزكاةُ فلا ندفعها، لأنها جزية.

---

(١) انظر في موضوع جيش أسامة: تاريخ ابن كثير ٦: ٣٠٤ ـ ٣٠٥.
والطريق إلى دمشق لأحمد عادل كمال: ١٥٢ ـ ١٥٦.

وقد كنّا ندفع الزكاةَ لرسول الله ﷺ. فلما مات لا ندفعُها لأحدٍ بعده.

وكثر مانعو الزكاة من القبائل العربية، واحتجَّ هؤلاء المانعون بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقالوا: نحن لا ندفع زكاتَنا، إلا لمن صلاتُه سَكَن لنا، وهو رسول الله ﷺ، فلما مات لا ندفعها لأحدٍ بعده.

وأنشدَ منشدُهم قائلاً:

أَطَعْنا رسولَ اللهِ ما كانَ بَيْنَنا ... فَيالَعِبادِ الله: ما لأَبي بَكْرِ؟

أَيُورِثُنا بَكْراً إِذا ماتَ بَعْدَهِ؟ ... وَتِلْكَ لَعَمْرُ اللهِ قاصِمَةُ الظَّهْرِ!

بعض كبار الصحابة يميلون إلى ملاينتهم

وقد ذهب بعض الصحابة إلى ملاينةِ مانعي الزكاة، وقبولِ الصلاة منهم، والسكوتِ عن منعهم الزكاة، فسيؤدّونها بعد ذلك، عندما يتقوّى الإيمانُ في قلوبهم.

وقالوا لأبي بكر: اتْركهم وماهم عليه من منعِ الزكاة، واقْبَلْ منهم الصلاة، وتألَّفهم، حتى يتمكن الإيمان في قلوبهم، وبعد ذلك سيدفعون الزكاة!!

ثبات الصديق على الحق وإصراره عليه

فأجابَهم أبو بكر رضي الله عنه جوابَ الثابت على الحق، غيرِ المتنازلِ عنه أو المساومِ عليه:

والله لو منعوني عِناقاً ـ أو عِقالاً ـ كانوا يُؤدّونه إلى رسول الله ﷺ، لأُقاتلنّهم على منعِه. إن الزكاةَ حقُّ المال. والله لأقاتلنَّ مَنْ فرَّق بين الصلاة والزكاة!

محاورة الصديق مع عمر بشأن قتال مانعي الزكاة

ولما أراد أبو بكر قتال مانعي الزكاة، حاوَرَه عمر بن الخطاب في ذلك، فاقتنعَ عمر بعد ذلك بما ذهب إليه أبو بكر.

قال أبو هريرة رضي الله عنه:

قال عمرُ بن الخطاب لأبي بكر: عَلامَ نقاتلُ الناس؟ وقد قال

رسول الله ﷺ: أُمِرْتُ أن أُقاتلَ الناس، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإذا قالوها، عصموا منّي دماءَهم وأموالَهم، إلا بحقِّها ؟

ثم موافقة عمر للصديق

فقال أبو بكر: واللهِ لو منعوني عِناقاً ـ أو عِقالاً ـ كانوا يؤدّونه إلى رسول الله ﷺ، لقاتلْتُهم عليه، إنَّ الزكاة حقُّ المال، والله لأقاتلنَّ من فرق بين الصلاة والزكاة !!

قال عمر: فما هو إلا أنْ رأيتُ أنَّ اللهَ شرحَ صدرَ أبي بكر للقتال، فعرفْتُ أنه الحق !!

لقد أخذَ عمر بن الخطاب بظاهرِ الحديث الذي أورده، والذي يُقرر عصمةَ الدم بالنطق بالشهادتين.

ولم يلتفت لِلَّفتةِ اللطيفة التي أدركها أبو بكر، في ربْطه بين الصلاة والزكاة، وعدم تفريقِه بينهما، وثباتِه على الحق، وعدم تنازلِه عن جزء منه.

والصواب مع الصديق في قتال مانعي الزكاة

ولقد كان الصواب مع أبي بكر، ولهذا شرحَ الله صدرَ عمر وباقي الصحابة للحق الذي مع أبي بكر، فوافقوه على قتالِ مانعي الزكاة، ولو لم يكونوا من المرتدين.

قال الله تعالى: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة: ٥].

وروى ابن عَمرَ عن رسول الله ﷺ قال: بُنِيَ الإسلامُ على خمس: شهادةِ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقامِ الصلاة، وإِيتاءِ الزكاة، وحجِّ البيت، وصومِ رمضان !

فالآيةُ والحديثُ قرنا بينَ الصلاة والزكاة، ولم يفرِّقا بينهما.

بل إن الحديث الذي استشهد به عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قرنَ بين الشهادةِ والصلاة والزكاة في رواية أخرى.

فقد روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: أُمِرْتُ أن أُقاتلَ الناس، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقِّ الإسلام، وحسابهُم على الله !!!

ماذا لو لاينهم الصديق؟!

وكلما تذكَّرنا موقف أبي بكر رضي الله عنه من مشكلةِ منع الزكاة، وثباتَه على الحق فيها، ترضَّينا عليه، فماذا سيكونُ حال الإسلام والمسلمين لو ساوَمَ مانعي الزكاة وداهَنَهم، وتنازلَ عن بعض الحق؟ هكذا يكونُ الثبات على الحق[1]!!

استقرار الأمور في عهد الصديق

وقد استقرت الأمور في الدولة الإسلامية، أثناءَ خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

لقد قاتل مانعي الزكاة، وحارب المرتدين، وقضى على مدَّعي النبوة، وتم قتل الأسودِ العنسي في اليمن، ومسيلمةَ الكذاب، وعادَ للإسلام طليحةُ بن خويلد الأسدي، وسُجاحُ بنت الحارث التميمية.

جبهتان جهاديتان في عهده

وفي خلافة الصديق رضي الله عنه كان بدءُ الفتوحات الإسلامية، وأَذِنَ أبو بكر بفتحِ جبهتين للجهاد ضد الكفار.

الجبهة العراقية

الجبهة الأولى: الجبهةُ العراقية، في جهاد الفرس، وكان المجاهدون بقيادة المجاهد الفاتح «المثنى بن حارثة الشيباني»، وقد خاض معاركَ شديدة ضد الفرس، كتبَ اللهُ فيها للمسلمين الغلبة والظفر.

ولما انتهى «خالد بن الوليد» رضي الله عنه من قتال المرتدين ومانعي الزكاة في الجزيرة العربية. وقضى على مسيلمة الكذاب وجيشِه، أمرَه الصديقُ بالتوجُّه إلى جبهة العراق، ليتولّى قيادة المسلمين فيها، ويقومَ

---

(١) في موقف أبي بكر من مانعي الزكاة، انظر:
- البداية والنهاية لابن كثير ٦ : ٣١١ ـ ٣١٤.
- وشرح النووي لصحيح مسلم ١: ٢٠٠ ـ ٢١٠.

بجهاد الفرس، وانضمَّ المثنى بن حارثة وجيشه إلى جيش خالد، وخاض خالدٌ وإخوانه المجاهدون معارك ظافرة ضد الفرس.

والجبهة الشامية

الجبهة الثانية: الجبهة الشامية، حيث كان الجهاد فيها ضد الروم، أقوى دولة في العالم في ذلك الزمان.

فقد وجَّه الصديق رضي الله عنه أربعةَ جيوش، بقيادة أربعةٍ من كبار الصحابة: أبو عبيدة بن الجراح، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة. رضي الله عنهم.

ووقعتْ معاركُ عديدة ضد الروم على الجبهة الشامية، ثم كانت معركةُ اليرموك الفاصلة، التي توفي أبو بكر أثناءَها.

خلافة الصديق قصيرة

ولم يكن عهدُ أبي بكر رضي الله عنه طويلاً، فقد كانت وفاته يوم الثلاثاء ٢٢ جمادى الآخرة ١٣ هـ.

أي أن خلافتَه استمرتْ سنتين وثلاثةَ أشهر وعشرة أيام!

وكان عمره يومَ وفاته ثلاثاً وستين سنة، وهو العمرُ الذي توفي عنه رسول الله ﷺ!

وقد كان أبو بكر رضي الله عنه شديدَ الحزن على وفاة رسول الله ﷺ.

سبب وفاة أبي بكر

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: كان سببُ وفاة أبي بكر، هو وفاةَ رسول الله ﷺ، حيث حزنَ عليه، وما زال جسمه ينقصُ حتى مات.

وقد أصابته الحمى قبيلَ وفاته.

قالت عائشة رضي الله عنها: اغتسل أبو بكر رضي الله عنه في يومٍ بارد، فأصابته الحمى، فمرض بها خمسة عشر يوماً، ولا يقدر على أنْ يخرجَ للصلاة، وكان عمرُ بن الخطاب هو الذي يصلّي بالناس.

وكان الناس يعودونه ويزورونه. فقالوا له: ألا ندعو لك الطبيب؟

قال: قد رآني.

قالوا: ماذا قال لك ؟

قال: قال لي: إنّي فعّال لما أُريد !!!

أبو بكر يعيد المال لبيت المال

وقالتْ عائشةُ رضي الله عنها: لما مرضَ أبو بكر مرضَه الذي مات فيه قال: انظروا ماذا زاد في مالي منذ وُلِّيتُ إِمرةَ المسلمين، فابعثوهُ للخليفة من بعدي، ورُدُّوه في بيت مال المسلمين ! فإني لا آخذُ من هذا المال شيئاً.

فلما توفي وجَدْناه قد خلَّفَ عبداً نوبيّاً، وبعيراً ناضحاً، وصَيْقَلاً لشحذ السيوف، وقطيفةً ما تساوي خمسةَ دراهم !

فبعثناها إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليضعَها في بيت المال.

فلما رآها عمر بكى. وقال: رحمةُ الله على أبي بكر، لقد أَتعبَ من بعده من الولاة تعباً شديداً !!

وصية أبي بكر لعائشة وكرامة له

وقالت عائشةُ رضي الله عنها: لما حضرت أبا بكر الوفاة، جلس، فتشهَّد ثم قال لي:

«يابنيّة، إنَّ أحبَّ إليَّ غنى بعدي أنتِ، وإنَّ أعزَّ الناس عليَّ فقراً بعدي أنت، وإن كنتُ أعطيتُك عشرين وَسَقَ تمرٍ من مالي، مما يقطعونه من ثَمَر نخلي.

ولكن هم أَخَواك وأُختاك، ورثةً معك من بعدي.

قالت عائشة: هذان أَخَواي، فمن أُخْتاي !

قال: ما في بطنِ ابنة خارجة، فإني أظنُّها جارية !»

ولما مات رضي الله عنه، ولدتْ زوجتُه ابنةُ خارجة بنتاً، سُميت أمُّ كلثوم !

وهذه كرامةٌ من كرامات أبي بكر رضي الله عنه، فأَخبرَ أن زوجتَه الحامل، وهي «حبيبةُ بنت خارجة بن زيد» ستلدُ بنتاً، وبعد وفاته ولدتْ بنتاً.

والمراد بقوله لعائشة: أَخواك وأُختاك. أخواها: عبدُ الرحمن ومحمد. وأختاها أسماء وأم كلثوم.

أبو بكر وتكفينه في أثواب قديمة

وقالت عائشةُ رضي الله عنها: سألني أبو بكر في اليوم الذي توفي فيه: في كمْ ثوبٍ كُفِّنَ رسول الله ﷺ؟

قلت: في ثلاثةِ أثواب.

قال لها: اغْسلوا لي ثوبيَّ هذين ـ وكانا مصبوغين ـ واشتروا لي ثوباً آخر!

قالت: ياأبت: نحن موسرون، ألا نشتري لك ثلاثة أثوابٍ جديدة!

قال: الحيُّ أحق بالجديد من الميت، وإنما هي أثوابٌ للقيح والصَّديد!!!

أبو بكر يرشح الخليفة من بعده

وقد رأى أبو بكر رضي الله عنه من الخير للمسلمين أن يستخلفَ عليهم الخليفة، وهذا الاستخلافُ ليس تعييناً منه للخليفة من بعده، وإنما هو ترشيحٌ منه للخليفة، والأمرُ للمسلمين من بعده، فإمّا أنْ يختاروا مَنْ رشحه خليفة، ويبايعوه، وإمّا أنْ يرفضوه، ويختاروا غيره! أي أنَّ الخليفةَ لا تتمُّ له الخلافةُ إلاّ بعد مبايعةِ المسلمين له.

وقد ذكرَ المؤرخُ عزُّ الدين بن الأثير في كتابه «الكامل» في التاريخ خلاصةً نافعةً لاستخلاف عمر من قِبَلِ أبي بكر رضي الله عنهما.

شهادة عبد الرحمن ابن عوف في عمر

قال: لما نزلَ بأبي بكر رضي الله عنه الموت، دعا عبدَ الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

فقال له: أَخبِرْني عن عمر.

فقال ابنُ عوف: إنه أفضلُ مِن رأيك فيه، إلاّ أَنه فيه غلظة! قال أبو بكر: الغلظةُ التي فيه لأنه يَراني رفيقًا، ولو أَفضى الأمرُ إليه وصار خليفة، لتركَ كثيرًا من الغلظة التي فيه. وقد رأيتُه: فكنتُ إذا غضبتُ على رجل، أَراني الرضى عنه، وإذا لنتُ لرجل، أراني الشدةَ عليه!

ثم دعا أبو بكر عثمانَ بن عفان رضي الله عنهما، فقال له: أخبِرْني عن عمر! فقال عثمان: سَريرَتهُ خيرٌ من علانيته، وليس فينا مثلُه.

فقال أبو بكر لعثمانَ وابن عوف: لاتذكُرا مما قلت لكما شيئًا.

طلحة بن عبيد الله ينكر على الصديق استخلاف عمر

ثم دخلَ طلحةُ بن عبيد الله على أبي بكر رضي الله عنهما، فقال له: كيف استخلفتَ على الناس عمر؟ وقد رأيتَ ما يلقى الناسُ منه وأنت معه، فكيفَ به إذا خلا بهم؟ وأنت ملاقٍ ربَّك، وسيسألُك عن رعيتك!!.

فقال أبو بكر: أَجلِسوني. فأجْلَسوه.

فقال لطلحة: أَبِالله تخوِّفُني! إذا سألَني ربي سأقولُ له: استخلفْتُ على أهلك خيرَ أهلك!!.

عثمان يكتب كتاب الاستخلاف

ثم دعا أبو بكر عثمانَ رضي الله عنهما وحدَه، ليكتبَ كتابَ الاستخلاف.

فقال لعثمان: اكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا ما عهدَ أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين.

أما بعد:

ولم يستطعْ أبو بكر أنْ يكمَل كلامَه، بل أُغمي عليه، وخافَ عثمانُ أنْ يموتَ أبو بكر قبلَ أنْ يذكرَ اسمَ من استخلفه، فيقع المسلمون في فرقةٍ وخلاف.

فكتبَ عثمان وأبو بكر مغمى عليه:

أما بعد:

فإني قد استخلفْتُ عليكم عمَر بن الخطاب، ولم آلُكم خيرًا! ثم أفاقَ أبو بكر. فقال لعثمان: اقرأ علَيَّ ماكتبت.

فقرأ عليه ماكتبَه.

فكبَّرَ أبو بكر رضي الله عنه، وقال لعثمان: كتبْتَ اسمَ عمر، لأنك خفْتَ أنْ يختلفَ الناس، إذا مِتُّ أنا في غشيتي!

قال عثمان: نعم.

أبو بكر يخاطب الناس

قال له أبو بكر: جزاكَ اللهُ خيرًا عن الإسلام وأهله! ثم أشرف أبو بكر رضي الله عنه على الناس الذين جُمعوا له، وقرأ عليهم كتابَ الاستخلاف، وقال لهم: إنّي لم أستخلفْ عليكم ذا قرابة، وقد استخلفْتُ عليكم عمر، فاسْمَعوا له وأطيعوا، وإني والله ما ألوتُ ولا قصَّرتُ من جهد الرأي.

ثم استدعى أبو بكر عمر، رضي الله عنهما، وأَوْصاه وصيةً جامعة.

وكان مما قالَ له فيها:

وصية أبي بكر الجامعة لعمر

«يا عمر! اتَّقِ الله. واعلمْ أن عملاً بالنهار لا يقبلُه الله بالليل، وعملاً بالليل لا يقبلُه بالنهار، وأن الله لا يقبلُ نافلةً حتى تُؤدّى الفريضة.

وإنما ثقلَتْ موازينُ مَنْ ثقلَتْ موازينُهم يومَ القيامة، باتّباعهم الحقَّ في الدنيا، وحُقَّ لميزانٍ يوضعُ فيه الحق غدًا أنْ يكونَ ثقيلاً! وإنما خَفَّتْ موازينُ مَنْ خفَّتْ موازينُهم يوم القيامة باتِّباعِهم الباطل، وحُقَّ لميزانٍ يوضَعُ فيه الباطل غدًا أنْ يكون خفيفًا.

وإنَّ اللهَ تعالى قد ذكرَ أهَلَ الجنة، فذكَرَهم بأحسنِ أعمالهم، وتجاوَزَ عن سيئها، وإذا ذكَرْتُهم قلت: إني لأَخافُ أنْ لا ألحقَ بهم!

وإن اللهَ تعالى قد ذكرَ أهلَ النار، فَذكَرهم بسوءِ أَعمالهم، وردَّ عليهم أحسَنَها، فإذا ذكَرْتُهم قلت: إني لأرجو أنْ لا أكونَ مع هؤلاء!

وذلك ليكونَ العبد راغبًا راهبًا، لايتمنّى على الله، ولا يقنط من رحمةِ الله!!

فإنْ أنتَ حفظْتَ وصيّتي، فلا يكن غائبٌ أحبَّ إليك من الموت، وهو آتيك! وإن أنتَ ضيَّعتَ وصيتي، فلا يكن غائبٌ أبغضَ إليك من الموت، ولن تعجزه!!!».

ولما كان أبو بكر يحتضر، دخلَتْ عليه عائشةُ رضي الله عنها، وهو يعاني سكرات الموت، فتمثلَتْ بقولِ الشاعر:

أبو بكر يعترض على شعر عائشة

لَعَمْرُكَ ما يُغْني الثَّراءُ عَنِ الفَتى إذا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وضَاقَ بِها الصَّدْرُ

فنظرَ إليها أبو بكر كالغضبان، ثم قال لها: لا تقولي هكذا. ولكن قولي:

﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

وقالتْ عائشةٌ رضي الله عنها: توفي أبو بكر رحمه الله بين المغرب والعشاء.

وكان آخرُ ما قاله رضي الله عنه: رَبِّ توفني مسلمًا، وألْحِقْني بالصالحين!

وفاة أبي بكر والصلاة عليه ودفنه

ولما توفي قامَ بتغسيله زوجتُه أسماءُ بنت عميس وابنُه عبدُ الرحمن رضي الله عنهم.

وقد أوصى أبو بكر ابنتَه عائشةَ رضي الله عنهما أنْ يُدفنَ إلى جنبِ النبي ﷺ.

فلما توفي حفروا له قبره، بجانب قبر النبي ﷺ.

وقد أمَّ المسلمين في الصلاة عليه عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه.

وحمله إلى قبره كلٌّ من عمر وعثمان وطلحة، وابنُه عبد الرحمن، رضي الله عنهم.

وجَعلوا رأسَه عند كتفيْ رسول الله ﷺ، وأخَّروه عنه قليلاً[1].

وقد ذهبَ بعضُهم إلى أن أبا بكر رضي الله عنه مات مسمومًا، حيث سمّه اليهود.

قيل إنه مات متأثراً بالسم الذي وضعه اليهود

---

(١) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢: ٤٢٥ ـ ٤٢٧.

قال الإمام الطبري: وقالوا: كان سببُ وفاته أن اليهود سمَّتْه في أَرْزَة ـ ويقال في جَذيذة ـ (أو حريرة ـ وهي الحَسْو).

وتناولَ الطعامَ معه منها الحارثُ بن كلدة الثقفي ـ طبيبُ العرب المشهور ـ ولما أكلَ الحارث منها عرفَ أَنها مسمومة، فكفَّ يده، وقال لأبي بكر: لقد أكلْنا طعامًا مسمومًا.

فمات الاثنان بعد سنة[1]

الراجح أنه مات بالحمى

لكن جمهورَ المؤرخين على عدم اعتمادِ هذه الرواية، واعتمادِ الرواية السابقة في أنه مات متأثراً بالحمى، حيث اغتسلَ في يوم بارد، فأصابتْه الحمى، وبقي محمومًا في بيته خمسةَ عشر يومًا، ثم توفي بعدها.

وهذا ما أخبرتْ به عائشة رضي الله عنها، ونحن مع اعتماد هذه الرواية، والميل إليها.

رضي الله عن أبي بكر الصديق، وأرضاه.

* * *

---

(١) تاريخ الطبري ٣: ٤٢٢.

القبسة الثالثة

عمر بن الخطاب رضي الله عنه

بين الاستخلاف والاستشهاد

اجتماع أهل الحل والعقد لاختيار الخليفة

قلنا في القبسةِ السابقة إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه توفي يومَ الثلاثاء، الثاني والعشرين من شهر جمادى الآخرة، سنة ثلاث عشرة.

وأنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قام بالصلاة عليه، ثم دفنوه في نفس اليوم.

وقد اجتمعَ أهلُ الحل والعقد من أعيانِ الصحابة، في نفس اليوم الذي دفنوا فيه أبا بكر رضي الله عنه، بمن فيهم عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه.

أقروا ترشيح الصديق لعمر وبايعوه في نفس يوم وفاة الصديق

ونظروا في كتاب «الاستخلاف» ـ أو الترشيح ـ الذي كتبه لهم الصديق رضي الله عنه قبلَ وفاته، ورشَّح فيه عمر للأمر من بعده.

وقامَ أهلُ الحل والعقد بمبايعة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أميراً للمؤمنين، في نفس اليوم.

أي أن منصبَ «الخلافة» لم يشغرْ أبداً، وسارعَ الصحابةُ بسدِّ الفراغ الذي أحدثه موتُ أبي بكر، وجعلوا عمر مكانه، كما فعلوا عندما توفي رسول الله ﷺ، حيث بايَعوا الصديقَ خليفةً في نفس اليوم.

أول خطبة لعمر بعد الخلافة

وابتدأتْ خلافةُ عمر رضي الله عنه يوم الثلاثاء، الثاني والعشرين من جمادى الآخرة، سنة ثلاث عشرة.

ولما بايعوه، صعدَ عمرُ المنبر، ونزلَ درجةً عن الدرجة التي كان يقفُ

عليها الصديق وخطبَ فقال: «اللهم إني ضعيف فقوِّني، اللهم إني غليظ فليِّني، اللهم إنّي بخيل فسَخِّني.

اقرؤوا القرآنَ تُعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أَهله، وزنوا أنفسكم قبل أنْ توزَنوا، وتزيَّنوا للعرض الأكبر، يوم تُعرضونَ على الله، لا تخفى منكم خافية، إنه لم يبلُغْ حقَّ ذي حق أنْ يطاعَ في معصية الله.

أَلا وإنّي أنزلْتُ نفسي من مالِ الله بمنزلةِ وليِّ اليتيم، إن استغنيْتُ استعففت، وإن افتقرْتُ أكلتُ بالمعروف!».

خطبة أخرى له فيها منهاجه في الخلافة

وبعد ما بويعَ بأيامٍ خطبَ في المسلمين خطبة. ومما قال فيها: «بلَغَني أنَّ الناس هابوا شدَّتي، وخافوا غلْظَتي. وقالوا: قد كان عمرُ يشتدُّ علينا ورسول الله ﷺ بين أظهُرنا، ثم اشتدَّ علينا وأبو بكر والينا دونه، فكيف وقد صارت الأمورُ إليه؟

ومَن قالَ ذلك فقد صدق!

فقد كنتُ مع رسول الله ﷺ، فكنت خادمَه، وكان لا يبلُغُ أحدٌ صنعتَه في اللين والرحمة، وكان كما قال الله: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فكنتُ بينَ يدَيْه سيفًا مسلولاً، حتى يغمدَني أو يَدَعَني، فلم أزلْ مع رسول الله ﷺ على ذلك، حتى توفّاه الله، وهو عنّي راض، والحمدُ لله على ذلك كثيراً، وأنا به أَسعد!

ثم وليَ أمْرَ المسلمين أبو بكر، فكان مَنْ لاينكِرُ أحدٌ دَعَتَه وكرمَه ولينَه، فكنتُ خادمَه وعونَه، أَخلطُ شدَّتي بلينه، فأكونُ سيفًا مسلولاً، حتى يغمدَني أو يدَعَني، فلم أزلْ كذلك معه، حتى قبضَه الله عز وجل، وهو عنّي راض، والحمدُ لله على ذلك كثيرًا، وأنا به أَسعد!.

ثم إني قد وُلّيتُ أُموركم أيها الناس، فاعلَموا أنَّ تلك الشدةَ قد أُضعفَتْ، ولكنها إنما تكونُ على أهل الظلم والتعدّي على المسلمين، فأمّا أهلُ الدين والسلامة، فأنا أَليَنُ بهم من بعضهم لبعض!

ولا أَدَعُ أحدًا يظلمُ أَحَدًا أو يتعدى عليه، حتى أضعَ خدَّه على الأرض، وأضعَ قدمي على الخدِّ الآخر، حتى يُذعنَ للحق، وإني بعد شدَّتي تلك، أضعُ خدّي على الأرض، لأهلِ العَفافِ وأهل الكفاف!!

ولكم علَيَّ أيها الناس خصالٌ أذكرُها لكم فخذوني بها: لكم علَيَّ أن لا أَجبيَ شيئًا مِن خراجكم ولا مما أفاءَ اللهُ عليكم، إلاّ مِن وَجْهِه. ولكم علَيَّ إذا وقعَ في يدي أَلاّ يَخرجَ إلاّ في حقِّه. ولكم عليَّ أن أزيدَ عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله، وأنْ أسدَّ ثغورَكم، ولكم علَيَّ ألاّ ألقيكم في المهالِك، وإذا غبتُم في البعوث، فأنا أبو العِيال حتى ترجعوا إليهم.

فاتقوا الله عبادَ الله! وأَعينوني على أنفسكم، بكفِّها عني، وأعينوني على نفسي بالأمْرِ بالمعروف والنهيِ عن المنكر، وإحضاري النصيحةَ فيما ولاّني اللهُ من أَمركم.

أقوُل قولي هذا، وأستغفرُ اللهَ لي ولكم!».

مدة خلافة عمر

بويعَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه، فكان خليفةً يوم الثلاثاء ٢٢ جمادى الآخرة ١٣هـ، واستُشهدَ يومَ الأربعاء ٢٦ ذو الحجة ٢٣هـ. فكانت مدةُ خلافةِ عمر رضي الله عنه عشرَ سنين وستةَ أشهر وبضعةَ أيام!

ومن أَحسنِ ما قيل عن عمر وخلافتِه، قولُ عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه، حيث قال: رحمَ اللهُ عمر بن الخطاب، كان إسلامُه فتحًا، وهجرتُه نصرًا، وإمارتُه رحمة!!

عهد عمر مانع للفتن

وقد دخلَ الإسلامُ في معظم البلاد المحيطةِ بالجزيرة العربية في عهده، فقد تمَّ فتحُ كلِّ بلاد الشام والعراق ومصر، وفُتحتْ فارس وأرمينيا وأذربيجان وجرجان وبلاد ما وراء النهر، وفُتحتْ طرابلس وبرقة في أفريقيا.

وقد كانت خلافةُ عمرَ سدّاً منيعًا أمام الفتن، وكان عمرُ نفسُه بابًا مغلقًا، لايَقْدِر أصحابُ الفتن الدخولَ إلى المسلمين في حياتِه، ولاتَقدرُ الفتنُ أنْ تطلَّ برأَسِها في عهده!

وما أن استُشهد عمر رضي الله عنه، حتى زالَ السَّدُّ أمام الفتن، وحُطِّمَ الباب الذي يمنعُ أصحابَها من فتنةِ المسلمين وإفسادِهم، وقد دخلت الفتنُ الهوجاءُ كموج البحر بعد استشهاده رضي الله عنه.

حوار بين عمر وحذيفة حول الفتن

ونستمعُ لهذا الحوارِ العجيب بين عمرَ بن الخطاب وحذيفةَ بن اليمان رضي الله عنهما.

قال حذيفةُ بنُ اليَمان رضي الله عنه: كنّا عندَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فقال: أيّكم يحفظُ حديثَ رسول الله ﷺ في الفتنة؟ فقلت: أنا أحفظُه كما قال!

قال: هاتِ، لله أبوك، إنك لجريء.

قلت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: فتنةُ الرجل في أهله ومالِه ونفسِه وولده وجاره، يُكَفِّرُها الصيامُ والصلاة والصدقة، والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر.

قال عمر: ليس هذا أُريد. إنما أُريدُ الفتنَ التي تموجُ كموج البحر!

قلت: مالَكَ ولَها يا أميرَ المؤمنين؟ إنَّ بينَك وبينها بابًا مغلقًا!!

كسر الباب بقتل عمر

قال: فيُكسرُ الباب أو يُفتح؟

قلت: لا. بل يُكسر!!

قال: ذاك أَحرى أن لا يغلقَ أبدًا، حتى قيام الساعة!!!.

قال أبو وائل الراوي عن حذيفة: هل كان عمرُ يعلمُ من الباب؟

قال حذيفة: نعم. كما يعلمُ أنّ دون غدِ الليلة! إنّي حدثْتُه حديثًا ليس بالأغاليط!

قال أبو وائل: فهِبْنا أنْ نسألَ حذيفة: مَن الباب؟

فقلنا لمسروق: سَلْ حذيفةَ مَن الباب؟

فقال مسروقٌ لحذيفة: مَن الباب؟

قال حذيفة: هو عمر!!!

حذيفة بن اليمان متخصص في علم الفتن

إنَّ حذيفةَ بنَ اليمان رضي الله عنه متخصِّصٌ في «علم الفتن» وقد فقهَ هذا العلم من رسول الله ﷺ، أكثرَ من غيره من الصحابة، ولهذا يقولُ لعمرَ رضي الله عنه: أنا أحفظُه كما قال.

وعمرُ يعلمُ هذا من حذيفة، ويعرفُه له، ويثني عليه بقوله: لله أبوك، إنك لجريء.

حذيفة يخبر عن تدفق الفتن بعد مقتل عمر

وحذيفةُ يُقَدِّم العلمَ لعمر رضي الله عنه، بأنَّ البابَ المنيعَ هو الذي يمنعُ تدفقَ الفتن على المسلمين، ويحجزُها عنهم، إنَّ هذا البابَ المغلقَ لن يُفتحَ فتحاً طبيعياً، بحيثُ يمكنُ إغلاقُه، ولكنه سيُكسر كسرًا، وسيتحطم تحطيماً، وهذا معناه أنه لن يُغلقَ بعد هذا حتى قيام الساعة، وهذا ما فهمه عمر، أي أنَّ الفتنَ ستبقى منتشرةً ذائعةً بين المسلمين، لن يتمكَّنوا من إزالتِها أو توقُّفِها أو القضاء عليها.

ونقررُ هنا أن حذيفةَ رضي الله عنه لا يقررُ هذا من عنده، ولا يتوقعُه توقُّعاً، فهو لا يعلمُ الغيب.

إنَّ حذيفةَ المتخصصَ في «علم الفتن» قد سمعَ هذا من رسول الله ﷺ، ووعاه وحفظه كما سمعه، ولهذا يعلِّقُ على كلامه لعمر قائلاً: إني حدَّثتُه حديثاً ليس بالأغاليط.

أي: حدثتُه حديثاً صحيحًا صادقًا، لا أغاليط ولا أكاذيبَ فيه، لأنني سمعتُه من رسول الله ﷺ.

عمر يعلم أنه سيقتل قتلاً

ثم إنَّ عمرَ رضي الله عنه يعلمُ الحقيقةَ التي أخبره بها حذيفة، ويعلمُ أنه هو البابُ الذي يغلق أمامَ الفتن.

أي إن عمرَ يعلمُ أن خلافتَه بابٌ منيعٌ يمنع تدفقَ الفتن على المسلمين، وأنَّ الفتنَ لن تغزو المسلمين أثناء خلافته وعهده وحياته.

وإنَّ عمرَ يعلم أنه سيُقتل قتلاً، وأنَّ أعداءَ هذا الدين سيتمكنون من قتله، وسيلقى الله شهيدًا على أيديهم، وعندها ستتدفقُ الفتنُ على المسلمين.

ويعلمُ عمرُ أنه باستشهاده سيُكسر الباب كسرًا، أي أنَّ نظامَ الحكم الإسلامي لن يستقرَّ حتى قيامِ الساعة.

وهذا ما حصلَ بعد استشهاد عمر رضي الله عنه، حيث استشهِد الخليفتان من بعده، عثمانُ وعليٌّ رضي الله عنهما، ووقعتْ معركتا الجملِ وصفّين، ثم ظهرت الفرق الإسلامية، والخلافات السياسية، والحروب الطائفية، وما زالت الفتنُ تعصفُ بالمسلمين، وما زالَ نظامُ الحكم الذي كُسر باستشهاد عمر مختلاًّ، ولم يُغلقَ بعد ذلك، ولن يغلقَ حتى يوم القيامة!

رحم الله الصحابيّيْن الجليليْن عمرَ بن الخطاب وحذيفةَ بن اليمان في هذا الحوار العجيب بينهما.

إذن عمرُ رضي الله عنه يعلمُ من رسول الله ﷺ، أنه سُيقتل قتلاً، وسيلقى الله َشهيدًا.

إخبار الرسول عن استشهاد عمر وعثمان

قال أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: صعد رسولُ الله ﷺ جبلَ أُحُد، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، . فرجفَ الجبلُ بهم. فضربه رسولُ الله ﷺ برجله، وقال له: «اثبتْ أُحُد: فإنما عليك نبيّ، وصدّيق، وشهيدان».

وقال عثمانُ بن مظعون رضي الله عنه: أشارَ رسولُ الله ﷺ بيده إلى عمر، وقال: هذا غلْقُ الفتنة!. ثم قال: لا يزالُ بينكم وبين الفتنة بابٌ شديدُ الغلق، ما عاش هذا بين أظْهُركم!!!.

وبعد عشر سنواتٍ ونصف من خلافةِ عمر المباركة، التي تقدَّمَ فيها المسلمون، وانتشرَ فيها الإسلام، وفُتحتْ فيه البلدان، وسعدَ المسلمون بالنصر والظفر والتمكين...

بعد هذا كلّه حانتْ نهايةُ هذا الخليفةِ الراشدِ رضي الله عنه، وجاء أَجَلُه، ولقي الله شهيدًا.

وسنعيشُ مع مشهدِ طعنه ثم استشهاده رضي الله عنه.

دعاء عمر في آخر حجة له سنة ٢٣ هـ

حجَّ أميرُ المؤمنين عمر رضي الله عنه حجتَه الأخيرة في سنة٢٣هـ، ولما كان في مِنى في أيام التشريق، كوَّم كومةً من البطحاء، ثم ألقى رداءَه عليها، ثم استلقى عليها، ثم رفعَ يديْه إلى السماء، ودعا اللهَ قائلاً: اللهمَّ كبرتْ سنّي، وضعفتْ قوّتي، وانتشرتْ رعيتي، فاقبِضْني إليكَ غيرَ مضيِّع ولا مفرِّط. اللهمّ إني أسألكَ شهادةً في سبيلك، وموتًا في مدينةَ رسول الله ﷺ!!

إنَّ عمرَ رضي الله عنه يريدُ الشهادةَ في سبيل الله، في مدينةِ رسول الله ﷺ!!

واستجابَ اللهُ دعوتَه، فبعدَ أقلَّ من أسبوعين من هذا الدعاء، لقيَ عمرُ وجْهَ اللهِ شهيدًا.

رؤيا أبي موسى الأشعري حول وفاة عمر

وقبيلَ استشهادِ عمر، رأى أبو موسى الأشعريُّ رضي الله عنهما رؤيا. قال: رأيتُ أَمامي طُرُقًا كثيرة، ثم اضمحلَّتْ وزالَتْ هذه الطرق، ولم تبقَ إلا طريقٌ واحدة، فسِرْتُ فيها، حتى وصلْتُ إلى جبل، ونظرتُ فإذا رسولُ الله ﷺ فوقَ الجبل، وبجانبه أبو بكر، وكان رسولُ الله ﷺ يومىء لعمر: أنْ تعال إلينا!

فاستيقظْتُ، ثم قلتُ: إنا لله وإنا إليه راجعون، ماتَ أميرُ المؤمنين عمر.

فقال له أنسُ بنُ مالك: ألا تكتبُ إلى عمر برؤياك؟. وكانا في العراق!!

فقال له أبو موسىٰ: ما كنتُ لأنعى إليه نفسَه!!

آخر خطبة جمعة لعمر في المدينة

ولما عادَ عمرُ من حجته الأخيرةِ إلى المدينة، خطبَ آخرَ خطبةِ جمعةٍ له في المدينة.

وقد ذكرَ عبدُ الرحمن بن عوف رضي الله عنه بعضَ ما قالَه عمر في خطبة الجمعة ٢١ ذي الحجة ٢٣هـ، وهي آخرُ خطبةٍ له. وقد ذكرْنا ما قاله عبدُ الرحمن بن عوف من الخطبة أثناءَ عرْضِنا كيفيةَ استخلاف أبي بكر الصديق رضي الله عنه، في «قبسة تاريخية» سابقة!

وقد أخبرَ عمرُ نفسُه المسلمين عن رؤيا رآها، وعبَّرَها لهم.

رؤيا عمر بنقر الديك له

قال في نفس الخطبة: إني رأيتُ رؤيا، لاأَراها إلاّ حضورَ أَجَلي. رأيتُ كأنَّ ديكًا نقرني نقرتيْن!!!.

وإنَّ قومًا يأمرونني أنْ أستخلفَ وأعيِّنَ الخليفةَ من بعدي!!

وإنَّ اللهَ لم يكن ليضيعَ دينَه ولا خلافته، ولا الذي بَعثَ به نبيّه. فإنْ عجلَ بي أَمْرٌ فالخلافةُ شورى بين هؤلاء الستة، الذين تُوُفِّيَ رسولُ الله ﷺ وهو عنهم راض!

اجتماع عمر مع حذيفة قبل طعنه

وقبلَ استشهادهِ بأربعة أيام ـ أي يومَ الأحد ٢٣ ذي الحجة ـ قابلَ الصحابيَين حذيفةَ بن اليمان وسَهْلَ بن حنيف رضي الله عنهما.

وكان قد وظَّفَ حذيفةَ ليقدِّرَ خراجَ الأرض التي تُسقى بماء نهرِ دجلة، ووظَّفَ سهلَ بن حنيف ليقدِّرَ خراجَ الأرض التي تُسقى بماءِ نهر الفرات.

وقال لهما: كيف فعلْتُما؟ أَخافُ أنْ تكونا قد حمَّلْتُما الأرضَ ما لا تطيق!

قالا: حَمَّلْناها أمرًا هي له مطيقة!

فقال عمر: لئن سلَّمني الله، لأَدَعَنَّ أراملَ أهل العراق لا يحتَجْنَ إلى رجلٍ بعدي أبدًا!!!

ولكنه طُعنَ في اليوم الرابع من هذه المحاورة بينه وبينهما!!.

وقد كان عمرُ رضي الله عنه لا يأذن للسبايا من الأقطار المفتوحة بدخولِ المدينة المنورة، عاصمةِ دولة الخلافة. فكان يمنعُ مجوسَ العراق وفارس، ونصارى الشام ومصر من الإقامة في المدينة، إلاّ إذا أَسلموا ودخلوا في هذا الدين.

كان عمر يمنع السبايا من الإقامة في المدينة

وهذا الموقفُ مِن عمر من روائعِ مواقفِه، وبدائعِ بصائره، لأنَّ هؤلاء القومَ المهزومين المغلوبين، حاقدونَ على الإسلام، كارهون للمسلمين، وسيكونون حريصين على التآمرِ على المسلمين، والكيدِ للإسلام!

ووجودُهم في عاصمةِ الخلافة يمكِّنُهم من الكيد والمكرِ والتآمر، فمَنَعهم من الإقامةِ فيها لدفع الشرّ عن المسلمين.

ولكنَّ بعضَ الصحابة كان لهم عبيدٌ ورقيقٌ من هؤلاء السبايا النصارى أو المجوس، وكان بعضُهُم يلحُّ على عمر أنْ يأذَنَ لبعض عبيده ورقيقِه من هؤلاء المغلوبين، بالإقامةِ في المدينة، ليستعينَ بهم في أموره وأَعماله، فيأذن عمرُ لبعضهم بالإقامة في المدينة، على كُرْهٍ منه!!

بعض الصحابة يطلبون إدخال عبيدهم

ووقعَ ما توقَّعه عمر، وما كان حذرًا منه.

فقد تآمَرَ نفر من هؤلاء الموتورين الحاقدين، المقيمين في المدينة، على أميرِ المؤمنين نفسِه، واتفقوا على قتله، لأنه قضى على دُولهم، وأَزال قوتَهم!.

اغتيال عمر مؤامرة والمتآمرون

كان اغتيالُ عمر رضي الله عنه مؤامرةً غادرة، اشتركَ فيها أطرافٌ ثلاثة: اليهودُ والنصارى والمجوس.

وكان المتآمرون أربعة:

١ـ الهُرْمُزان: الفارسيُّ المجوسي، ملكُ الأهواز، ومن كبار قادة الفرس في حربهم ضد المسلمين، في معركةِ القادسية، وقبلها، وبعدها.

الهرمزان الفارسي

وقد هزمه اللهُ على أيدي المسلمين المجاهدين في معركة «تَسْتُر» في الأهواز، وأُلقيَ القبضُ عليه، وسيق أَسيرًا إِلى المدينة، في سنة ١٨هـ،

ويبقي فيها بعدما أخذَ الأمانَ من عمررضي الله عنه.

وكعب الأحبار

٢ـ كعب الأحبار: وكانَ من يهود اليمن، ومن أحبارِ اليهود هناك، والعالِمين بالتوراة.

وقد أسلمَ في خلافة عمر، وانتقل من اليمن إلى المدينة، وأقام فيها.

وأبو لؤلؤة المجوسي

٣ـ أبو لؤلؤة فيروز: عبدٌ للمغيرة بن شعبة رضي الله عنه، أخذه من حروب الفرس، وكان فارسيّاً مجوسياً، وقعَ رقيقًا عبدًا في أَحَدِ حروب المسلمين للفرس، ولما وُزِّعَ العبيدُ الأرقّاء على المجاهدين، كان هو من نصيبِ المغيرةِ بن شعبة رضي الله عنه.

وكان أبو لؤلؤةَ المجوسيُّ الفارسي صَنّاعًا حَدّادًا ماهرًا، يصنعُ الأدواتِ الحديديةَ بمهارةٍ وإتقان.

وقد ألحَّ المغيرةُ بن شعبة على عمر رضي الله عنهما في أنْ يُقيمَ أبو لؤلؤة في المدينة، لينتفعَ به المسلمون، فهو حَدّاد نجّار نقّاش صانع، ويستفيدَ المغيرةُ من دخله وأمواله، لأنه عبدٌ له! فأذنَ عمرُ بذلك.

وجفينة الرومي

٤ـ جُفَيْنَة: عبدٌ رقيقٌ نصراني رومي، كان من سبي الروم في فتوح الشام، وصارَ رقيقًا من نصيبِ أحد المسلمين، وأَقامَ في المدينة.

تآمرَ هؤلاء الأربعةُ على حياة عمر رضي الله عنه.

كلام كعب الأحبار لعمر

وقد أخبرَ كعبُ الأحبار عمرَ بن الخطاب أنه قد دنا أَجَلُه، وقربَتْ وفاتُه، وزعَم أن هذا مذكورٌ في التوراة!

قال سعد الجاري ـ مولى عمر بن الخطاب: دخلَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه على زوجتِه: أُمِّ كلثوم بنتِ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فوجدها تبكي.

فقال لها: ما يُبكيك؟

فقالت عن كعب الأحبار: إنَّ هذا اليهوديَّ يقولُ عنك: إنَّ عمرَ على بابٍ من أبوابِ جهنم!

فقال لها عمر: ما شاءَ الله! والله إني لأرجو أن يكونَ ربي خلَقَني سعيدًا!

ثم دعا عمرُ بكعبِ الأحبار. فلما دخلَ عليه، قال له كعب:

يا أميرَ المؤمنين، لا تعجَلْ عَليّ، فوالذي نفسي بيده لاينتهي شهرُ ذي الحجة هذا حتى تدخلَ أنتَ الجنة.

فقال له عمر: أيُّ شيء هذا؟ تجعلُني مرةً في النار، ومرةً في الجنة؟!

كعب يزعم ذكر عمر في التوراة

قال له: يا أميرَ المؤمنين، والله إنا لنجدُك في كتابِ الله التوراة، على بابٍ من أبوابِ جهنم، تمنعُ الناسَ عن الدخول فيها، فإذا مِتَّ اقتحموا فيها!!

ثم قال له: يا أميرَ المؤمنين، أَوْصِ وصيتك، واعهَدْ بما تريد، فإنك ستموتُ بعد ثلاثةِ أيام!!

فقال له عمر مستغرِبًا: وما يدريكَ بذلك؟

كعب الأحبار يخبر عمر عن استشهاده بعد ثلاث

قال: أَجدُ هذا في كتابِ الله التوراة!

قال له عمر: اللهَ الله. هل تجدُ عمرَ بن الخطاب في التوراة؟

قال كعب الأحبار: لا. ولكنْ أجدُ في التوراة صنعَتك، وأجدُ فيها أنه قد انتهى عمرُك وجاءَ أجلُك!!.

وفي اليوم التالي: جاءَ كعبُ الأحبار إلى عمر، فقال له: يا أميرَ المؤمنين ذهبَ يوم، وبقيَ من عمرك يومان!

وفي اليوم الذي يليه جاءَ كعبٌ إلى عمر فقال: ذهب يومان، وبقيَ من عمرك يومٌ واحد!!

ولما كان صبحُ الأربعاء طُعِنَ عمرُ وهو في المحراب!!

فهذا التحديدُ المتدرِّجُ من كعبِ الأحبار، يَدلُّ على أنَّ كعبَ الأحبار كان مطَّلعًا على مؤامرةِ اغتيال عمر، ومشترِكًا بها، وكان يعلمُ وقتَ

التنفيذ. وأرادَ أن «يتعالَم» على عمرَ والمسلمين، ويزعمَ أن هذا مذكورٌ في التوراة!!!.

أبو لؤلؤة يشكو المغيرة إلى عمر

وقبلَ اغتيال عمر جاءه أبو لؤلؤة فيروزُ الفارسيُّ شاكيًا سيِّدَه المغيرة.

وقد كان المغيرةُ يطلبُ منه أن يدفعَ له كلَّ يومٍ أربعةَ دراهم، مقابلَ الآلاتِ الحديدية والطواحين التي يصنعها.

حوار بين عمر وأبي لؤلؤة

فاعتقدَ أبو لؤلؤة أنه مظلومٌ عند المغيرة، وأن المغيرةَ يستغلُّه ويظلمه، ويأخذُ منه مالاً كثيرًا! وهو أربعةُ دراهم في اليوم! قال أبو لؤلؤة لعمر: يا أميرَ المؤمنين: إنَّ المغيرةَ قد أثقلَ علَيّ، ويأخذُ منّي مالاً كثيرًا، فكلِّمْهُ ليخفِّفَ عنّي!

قال له عمر: ماذا تحسنُ من الأعمال؟

فذكرَ له الأعمالَ التي يعملُها من حدادةٍ ونجارةٍ ونَقْش!

فقال له عمر. ماطلبَ المغيرةُ منك مالاً كثيرًا، فاتقِ الله، وأَحسنْ إِلى مولاك.

وكان في نيةِ عمر، أنْ يكلمَ المغيرَة عندما يقابله، ويطلبُ منه أنْ يخففَ على أبي لؤلؤة!

فذهبَ أبو لؤلؤة غاضبًا، وهو يقول: إنَّ عَدْل عمرَ وسعَ الناس كلَّهم غيري، فلم يعدلْ معي!

أبو لؤلؤة موتور حاقد

وكان أبو لؤلؤةَ موتورًا حاقدًا على عمر بالذات، لنجاح المسلمين في خلافتِهِ في تحطيم الدولة الفارسية. وكان أبو لؤلؤة إذا رأى أطفالَ السبايا المجوس في المدينة، يمسحُ على رؤوسهم، ويبكي، ويقول: لقد أَكَلَ عمرُ كَبدي!!!.

وبعد المحاورة بينه وبين عمر أضمرَ قَتْلَه.

فصنعَ أبو لؤلؤة خنجرًا له رأسان، وكان حادًّا ماضيًا، ونوى قتْلَ عمرَ به.

ذهب أبو لؤلؤة إلى الهرمزان، وأَراه الخنجر. وقال له: كيفَ ترى هذا؟

اتفاق أبي لؤلؤة مع الهرمزان على قتل عمر

قال الهرمزان: إنكَ لا تضربُ أحدًا بهذا الخنجر إلا قتَلْتَه!

وكان عمر يسيرُ يومًا في المدينة مع مجموعةٍ من الصحابة، فلقيَ أبا لؤلؤة في الطريق.

فقال له عمر: لقد سمعتُ أنك تقول: لو أَشاءُ لصنعْتُ رحى «طاحونة» تطحنُ بالري!

فأجابه أبو لؤلؤة بغضبٍ وحقدٍ وعبوس: لأصنَعَنَّ لك رحى يتحدثُ بها الناس!!.

أبو لؤلؤة يهدد عمر

فقال عمر للصحابة الذين معه: إن هذا العبدَ يهدِّدُني ويتوعَّدُني!!

واجتمعَ ثلاثةٌ من المتآمرين: الهرمزان وأبو لؤلؤة وجفينة، يتدارسون كيفيةَ تنفيذ المؤامرة، واغتيالِ عمر، وكان مع أبي لؤلؤة الخنجرَ الذي أعدَّه لجريمته.

عبد الرحمن بن أبي بكر يضبط المتآمرين الثلاثة

وبينما كان الثلاثةُ مجتمعين، مَرَّ بهم عبدُ الرحمن بنُ أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

فلما شاهَدوه خافوا وفزعوا، وكانوا جالسين على الأرض، فهَبّوا واقفين فَزِعين، فسقطَ من أبي لؤلؤة الخنجرُ الذي كان يحملُه، وهو الخنجرُ الذي طَعَنَ به عمر بعد ذلك!!.

ونفَّذَ أبو لؤلؤة مؤامرتَه، وطعَن عمرَ بن الخطاب بخنجرِه المسمومِ ذي الحدَّيْن، فجرَ يوم الأربعاء ٢٦ ذي الحجة ٢٣هـ.

طعن عمر صباح الأربعاء ٢٦ ذي الحجة

ونتركُ لأحدِ شهودِ الحادث أنْ يصفَ لنا تفصيلَ الحادثِ المفجع.

قال عمرو بن ميمون الأودي رحمه الله:

شهدتُ عمرَ يومَ طُعِن، ومامَنَعني أنْ أكونَ في الصفِّ الأول المتقدمِ

عمر بن ميمون يروي الحادث

إلا هيبةُ عمر، وكان عمُر رجلاً مَهيبًا.

فكنتُ في الصفِّ الثاني، وبيني وبين عمر ابنُ عباس. أي: كان عمرو في الصفِّ الثاني، وكان ابنُ عباس في الصفِّ الأول، خلفَ عمرَ مباشرة، وكان عمر واقفًا في المحراب، عندما أُقيمتْ صلاةُ الفجر!

قال عمرو بن ميمون: كان عمر إذا أُقيمت الصلاة يمرُّ بين الصفوف، ويقول: استووا، ويستقبلُ الصفَّ بوجْهِه، وينظرُ إلى الناس، فإنْ رأى رجلاً متقدمًا أو متأخِّرًا عَدَّلَه. ثم يتقدمُ إلى المحراب ويكبِّر.

وكان في صلاة الفجر ربما يقرأُ بسورةِ يوسف أو النحلِ في الركعةِ الأولى، حتى يجتمعَ الناس.

وفي يوم الحادث، أُقيمت الصلاة، ونظرَ عمرُ إلى الناس يسوّي الصفوف، وكان خلْفَه مباشرة عبدُ الله بن عباس وعبدُ الرحمن بن عوف، رضي الله عنهم. ودخلَ أبو لؤلؤة، ومعه خنجره المسموم...

طعن عمر بعد تكبيرة الإحرام

وكبَّرَ عمرُ تكبيرةَ الإحرام، وكبَّرَ خلْفَه المصلّون، ودخلوا في الصلاة...

وقبلَ أنْ يبدأَ في قراءةِ الفاتحة، خرجَ له أبو لؤلؤة من وسطِ صفوف المصلّين، وطعنه بخنجره المسموم ثلاثَ طعناتٍ عميقات، واحدة في كتفه، واثنتان في خاصرتِه وبطنِه. وكانت الطعنةُ في بطنه نافذة.

فقال عمر: قتَلَني الكلب، أو: أَكَلَني الكلب!!.

فسقطَ عمرُ على الأرض من قوةِ الطعنات، ودمُه يتدفَّقُ بغزارةٍ من الطعنات، وهو يقرأُ قولَه تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

أبو لؤلؤة يطعن ثلاثة عشر مصلياً ثم ينتحر

وبعدما طَعنَ أبو لؤلؤة عمرَ بخنجره، صارَ يطعنُ المصلّين الواقفين في الصف، الداخلين في الصلاة، يطعنُ مَنْ يلقاه منهم يمينًا وشمالاً، فطعنَ ثلاثةَ عشر رجلاً، استشهدَ منهم سبعة!!.

ولما رأى عبدُ الرحمن بن عوف رضي الله عنه المشهدَ المفجع، قامَ بحركةٍ ذكية، حيثُ أَخَذَ بُرْنُسًا، وَطَرَحه على أبي لؤلؤة، ليُلقيَ القبضَ عليه!

فلما رأى أبو لؤلؤة نفسَه داخلَ البُرْنُس، وأنه سيُقبَضُ عليه، ولن يتمكَّن من الفرار، قام بقتلِ نفسه بخنجره، فماتَ على الفور منتحرًا!!

عبد الرحمن بن عوف يكمل صلاة الفجر

قال عمرُو بن ميمون يكملُ روايتَه للحادث: وتناولَ عمرُ يدَ عبدِ الرحمن بن عوف من خلفه، فقدَّمه ليكملَ الصلاة، فتقدمَ ابنُ عوف للمحراب.

فأما الذين خلْفَ عمر فقد رأوا الحادث، ورأوا مصرع عمر وثلاثةَ عشر رجلاً، ومقتلَ أبي لؤلؤة.

وأما الذين في نواحي المسجد، فلم يدروا ما الأمر، ولما لم يقرأْ عمرُ الفاتحةَ بعد تكبيرة الإحرام، صاروا يقولون: سبحانَ الله، سبحانَ الله.

تقدَّمَ عبدُ الرحمن بن عوف، فصلّى بالمصلّين صلاةً خفيفةً جدًا، قرأَ فيها بأقصرِ سورتين في القرآن.

صلّى ابنُ عوف والمسلمون، وعمرُ صريعًا أمامهم في المحراب، ولكنهم قَدَّموا صلاةَ الفجر ذاتِ الوقتِ الضيق القصير، على إسعافِ أَمير المؤمنين!!!.

عمر يصلي الفجر وجرحه ينزف

قال عبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما: بقيَ عمرُ مغشيًا عليه، حتى أَسفرَ النهار، وأوشكَ طلوعُ الشمس، وهو لم يصلِّ الفجر.

فقيل: إنكم لن توقظوه بشيء، مثلِ تذكيرِهِ بالصلاة، فسيستيقظُ إنْ كانتْ به حياة.

فقالوا: الصلاةَ يا أميرَ المؤمنين، الصلاة!

فانتبهَ عمرُ من غشيته، وقال: نعم، الصلاةَ والله، ولاحَقَّ ولاحَظَّ لمن تركها!

ونظرَ في وجوهِنا وقال: أَصلّى الناسُ؟

فقلت ـ الراوي ابن عباس ـ: نعم يا أميرَ المؤمنين!

قال: لا إسلامَ لمن تركَ الصلاة!!

ثم قدَّموا له ماءً وهو في المحراب، ثم توضأ، وصلّى الفجْرَ قبل شروق الشمس، وإنَّ جرْحه ليتدفق دمًا!!

عمر يكلف ابن عباس معرفة القاتل

وبعد ما صلّى عمرُ الفجرَ قال لابن عباس: أُخرجْ فانظرْ مَن هو الذي قتلَني؟فسألتُ المتجمعين: مَن الذي طعنَ أميرَ المؤمنين؟

قالوا: طعَنَه عدوُّ الله، أبو لؤلؤة المجوسي، غلامُ المغيرة بن شعبة، وطعَن معه رهطًا من المسلمين، ثم قتَلَ نفسه!!.

قال ابنُ عباس: فرجعْتُ، فإذا عمرُ ينظر إلَيّ، وكأنه استأْخَرَني واستبْطَأَني.

فقلت له: هو غلامُ المغيرةِ بن شعبة!

تعليق عمر على معرفته القاتل

قال: الصّانع؟

قلت: نعم.

قال: قاتَلَه الله، لقد أَمرتُ به معروفًا. الحمدُ لله الذي لم يجعلْ ميْتَتي بيد رجلٍ يَدّعي الإسلام، والحمدُ لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجُّني عندَ الله بسجدةٍ واحدة سجدَها لله!!

عمر يعاتب ابن عباس

ثم قالَ لي: قد كنتَ وأَبوك العباسُ تحبّان أنْ تكثرَ العلوجُ من الروم والفرس في المدينة!

قلتُ له: إنْ شئتَ قتَلْناهم جميعًا الآن!

قال: تقتلونَهم الآن، بعدما تكلَّموا بلسانكم، وصلّوا صلاتكم، وحجّوا حجَّكُم؟؟!!.

ثم حُملَ عمرُ من المحرابِ إلى بيته، وجراحُه تنزفُ دمًا.

وأرادَ عمرُ أنْ يتأكَّدَ من عدمِ رضى المسلمين عن قتله، ويتأكَّدَ من رضاهم عنه، وعدمِ غضبهم عليه أو كراهيتِهم له.

عمر يكلف ابن عباس استطلاع رأي المسلمين فيه

قال عبدُ الله بن عمر رضي الله عنهما: لما طُعن أبي، خشيَ أنْ يكونَ له ذنبٌ عند المسلمين لا يعلمه. فدعا عبد الله بن عباس ـ وكان يحبُّه ـ فقال له: أُحبُّ أن تعلمَ لي أمْرَ المسلمين!

فخرجَ ابنُ عباس، فسألَ المسلمين عن طعن أميرِ المؤمنين!

فقالوا جميعًا: واللهِ لودِدْنا أنَّ اللهَ زادَ في عُمُرِ أميرِ المؤمنين من أعمارنا!!

فرجعَ إلى عُمَر، وقال له: يا أميرَ المؤمنين: ما أتيتُ على ملأ من المسلمين إلاّ يبكون، وكأنَّهم فَقَدوا اليومَ أبناءَهم!.

ولما وُضعَ عمرُ في بيته ضحى يومِ الأربعاء، انطلقَ مسلمون معه إلى البيت، وكأنَّهم لم تصبهم مصيبةٌ من قبلُ!

فاختلفوا في تحديد إصابته، وتقديرِ خطورةِ جرحه: فمنهم من يقول: لا بأسَ عليه وإصابتُه خفيفة.

الطبيب يحدد خطورة إصابة عمر

وقال آخرون: إصابتُه خطيرة، ونخشى عليه الموت!

فدعوا له طبيبًا ينظرُ في جرحه. ولما جاءَ الطبيبُ سقاه نبيذَ تمرٍ ـ وهو حَبّاتُ تمرٍ نُقعَتْ في الماء وُتركَتْ فيه ليحلو طعْمُه، وليس هو النبيذُ المعروفُ المسكرُ المحرَّمُ شرعًا ـ فخرجَ نبيذُ التمر من جوفه صافيًا!!

ثم سقاهُ لبنًا فخرجَ اللبنُ من جوفه خالصًا!!

فعلمَ الطبيبُ أنَّ الضربةَ نافذة، وأنَّ الإصابةَ خطرة، فقال لعمر: يا أميرَ المؤمنين: اعهدْ بما شئت، فإنك مَيّت!

فقال عمر: لقد صَدَقني الطبيب، ولو قال غير ذلك لَكَذَبَني!

ولما سمع القومُ ذلك بكوا، فنهاهم عمرُ عن ذلك، وقال: لاتبكوا علينا، ومَن كان باكيًا فليخرج!

المسلمون يعودون عمر

وصارَ المسلمونَ يدخلون على عمر يزورونَه ويواسونَه ويودِّعونه، ويُثنونَ عليه بما فعل من خير.

وجاءه شابٌّ من المسلمين، فقال له: أَبشِرْ يا أميرَ المؤمنين بُبشرى اللهِ لك، فأنتَ صاحبُ رسولِ الله ﷺ، ولكَ قدَمٌ في الإسلام، وهي ما قد علمت، ولقد وُلّيتَ فعدَلْت، والآن هاهي شهادةٌ لك في سبيلِ الله!

عمر ينصح شاباً مسلماً

فردَّ عليه عمر قائلاً: وددتُ لو كان ذلك كفافًا، لا علَيَّ ولا لي.

ولما قامَ الغلام، وخرجَ من مجلسه، نظر عمرُ إليه: فإذا ثوبُه طويل، يجرُّ على الأرض، فناداه عمر.

ولما وقفَ أمامَه قال له: يا ابنَ أخي، ارفعْ ثوبَك، فإنه أنقى لثوبك، وأرضى لربك!!!.

وكلَّمه عبد الله بن عباس رضي الله عنه، يبين فضائلَه، ويثني عليه، وهو صادقٌ فيما قاله.

عبد الله بن عباس يثني على عمر ويشهد له

وكان مما قالَه له: يا أميرَ المؤمنين، لقد صحبْتَ رسول الله ﷺ، فأحسنْتَ صحبتَه، ثم فارقْتَه وهو عنكَ راضٍ، ثم صحبْتَ أبا بكر فأحسنْتَ صحبتَه، ثم فارقْتَه وهو عنك راضٍ، ثم صحبْتَ أصحابَ رسول الله ﷺ، فأحسنْتَ صحبتهم، ولئن فارقْتَهم لتفارقَنَّهم وهم عنك راضون!

إنكَ لأميرُ المؤمنين، وأمينُ المؤمنين، وسيدُ المؤمنين، تقضي بكتابِ الله، وتَقسمُ بالسوية! ولقد كانَ إسلامُك عزًّا، وإمارتُك فتحًا، وقد ملأْت الأرضَ عدلاً!

فأعجبه كلامُ ابن عباس، فاستوى جالساً، وقال لابن عباس ـ وكان معه علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ـ

فقال له عمر: أَتشهدُ لي بهذا ياابن عباسٍ عند الله ؟

فقلت له: نعم، أنا أشهدُ لها بك عند الله.

وقال علي بن أبي طالب: وأنا أيضاً أشهدُ لها بك عند الله !!!

وصارَ الناس يدخلونَ على عمر، ويُثنون عليه، وهم صادقون فيما يقولون.

عمر يرد المتكلمين ويخاف من الخلافة

يقولون: جزاكَ الله خيراً ياأمير المؤمنين، كنت وكنت... ثم ينصرفون، ويجيءُ آخرون، فيُثنون عليه... وهكذا.

وقد ردَّ عليهم عمر قائلاً: أبالإمارة تزكُّونني؟ لقد صحبتُ رسول الله ﷺ وهو عني راض، وصحبتُ أبا بكر فسمعتُ له وأطعتُ، وتوفِّي أبو بكر وأنا له سامع مطيع!

وما أصبحتُ أخاف على نفسي إلا أمارتكُم هذه! ووالله لوددتُ أني نجوتُ منها كفافاً لا علي ولا لي، ووالله لوددتُ أني خرجتُ منها كما دخلتُ فيها، لا أجرَ لي ولا وزرَ علي !!

عبد الرحمن بن أبي بكر يخبر عبيد الله بن عمر بالمؤامرة

ولما طعنَ عمرُ بخنجر أبي لؤلؤة، تأثَّرَ ابنه، «عبيدُ الله بن عمر» وهاجَ وماج، وصار كالسَّبُع.

فلقي في الطريق عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، فأخبرَه بما شاهده من المتآمرين الثلاثة: أبي لؤلؤة، والهرمزان، وجفينة، عندما كانوا مجتمعين سرَّاً، فلما رأوا ابن أبي بكر خافوا وفزعوا، وهَبّوا واقفين، فسقطَ خنجر أبي لؤلؤة من أيديهم، وهو نفسُه الخنجرُ الذي استخدمَه أبو لؤلؤة في طعن عمر والمؤمنين.

فأيقنَ عبيد الله بن عمر أنها مؤامرةٌ مجوسية، اشتركَ فيها هؤلاء المتآمرون الثلاثة. وبما أن أبا لؤلؤة قتلَ نفسه، فلا بدَّ أن يقتلَ الاثنين الآخَرَينِ قصاصاً، وأخذاً بثأرِ عمر.

عبد الله بن عمر يقتل ثلاثة

شهرَ عبيد الله بن عمر سيفَه، وذهب إلى الهرمزان، فضربَه بسيفِه، فقتلَه !!

قال عبيدُ الله: لما وجدَ الهرمزان حرَّ السيف قال: لا إله إلا الله!

ثم ذهبَ إلى جُفَيْنَة، فعَلاه بالسيف فقتله !

قال عبيدُ الله: فلما علوتُ جفينة بالسيف، صلَّبَ بين عينيه !

أي: وضع الصليب على وجهه، إشارةً إلى أنه مات على النصرانية.

ثم ذهبَ إلى بيتِ أبي لؤلؤة، فوجدَ ابنةً له صغيرة، فقتلها بالسيف !

وأرادَ عبيدُ الله بن عمر أن يقتلَ كل من يقدرُ عليه من سبايا الفرس والروم، وتوجَّه ليبحث عنهم لقتلهم، لكن المسلمين تجمَّعوا عليه، وهو شاهرٌ سيفه الذي يقطر دماً.

وأقبل عليه عمرو بن العاص، وما زالَ يكلمُه ويلاينُه حتى دفعَ إليه السيف!

وأُلقيَ القبض على عُبيدِ الله بن عمر ووُضعَ في السجن.

اختلاف في الحكم على عبيد الله بن عمر

واختلفَ المسلمون في عُبيدِ الله بن عمر، فقد قَتَلَ رجلين وفتاة، ولا يجوزُ له ذلك، حتى لو ثبتَ تآمرُ الهرمزان وجُفَيْنَة على أبيه، لأن هذا من حق الخليفة، وهو تجاوزَ حقَّه واعتدى على حق الخليفة !

فذهبَ بعض الصحابة إلى قتلِ عُبيدِ الله بن عمر قصاصاً، لأنه قتلَ أولئك الثلاثة !

وذهب آخرون إلى عدم قتله قصاصاً، بل طالبوا بالعفوِ عنه، وقالوا: أبعدَ الله الهرمزان وجُفَينة، ولَعنَهما الله، وهل تريدون أن تقتلوا عبيدَ الله ليلحق أباه؟ وهل من المعقول أن يُقتلَ عمرُ بالأمس، وأن تقتُلوا ابنَه اليوم؟؟

عثمان يعفو عنه ويدفع دية القتلى

واتفقوا على إبقاء عُبيدِ الله بن عمر في السجن لحينِ اختيارِ الخليفة ! ولما استُخلفَ عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال له عمرو بن العاص: لقد قَتَل عبيد الله ثلاثةً قبل أن تكون أنت خليفةً، أي: لم يحدثْ هذا في سلطانك، فلا مسؤولية عليك فيه، وأرى أن تعفوَ عنه !!.

فأطلقَ عثمان سراحَ عُبيد الله بن عمر، ودفعَ ديةَ الرجلين والفتاةِ من ماله الخاص !

عمر يكلف ابنه إحصاء دينه

وبينما كان عمر بن الخطاب يحتضرُ في بيته، نادى ابنَه عبد الله، فقال له: ياعبد الله، اجمع الدَّيْنَ الذي عَليّ.

فجمعَه فوجده ستةً وثمانين أَلْفَ درهم !

فقال عمر: ياعبد الله: إذا متُّ فأدِّ هذا الدَّين من مال آل عمر، وإن لم يكفِ مالهم للدَّين، فأكمل هذا النقص من مالِ آلِ عَدِيّ، ، وإنْ لم يكفِ مالُهم للدَّين، فأكمل النقص من مال قريش !!

فقال له عبد الرحمن بن عوف: ياأمير المؤمنين: ألا تستقرضْ هذا الدَّيْنَ من بيت المال ؟

فقال له عمر: معاذَ الله أن أفعلَ ذلك حتى لا تقول أنت وأصحابُك من بعدي: تركْنا نصيبنا لعمر، وسامَحناه فيه، ولا توافقون على سداد الدَّين لبيتِ المال، فأتحملُ تبعتَه عند الله !

ابن عمر يضمن دينه

فقالَ عبد الله بن عمر: أنا أضمنُ دينَك ياأبت، وسَداده عليّ.

ولما دُفنَ عمر، وقفَ ابنه عبد الله أمامَ أهلِ الشورى والمهاجرين والأنصار، وأعلَنَ تحمُّلَه مسؤولية سداد الدين الذي على عمر.

وما مضى أسبوع على استخلاف عثمان خليفة، حتى كان عبد الله بن عمر قد جمعَ الدَّينَ كلَّه، وأدَّاه لأصحابه، وشهدَ له عثمانُ بدفعه !!

عمر يستأذن عائشة في الدفن عند صاحبيه

ثم قال عمرُ لابنه عبد الله: يابُنيّ اذهب إلى عائشة فقلْ لها: يقرأُ عليك عمرُ السلام. ولا تقل: أميرُ المؤمنين، فإني اليومَ لستُ للمؤمنين أميراً !!!

وقل لها: يستأذنُ عمر منك أن يُدفَنَ مع صاحبَيْه: رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه !

فذهبَ عبد الله بن عمر إلى عائشة، فاستأذَنَ ودخلَ عليها، فوجدها تبكي على عمر.

فقال لها: يقرأُ عليك عمرُ السلام، ويستأذنُ منك أن يُدْفَنَ في بيتكِ مع صاحبيه!

عائشة تؤثر عمر على نفسها

فقالت: كنتُ أريدُ هذا القبر لنفسي، عند زوجي وأبي، ولأُوثِرَنَّ عمرَ على نفسي!! قد أَذِنْتُ له!!

فعادَ عبد الله بن عمر، ولما رآه أبوه قال: اِرفَعوني وأسنِدوني.

ثم قال له: مالديكَ يابني؟

قال: الذي تحبُّ ياأمير المؤمنين، لقد أَذنَتْ عائشةُ لك!

قال عمر: الحمدُ لله رب العالمين، ما كان شيءٌ أهمَّ إليَّ من أنْ أُدْفَنَ بجانبِ رسول الله ﷺ وأبي بكر!

ثم قال عمر لابنه: ياعبد الله، أُنظر، إذا أنا متّ، فاحْملوني ثم قِفْ على بابِ بيت عائشة، فقل: يستأذنُ عمر بن الخطاب!

فإنْ أذنتْ لي فأَدْخلني، وادفنّي هناك، وإنْ ردَّتني فردَّني، وادفِنّي في مقابر المسلمين، فإني أخشى أن تكون أذِنتْ لي الآن استحياء، لأني أميرُ المؤمنين ومازلتُ حياً!!

بين عبد الله وحفصة حول الاستخلاف

وقال عبد الله بن عمر: دخلتُ على حفصة ـ أخته ـ فقالت: علمْتُ أنَّ أباكَ لنْ يستخلفَ خليفةً من بعده!

فقلتُ لها: ما كان ليفعلَ ذلك!

قالت: بلى، إنه فاعِل.

قال عبد الله: فحلَفْتُ أنْ أُكلمَه في ذلك، فذهبتُ إليه، وهِبْتُ أن أكلِّمَه، وكنتُ كأنني أحملُ جبلاً، فسألني عن حال الناس، فأخبرْتُه.

عبد الله يطلب من أبيه أن يستخلف

ثم قلت له: إني سمعت الناس يقولون مقالة، فآليتُ أن أقولَها لك!

زعموا أنك غيرُ مستخلِفٍ خليفةً من بعدك. ياأَبت، لو طلبتَ قيِّمَ أرضِكَ ليقابلَك، ألم تكن تحبُّ أنْ يستخلِفَ شخصاً مكانه أثناءَ غيابه عن الأرض حتى يرجعَ إليها ؟

قال عمر: بلى.

قلت: ياأَبت، أرأيْتَ لو طلبتَ راعي غنمك ليقابلَك، ألم تكن تحبُّ أن يستخلفَ رجلاً حتى يرجعَ إلى غنمك ؟

قال عمر: بلى.

قلت: ياأبتِ، فماذا تقول لله عز وجل، إذا لقيتَه، ولم تستخلفْ خليفةً على عباده ؟

عمر يقتدي بالرسول ولا يستخلف

فأصابتْه كآبة. ثم نَكَسَ رأسه طويلاً، ثم رفع رأسه وقال لي: إنَّ الله تعالى حافظٌ لهذا الدين، وأيُّ الأمرين فعلت ـ الاستخلافَ وعَدَمه ـ فلي فيه سنّة.

إن لم أستخلفْ فإن رسول الله ﷺ لم يستخلفْ !

وإن أستخلفْ فقد استخلفَ أبو بكر.

قال عبد الله بن عمر: فعلمتُ أنه لن يعدلَ أحداً برسول الله ﷺ، وأنه لن يستخلفَ خليفةً من بعده !!

كلام عمر لسعيد بن زيد حول الاستخلاف

وفي يوم آخر، دخلَ عليه سعيدُ بن زيد رضي الله عنه ـ وهو أحدُ العشرةِ المبشَّرينَ بالجنَّة ـ فقال له: ياأمير المؤمنين: لو أشرْتَ برجلٍ من الناس، فإنَّهم قد ائتمنوك !

فقال له عمر: قد رأيتُ من أصحابي حرصاً سيِّئاً ! وإني سأجعل الخلافة إلى الصحابة الستة الذين توفِّي الرسول ﷺ وهو عنهم راضٍ.

لو كان عبيدة وسالم حيَّين

ولو أدْرَكَني أحدُ هذين الرجلين، وبقي حياً، لاستَخْلَفْتُه ووثقت به، وجعلتُ هذا الأمر إليه: سالم مولى أبي حذيفة، وأبو عبيدة بن الجراح.

فإنْ سألني ربي عن أبي عبيدة، قلت: سمعتُ نبيَّكَ ﷺ يقول: إنه أَمينُ هذه الأمة !

وإن سألني ربي عن سالم قلت: سمعتُ نبيَّك ﷺ يقول: إن سالماً شديدُ الحبِّ لله !

عمر يغلظ القول للمغيرة حول استخلاف عبد الله

وفي يومٍ آخر دخل على عمر مجموعةٌ من الصحابة، ومعهم المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

فقال له المغيرة: إِستخلفْ عبد الله بن عمر.

فقال له عمر: قاتَلَك الله ! والله ماأردتَ بهذا وجهَ الله !

لا حاجةَ لنا في أموركم، ووالله ماحمدْتُ الخلافة، لأرغَبَ فيها لأحدٍ من أهلِ بيتي.

إنْ كانتْ الخلافةُ خيراً فقد أصَبنا منه، وإن كانت شراً فبحسبِ آل عمر أن يحاسبَ منهم رجلٌ واحد، ويسألَه الله عن أمرِ أمةِ محمد ﷺ.

لقد جهدتُ نفسي، وحَرَمْتُ أهلي، فإنْ نجوتُ كِفافاً، لا وزرَ عليّ ولا أجر لي، إني إذنْ لسعيد !

الخلافة شورى في ستة

وجعلَ عمر أمر الخلافة شورى، في الصحابة الستة، المبشَّرين بالجنة، الذين توفِّي رسول الله ﷺ، وهو عنهم راض !

وهم: عُثمان بن عفان، وعليُّ بن أبي طالب، وعبدُ الرحمن بن عوف، وسعدُ بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام. رضي الله عنهم.

لماذا عمر يبعد سعيد بن زيد

ولم يجعلْ فيهم السابعَ المبشَّرَ بالجنة الذي كان حياً، وهو سعيدُ بن زيد رضي الله عنه، لأنه من بني عدي، من أقاربِ عمر، وكان عمر رضي الله عنه حريصاً على إبعادِ الإمارةِ عن أقاربه، مع أن فيهم من هو أهلٌ لها ! فها هو يرفضُ استخلاف ابنه عبد الله، وهو يُبعدُ قريبَه سعيدَ بن زيد عن قائمة المرشَّحين للخلافة !!

عمر يخاطب المرشحين الستة

جمعَ عمرُ النفرَ المرشحين للخلافة، ولما دخلوا عليه قال لهم:

إني نظرت لكم في أمر الناس، فلم أجد عند الناس شقاقاً، فإن كان شقاقٌ فهو فيكم !!

ثم قال: إنَّ قومكم يؤمِّرون أحد ثلاثةٍ منكم: عثمانُ وعليٌّ وعبد الرحمن بن عوف.

ثم نظر إلى عليٍّ فقال له: إن وُلِّيت شيئاً من أمور المسلمين، فلا تحمِلَنَّ بني هاشم على رقابِ الناس.

ثم نظرَ إلى عثمان، فقال له: إن وُلِّيتَ شيئاً من أمور المسلمين، فلا تحملَنَّ بني أمية على رقاب الناس.

ثم نظرَ إلى عبد الرحمن بن عوف فقال له: وإنْ كنتَ على شيء من أمور المسلمين ياعبد الرحمن، فلا تحمِلَنَّ ذوي قرابتكَ على رقابِ الناس !

ثم قال عمر: يجتمعُ هؤلاء الستة، ليختاروا من بينهم رجلاً، ويحضُرُ عبد الله بن عمر، وليس له من الأمر شيء.

وقال عمر: إن وَلَّيْتَمْ سعدَ بن أبي وقاص فهو ذاك، وإلا فليستَشِرْهُ الخليفة، فإني لم أعْزِلهُ عن عجزٍ ولا خيانة !

عمر يعين صهيب الرومي للصلاة

وقال عمر: يُصلِّي فيكم صُهيبُ بن سنان، مولى بني جدعان ـ وهو صهيب الرومي ـ ثلاثة أيام.

دور أبي طلحة والمقداد

وقال عمر لأبي طلحة الأنصاري: كُنْ في خمسين من قومك الأنصار، مع هؤلاء النفر الستة أَصحابِ الشورى، فإنهم سوف يجتمعون في بيتٍ ثلاثة أيام، ليختاروا من بينهم واحداً، فقم أنتَ وأصحابُك الخمسون على باب البيت، ثلاثةَ أيام، ولا تترك أحداً يدخلُ عليهم، ولا تتركهم يمضي اليوم الثالث حتى يؤمِّروا أحدهم !

وقال للمقدادِ بن الأسود فارس رسول الله ﷺ: قم على رؤوس أهل

الشورى الستة ثلاثةَ أيام، فإن رضيَ خمسةٌ منهم رجلاً، وأبى واحدٌ منهم، فاشدَخْ رأسَه بالسيف !

تعليمات عمر للمقداد

وإن اتفقَ منهم أربعة فرضوا رجلاً، وأبى اثنان، فاضربْ رؤوسَهما بالسيف !

وإن رضي ثلاثةٌ رجلاً منهم، ورضي ثلاثةٌ رجلاً آخر، فحكِّموا عبد الله بن عمر، فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضَوا بحكمِ عبد الله بن عمر، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الآخرين إن رفضوا مااجتمع عليه الناس !

فإن انتهت الأيامُ الثلاثة، وجاءَ اليوم الرابع، ولم يختاروا رجلاً منهم، فاقتلوا الستة جميعاً !!

عمر يوصي الخليفة من بعده

وأوصى عمرُ الخليفة الذي سيكون من بعده فقال:

أُوصي الخليفةَ من بعدي: بالمهاجرين الأوَّلين، أن يعرفَ لهم حقَّهم، ويحفظَ لهم حرمَتَهم.

وأوصيه بالأنصار خيراً، فهم الذين تبوَّؤوا الدارَ والإيمان من قبلهم، أن يقبل من محسنِهم، وأن يعفوَ عن مسيئهم.

وأُوصيه بأهل الأمصارِ خيراً، فإنهم ردءُ الإسلام، وجباةُ المال، وغيظُ العدو، وأن لا يأخذَ منهم إلا فَضْلَهم، عن رضاهم.

وأُوصيه بالأعرابِ خيراً، فإنهم أصلُ العربِ ومادةُ الإسلام، أن يأخذَ من حواشي أموالهم، وتُرَدَّ على فقرائهم.

وأُوصيه بأهل الذمة، ذمَّةِ الله، وذِمَّةِ رسوله ﷺ، أنْ يوفيَ لهم بعهدهم، وأن يقاتلَ من ورائهم، ولا يكلَّفوا إلا طاقَتَهم !!

عمر يعيش ثلاثة أيام بعد طعنه ووفاته ليلة الأحد

رتَّبَ عمرُ رضي الله عنه هذه الأمور، ، في الأيامِ التي تلَتْ يومَ طعنِه، يومَ الأربعاء ٢٦ ذي الحجة ٢٣ هـ.

بقي عمر حياً ثلاثة أيام، وهي أيام: الخميسِ والجمعةِ والسبت.

وكان يصلي بالمسلمين في هذه الأيام صهيبُ بن سنان الرومي رضي الله عنه.

وتوفيَ عمرُ رضي الله عنه ليلةَ الأحد، الأول من شهر محرم ٢٤ هـ، وقد أوصى ابنَه عبد الله قبيلَ وفاتِه، فقال له:

وصية عمر لابنه عبد الله

يابُنيَّ إذا حضَرَت وفاتي، فاحْرِفني، ووجِّهْني نحو القبلة، وضَعْ يدك اليمنى على جبيني، ويدك اليسرى على ذقني.

فإذا متُّ فأَغمِضْ عينَيّ.

واقتَصِدوا في كَفَني، فإنه إن يكن لي عند الله خير، أَبْدَلَني خيراً منه، وإنْ كنتُ على غير ذلك، سَلَبني فأَسْرَعَ سلبي!

واقتَصِدوا في حُفْرتي فإنه إن يكن لي عندَ الله خير، وسَّعَ لي فيها مَدَّ بصري، وإنْ كنتُ على غيرِ ذلك، ضيَّقَها علي، حتى تختلفَ أضلاعي!

ولا تَخرُجَنَّ مع جنازتي امرأة، ولا تُزكّوني بما ليس فيَّ، فإن اللهَ هو أعلمُ بي!

وإذا خرجتم بي، فأَسرعوا في المشي، فإنه إن يكن لي عند الله خير، قدَّمتُموني إلى ماهو خيرلي، وإنْ كنتُ على غير ذلك، ألقيتم عن رقابكم شرّاً تحملونه!!!

حفصة تودع أباها

ودخَلتْ عليه قبل وفاته بساعات ابنته حفصةُ أمُّ المؤمنين رضي الله عنها، ومعها نساءٌ يَسِرْنَ معها، فبكَيْن عنده، ثم خرجن، ودخلَ عليه رجالٌ من المؤمنين.

وقد أخبرنا عثمان رضي الله عنه عن اللحظات الأخيرة من حياةِ عمر رضي الله عنه، وذلك عندما دخل عليه ليلةَ الأحد.

عثمان يروي آخر لحظات عمر

قال: أنا آخِرُكم عهداً بعمر، دخلْتُ عليه، ورأسُه في حجرِ ابنه عبد الله.

فقال لابنه: ضعْ خدّي على الأرض!

فقال له ابنه: وهل فخذي والأرضُ إلاّ سواء؟

قال له: ضَع خدّي على الأرض.

فلما وَضَعَ خدّه على الأرض سمعتُه يقول: ويلي وويلَ أُمّي، إن لم تغفرْ لي ياربّي !!! ثم فاضَتْ نفسُه، وخرجت روحُه، رضي الله عنه.

ولما توفي ليلةَ الأحد، غسَّلَه ابنُه بالماءِ والسِّدر، ثم كفَّنَه في ثلاثةِ أثواب، وهيّأه للصلاة عليه.

وبعدما صلى المسلمون صلاة فجرِ يوم الأحد، صلوا على عمر صلاة الجنازة، وأَمَّهم في الصلاة عليه صُهيبُ الرومي رضي الله عنه.

دفن عمر صباح الأحد

ثم حُمِلَ إلى بيتِ عائشة، فوقفَ عبد الله بن عمر على الباب، وسلَّمَ على عائشة، ثم استأذن، وقال لها: عمر يستأذنُ !!

قالتْ: أَدْخِلوه.

وأنـزَلـه فـي قبـره ابنُـه عبـد الله، وعثمـانُ وسعيـد بـن زيـد، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم.

وكان قبرُه عند رجْلَيْ رسول الله ﷺ. بينما كان قبرُ أبي بكر الصديق رضي الله عنه عند كتفي رسول الله ﷺ !

قالتْ عائشة رضي الله عنها: ما زلْتُ أضعُ خماري، وأتخفَّفُ في ثيابي، وأَقولُ: إنما هما زوجي رسول الله ﷺ، وأبي أبو بكر، فلما دُفنَ عمر بن الخطاب عندهما، صرْتُ أتحفَّظُ في ثيابي، لأن عمرَ معهما !!!

عمره الذي مات عنه

وكان عُمُرُ عُمَرَ الذي توفي عنه، ثلاثاً وستين سنة، كعُمُرِ صاحبيه: رسول الله ﷺ، وأبي بكر الصديق رضي الله عنه !

رضي الله عن أميرِ المؤمنينَ عمرَ بنِ الخطاب، وأرضاه.

أخذنا تفاصيل استخلاف عمر ثم طعنه واستشهاده، من عدة كتب، أهمها:
- تاريخ الطبري ٤: ١٩٠ ـ ٢٣٠.
- الطبقات الكبرى لابن سعد ٣: ٢٠١ ـ ٢٨٧.
- الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣: ٤٩ ـ ٦٩.
- صفة الصفوة لابن الجوزي بتحقيق فاخوري ١: ٢٦٨ ـ ٢٩٣.
- أخبار عمر لعلي الطنطاوي: ٥١ ـ ٥٧ و ٣٩٦ ـ ٤٢٠.

القبسة الرابعة

عثمان بن عفان رضي الله عنه

بين الاستخلاف والاستشهاد

ما أوصى به عمر قبل استشهاده

تكلَّمنا في «القبسة التاريخية» السابقة عن طعْنِ عمر رضي الله عنه، ووصيته قبل استشهاده، في جعل الخلافة شورى، في الستة من الصحابة، وما أوصى به عمر أبا طلحةَ الأنصاري أن يحرسَهم في خمسين أنصارياً، وما أَوصى به المقدادَ بن الأسود أن يحرسَهم ثلاثةَ أيام، فإن لم يتفقوا على خليفة من بينهم، يقتلهم جميعاً.

وذكرْنا أن وفاة عمر رضي الله عنه كانت ليلةَ الأحد الأول من محرم ٢٤ هـ، وأنه دُفن في تلك الليلة، بعدما صلّى عليه صهيبُ الرومي رضي الله عنه.

ونتابع الآن السياق، ونعيشُ مشهدَ اجتماع المرشحين الستة، لاختيار الخليفة من بينهم، خلالَ المهلة التي حددَها لهم عمر قبل وفاته، وهي ثلاثةُ أيام.

إنَّ أَمامهم أيام: الأحد والإثنين والثلاثاء، لاختيارِ واحدٍ من بينهم، وإلا قتلَهم المقدادُ جميعاً!

اجتماع خمسة مرشحين في بيت المسور بن مخرمة

ونذكِّرُ بأن المرشحين الستة المبشرين بالجنة، هم: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف.

اجتمعَ خمسةٌ منهم ـ باستثناء طلحة لأنه كان غائباً عن المدينة ـ صباحَ

يوم الأحد الأول من محرم، في بيت «المِسْوَرِ بن مَخْرَمَة» رضي الله عنه ـ وهو ابنُ أُخت عبد الرحمن بن عوف ـ وكان معهم عبد الله بن عمر، ليكون له مجرَّد صوتٍ مرجِّح، على أن لا يُنتخب، كما أوصى أبوه.

ووقفَ أبو طلحة والمقدادُ بن الأسود مع الحراس، يحرسونهم.

سعد يبعد المغيرة وابن العاص

ولما كانوا مجتمعين جاءَ المغيرةُ بن شعبة وعمرو بن العاص رضي الله عنهما، ووقفا على الباب، فأَبعدهما سعدُ بن أبي وقاص، وقال لهما: جلستُما على البابِ لتقولا حضرنا اختيار الخليفة، وكنا في أهل الشورى !!

ابن عوف يدعو لانسحاب آخر المرشحين

وبعدما اجتمعَ المرشحون قال لهم عبد الرحمن بن عوف: أيكم يطيبُ نفساً أنْ يُخرجَ نفسه من الترشيح، على أن يولّيها غيره ؟

إنَّ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يريدُ أن ينسحبَ أحد المرشحين الستة، ويتنازلَ عن الترشيح، ليديرَ هو الجلسة والحوار، ويقومَ بالاتصالات والمداولات لاختيار الخليفة من المرشحين الخمسة الباقين.

لما سألهم ابنُ عوف هذا السؤال لم يُجبه أحدٌ منهم، بتنازله عن الترشيح !

انسحاب ابن عوف مع أن فرصته بالفوز كبيرة

فقال لهم: أنا أُخرجُ نفسي، وأَنخلعُ منها، وأنسحبُ من الترشيح !

وكانت فرصةُ «عبد الرحمن بن عوف» في الاستخلاف كبيرة، وكان كثيرٌ من الصحابة يرغبونَ أن يكونَ هو الخليفة، ولو لم يتنازلْ عن الترشيح، ليتولّى إدارة عملية الشورى والاختيار، فقد يكون هو الخليفةَ بعد عمر، ونصيبُه في الفوز كان كبيراً، ولكن قدَّر الله الخلافة لعثمان رضي الله عنه.

ولعلَّ عبد الرحمن بن عوف كان يعرف هذا، وأنَّ كثيراً من الأنظار كانت تتطلَّعُ إليه، ولكنه كان أزهدَ الستة فيها.

ولهذا لما استشارَ بعضَ الصحابة، كانوا يصرِّحون بأنه هو الأفضلُ للخلافة !

بعضهم أراد ابن عوف خليفة

قال له سعيدُ بن زيد رضي الله عنه: إنّا نراك لها أهلاً !

فقال له عبد الرحمن: أَشِرْ عليَّ بغير هذا !

وقال له سعدُ بن أبي وقاص: بايعْ لنفسك !

فقال له عبد الرحمن: ياأبا إسحاق لقد خلعتُ نفسي من الخلافة على أن أختار الخليفة، ولو لم أفعل ذلك لما أردتُ أن أكون الخليفة !

فقال له سعد: لماذا ؟

رؤيا ابن عوف ونظر ثاقب له

فقال له عبد الرحمن: إني رأيتُ رؤيا، رأيتُ روضةً خضراءَ كثيرةَ العشب.

فدخلَ فحْل، لم أرَ فحلاً قطُّ أكرمَ منه، فمرَّ الفحلُ من الروضة كأنَّهُ سهم، حتى قطعَها، ولم يلتفتْ إلى شيء مما فيها، ولم يأخذ شيئاً منها. ثم دخلَ بعده بعير، فقطعَ الروضة، يتْبعُ أثر الفحل، ولم يلتفتْ إلى شيء مما فيها.

ثم دخلَ بعدَ البعير فحلٌ عبقري، يجُرُّ خُطامَه، ويلتفتُ في الروضة يميناً وشمالاً، ولكنه يتبعُ أثر السابقَيْن، ولم يأخذ منها شيئاً، حتى خرج.

ثم دخلَ بعيرٌ رابع، فرتَع في الروضة !!

ولا والله لا أكونُ أنا الرابع !! ولن يقومَ أحدٌ مقام أبي بكر وعمر فيرضى عنه الناس !!!

من الذي يسدُّ مسدَّ أبي بكر وعمر؟

إن عبد الرحمن بن عوف يملكُ نظراً نافذاً عميقاً، فمن هو الخليفةُ الذي يسدُّ مسدَّ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ؟ ومن هو الذي يملأ الفراغَ الذي تركوه ؟ حتى ينال رضى وتأييدَ الناس في السنوات التالية ؟

لا ابنُ عوف ولا عثمان ولا عليٌّ رضي الله عنهم يملؤون الفراغَ الذي

تركه عمر وراءه! ولكنَّ هذه مشيئةُ الله، ولا بدَّ من الخليفةِ بعد عمر.
وهذا هو قَدَرُ عثمان رضي الله عنه!!

تفويض ابن عوف بإدارة عملية الشورى

لما انسحبُ ابن عوف من الترشيح، وكَّلَه باقي المرشحين بالأمر، وفوَّضوه في إدارة موضوع الشورى، وعاهَدوه على أنْ يَرضوا بما تنتجُ عنه عمليةُ الشورى، وأنْ يبايِعوا الخليفةَ القادمَ أيّاً كان، وأن يسمعوا له ويطيعوا.

بدأَ عبدُ الرحمن بن عوف رضي الله عنه اتصالاته ومشاوراتِه فورَ انتهاء اجتماع المرشحين الستة في بيت المِسْوَرِ بن مَخْرَمَة، صباح يوم الأحد.

مشاورات ابن عوف ثلاثة أيام

واستمرتْ مشاوراته، واتصالاتُه ثلاثة أيام كاملة، حتى فجرِ يومِ الأربعاء، الرابع من محرم، وهو موعدُ انتهاء المهلة، التي حددها لهم عمر!

حوار ابن عوف مع المرشحين

بدأَ عبدُ الرحمن بعليٍّ بن أبي طالب، فقال له: إنْ لم أبايعْك فأَشِرْ عَلَيّ، فمنْ ترشِّحُ للخلافة؟

قال علي: عثمان بن عفان!

وذهبَ عبدُ الرحمن إلى عثمان وقال له: إنْ لم أبايعْك، فمن ترشحُ للخلافة؟

قال عثمان: عليُّ بن أبي طالب!

وقال عبدُ الرحمن للزبير: إن لم أبايعْك فمن تشيرُ عليّ؟

قال الزبير: عثمان بن عفان.

وقال لسعد: أنا وأنت لا نريدُها! فمن تشيرُ عليّ؟

قال: عثمان بن عفان.

ابن عوف يشاور أهل المدينة

ذهبَ ابن عوف بعد ذلك إلى الصحابة الآخرين واستشارهم، وكان

يشاورُ كل من يلقاه في المدينة من كبارِ الصحابة وأشرافِهم، ومن أُمراءِ الأَجناد، ومن يأتي للمدينة.

وشملتْ مشاوراتُه النساء في خدورهن، وقد أَبدَيْنَ رأيَهن، كما شملت الصبيان والعبيد في المدينة.

انتهاء الترشيح إلى عثمان وعلي

وكانت نتيجةُ مشاورات عبد الرحمن بن عوف، أنَّ معظمَ المسلمين كانوا يشيرون بعثمان بن عفان، ومنهم من كان يشيرُ بعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

وبهذا انتهى الترشيحُ إلى عثمان وعليّ، حيث تراجعَ باقي المرشحين: سعد والزبير وطلحة، أو انسحبوا من العملية.

مضى على عبد الرحمن بن عوف ثلاثةُ أيام لم يَنَمْ فيها إلا لحظات، ولم يأخذْ قسطاً من الراحة، لأنه كان يصلُ الليلَ بالنهار في اتصالاته ومشاوراته!

ابن عوف في بيت المسور ليلة الأربعاء

وفي منتصفِ ليلةِ الأربعاء، ذهبَ عبدُ الرحمن بن عوف إلى بيتِ ابن أُخته: المِسْور بن مَخْرمة، فطرقَ البيت، فوجدَ المِسورَ نائماً.

فلما استيقظ المِسْوَرُ قال له: أراك نائماً! فوالله ما ذُقْتُ في هذه الأيام الثلاثة كثيرَ نوم!

دعوة علي وعثمان إلى بيت المسور

ثم قال للمسور: اذهبْ فادعُ لي علياً وعثمان.

فقال له المسور: ياخالِ: بأيِّهما أبدأ؟

قال ابن عوف: بأيِّهما شئت!

قال المسور: دخلَ خالي إلى بيتي، ثم خرجتُ فبدأْتُ بعليّ ـ وكان هوايَ معه ـ

فقلت له: أَجبْ خالي!

علي وعثمان يحاوران المسور بن مخرمة

قال علي: هل بعثكَ معي إلى غيري؟

قلت: نعم. بعثني إلى عثمانَ أيضاً!

قال: أيّنا أمرَكَ أن تبدأَ به؟

قلت: لما سألتُه عن ذلك، قال: ابدأْ بأيِّهما شئت، وكان هوايَ معك، فبدأتُ بك!

قال المسور: فذهبَ عليٌّ إلى خالي، ثم ذهبت أدعو له عثمان، فلما طرقتُ بابه، وجدْتُه يصلّي الوتر ـ وكان هذا قبيلَ الفجر ـ فقلت له: أَجِبْ خالي!

قال لي عثمان: هل بعثكَ إلى أحدٍ غيري؟

قلت: نعم. بعَثني إلى علي.

قال: أيّنا أمَرَكَ أن تبدأَ به؟

قلت: لما سألْتُه عن ذلك قال: ابدأ بأيِّهما شئت. فبدأت بعليّ، وقد ذهبَ عليّ إلى خالي.

علي وعثمان أمام ابن عوف قبل الفجر

قال المسور: أتيتُ أنا وعثمان، والتحقْنا بعلي، ودخلْنا نحن الثلاثة على خالي، فوجدْناه قائماً يصلي، قبلَ أذان الفجر.

فلما قضى صلاتَه، التفتَ إلى علي وعثمان، فقال لهما:

شرط ابن عوف وموافقة عثمان

سألت الناسَ واستشرتُهم ثلاثةَ أيام، فلم أجِدْهم يعْدلون بكما أحداً! ثم التفتَ إلى عليّ فقال له: ياعليّ: هل تبايعُني على كتابِ الله وسنة رسوله ﷺ، وفعلِ أبي بكر وعمر؟

قال علي: لا. ولكن أبذلُ جهدي وطاقتي في ذلك!!

بعد ذلك التفتَ إلى عثمان، فقال له: هل تبايِعُني على كتابِ الله وسنة رسوله ﷺ، وفعلِ أبي بكر وعمر؟

قال عثمان: نعم. أبايِعُك على ذلك!!

عند ذلك رجحت كفَّةُ عثمان في الخلافة على كفَّةِ علي، رضي الله عنهما.

فقال عبدُ الرحمن لهما: انهضا إلى المسجد. وكان الفجرُ قد دخلَ وقتُه.

فجر يوم الأربعاء في المسجد وانتظار المسلمين

وكان المسلمون في صلاةِ الفجر في المسجد ينتظرون جهود واتصالات ومشاورات عبد الرحمن بن عوف، ولا سيما أنَّ الأيام الثلاثة التي حدَّدها عمر رضي الله عنه قد انتهت، وهاهم يستقبلون فجرَ اليوم الرابع.

ذهبَ عبد الرحمن بن عوف إلى بيته، ولبسَ عمامتَه الخاصة، التي عمَّمَه بها رسول الله ﷺ في حياته، وتقلَّد سيفه ثم دخل المسجد.

وأقيمتْ صلاة الفجر، وصلّى بالناس صهيب الرومي رضي الله عنه، وكان المسجدُ غاصّاً بالمصلين، المترقِّبين للنتيجة، المستعدّين لمبايعة الخليفة الجديد!

خطبة ابن عوف بعد الصلاة

وبعدما انتهت الصلاة، صعدَ عبد الرحمن بن عوف المنبر، ووقف وقوفاً طويلاً، ودعا اللهَ دعاءً خاشعاً، لم يسمعه الناس. والناس ينظرونَ إليه، يترقَّبون كلامه، ثم قال:

أيها الناس: إن الناسَ قد أحبوا أن يلحقَ أهلُ الأمصارِ بأمصارهم، وقد علموا من أميرُهم، وقد سألتُكم سرّاً وجهراً عن إمامِكم، فلم أجِدكُم تعدِلون بأحدِ هذين الرجلين: إمّا عليّ وإما عثمان!

كلام ابن عوف لعلي

ثم نادى ابنُ عوف عليّاً، فوقفَ عليٌّ عندَ المنبر.

فأخذَ ابن عوف بيده، وقال له: هل تبايعُني على كتابِ الله وسنة نبيه ﷺ، وفِعْلِ أبي بكر وعمر؟

قال علي: اللهم لا. ولكن أبايعُك على جهدي من ذلك وطاقتي!

فأرسلَ عبد الرحمن يدَ عليٍّ. ثم نادى عثمان. وكان عثمانُ في آخر

المسجد، لأن ابن عوف قدَّم علياً وأسرعَ بمناداته، فظنَّ أن الخلافةَ ستكونُ لعليّ.

قال عثمان: لما أقيمتْ صلاةُ الفجر، تأخَّرت فكنتُ في آخر المسجد، حياء، لأني رأيت إسراع ابن عوف إلى عليّ.

عثمان يوافق على سنة الصاحبين

فلما نادى ابنُ عوف عثمان، أَقبلَ من آخر المسجد، فوقفَ عند المنبر، فأخذَ ابنُ عوف بيده، وقال له: هل تبايعُني على كتابِ الله وسنة نبيه ﷺ، وفِعْلِ أبي بكر وعمر؟

قال عثمان: اللّهم نعم. أبايعُك على ذلك!!

فرفعَ عبد الرحمن بن عوف رأسَه إلى سقفِ المسجد، ويدُه بيد عثمان، وقال: اللهمَّ اسمعْ واشهد، اللهمّ إني قد جعلتُ ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان!!

ثم قال ابن عوف لعثمان: إني أبايعُك!

مبايعة عثمان بالخلافة

ولما بايَعه، قامَ الناسُ يبايعون عثمان، وازدحموا عليه، حتى غشوه عند المنبر!

وكان في مقدمةِ مَنْ بايعه بعد عبد الرحمن بن عوف؛ عليٌّ، وسعد، والزبير، وطلحة، وسعيد بن زيد، رضي الله عنهم!

وكان ابن عوف ينظرُ لجموع المسلمين القادمين لمبايعة عثمان، ويقرأُ قولَه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠].

خلافة عثمان من الأربعاء ٤/١/٢٤هـ

وما أن أشرقت شمسُ يومِ الأربعاء، الرابع من شهر محرم، في العامِ الرابع والعشرين للهجرة، حتى كان أهل الحلِّ والعقدِ من المسلمين قد بايعوا عثمان بن عفان رضي الله عنه خليفةً جديداً، وبذلك كان عثمان هو ثالث الخلفاء الراشدين.

وبعدما تمّت مبايعتُه، صلى بالناس صلاةَ العصر، ثم صعدَ منبرَ رسول الله ﷺ، وخطبَ في المسلمين خطبةَ الخلافة، وكان مما قال في خطبته:

خطبة عثمان

«إنكم في دارِ قُلْعَةٍ وارتحال، وفي بقيةِ أعمار، فبادروا آجالَكم، بخير ما تقدرون عليه، فلقدْ أُتيتُم، صُبّحتُم أو مُسّيتُم، ألا وإن الدُّنيا طُويَتْ على الغُرور، فلا تغرّنكم الحياةُ الدنيا، ولا يغرّنكم بالله الغرَور.

اِعْتَبروا بمن مَضى، ثم جِدّوا فلا تغفَلوا، فإنه لا يُغفَلُ عنكم! أينَ أبناءُ الدنيا وإخوانُها، الذين أثاروها وعمروها، ومُتِّعوا بها طويلاً؟ ألم تَلْفُظْهم؟

ارموا بالدنيا حيثُ رمى اللهُ بها، واطْلبوا الآخرة، فإنَّ الله قد ضربَ لها مَثَلاً، فقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٥-٤٦]».

وكتاب عثمان إلى الولاة

واستفتحَ عثمان خلافتَه بكتابٍ بعثَه إلى الولاة على المناطق والأقاليم والأقطار، وكان الكتاب تعميماً عاماً لهم جميعاً، ومما قالَ لهم فيه:

«إنَّ اللهَ أمرَ الأئمةَ أن يكونوا رُعاة، ولم يأمرهم أن يكونوا جُباة، وإنَّ صدرَ هذه الأمة كانوا رُعاة، ولم يكونوا جُباة، وليوشِكَنَّ أنْ يكون الأئمةُ جباة وليسوا رعاة، فإذا صاروا كذلك انقطعت الأمانةُ، والحياءُ والوفاء. ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين، فتُعْطوهم مالَهم، وتأْخُذوهم بما عليهم، ثم تنظروا في أمورِ أهل الذمة، فتُعطوهم الذي لهم، وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم تنظروا في أعدائكم المحارِبين، فتحارِبوهم، وتستنصروا عليهم بالوفاء بالعهد»[1]..

---

(١) في موضوع استخلاف عثمان ومبايعته خليفة اعتمدنا أساساً على: تاريخ الطبري ٤: ٢٣٠ - ٢٤٥.

استمرت خلافةُ عثمان بن عفان رضي الله عنه اثنتي عشرة سنة إلا أياماً. من بداية سنة ٢٤ إلى نهاية سنة ٣٥ هـ.

قول الزهري عن خلافة عثمان

قال الإمامُ الزهري: وليَ عثمانُ اثنتي عشرة سنة أميراً للمؤمنين، أولَ ستٍّ سنين منها لم ينقم الناس عليه شيئاً، وإنه لأحبُّ إلى قريش من عمر بن الخطاب، لأنَّ عمرَ كان شديداً عليهم، أما عثمانُ فقد لانَ لهم ووَصَلَهم، ثم حدثت الفتنة بعد ذلك !!

بداية الفتنة في السنة السابعة من خلافته

وقد بدأت الفتنةُ في السنةِ السابعةِ من ولاية عثمان، وهي سنةُ ٣٠ هـ، وتفاقمت الأمور، واتسعت الخلافات، ونشطَ أعداءُ الإسلام في تنظيماتِهم السريّة، في البصرة والكوفة ومصر، وأثّروا في الرّعاع والجاهلين والأغبياء من المسلمين، وجَيَّشوا منهم الجيوش، من مصر والكوفة والبصرة، واستمروا في تأجيج الخلافات، ونشْرِ الأكاذيب والإشاعات، حتى أدَّى بهم الأمر إلى محاصرةِ عثمان بن عفان في المدينة، في نهاية السنة الثانية عشرة لخلافته، ثم الإقدام على أشنعِ وأبشع جريمةٍ في التاريخ الإسلامي، وهي قتلُ هذا الخليفةِ الراشد، وإزهاقُ روحه، حيث ترسَّخت الفتنة بين المسلمين، وتعمقت الخلافاتُ السياسيةُ ثم المذهبيةُ والدينيةُ بينهم، ولم يجتمعوا بعدَ اغتيال عثمان جميعاً على قلبٍ واحد وإمامٍ واحد، ولن يجتمعوا جميعاً على ذلك حتى قيام الساعة !!

الفتنة ست سنوات

لقد سمى المؤرخون المسلمون الأحداث في النصفِ الثاني من ولايةِ عثمان: ٣٠ ـ ٣٥ هـ «الفتنة» التي أدّت إلى استشهاد عثمان.

وقد كتبَ المؤرخون المسلمون أخبارَ هذه الفتنة، وما أعقبَتْه من فتن، مثل معركةِ الجَمَل بين علي وبين طلحة والزبير، في البصرة،

= طبقات ابن سعد ١: ٣٩ ـ ٤٧.
البداية والنهاية لابن كثير ٧: ١٤٤ ـ ١٤٩.

ومعركةِ صفّين بين علي ومعاوية، ثم استشهاد علي بعد خروج الخوارج عليه...

تاريخ لأحداث الفتنة

كتبوا هذه الأخبارَ والروايات بالتفصيل، وأوردوا ما فيها من رواياتٍ مكرَّرة، ومتناقضةٍ مختلفة. ومن أسانيدَ صحيحة، وأقوال باطلةٍ مردودةٍ مكذوبة، وملؤوا كتبهم بهذا الخليطِ العجيب من الصحيح والمكذوب، والحق والباطل.

أرَّخَ كلُّ مؤرخٍ لهذه الفتنة، مثل: ابنِ سعد في «الطبقات الكبرى» وسيفِ بن عمر في «الجمل»، وخليفةِ بن خَيَّاط في «الطبقات الكبرى»، ونصْرِ بن مزاحم في «صفين» ومحمد بن عمر الواقدي، ومحمد بن إسحاق، والبلاذري.

من أهم من أرخوا للفتنة من السابقين

ومن أكثرِ المؤرخين تسجيلاً لأحداث الفتنة، برواياتها المسندة، إمامُ المؤرخين والمفسرين: محمدُ بن جرير الطبري، في كتابه: «تاريخ الأمم والملوك» ونقلَ عنه من بعدَه من المؤرخين المسلمين، مثلُ ابنِ الأثير في كتابه «الكامل»، وابنِ كثير في كتاب «البداية والنهاية»، وابنِ الجوزي في كتاب «المنتظم»، والذهبي في «تاريخ الإسلام»، وابنِ خلدون في تاريخه.

ومن المؤرِّخين من خصَّ أحداثَ الفتنة بكتاب خاص، مثل ابن العربي المالكي في كتابه «العواصم من القواصم» الذي حقَّقه محبُّ الدين الخطيب، والقاضي محمد الأشعري المالكي في كتابه «التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان».

من كتب المعاصرين عن الفتنة

وتحدَّثَ المعاصرون كثيراً عن هذه الأحداث، منهم من كان مُغْرِضاً متَّهَماً متأثِّراً بالأعداء مثلُ طه حسين في كتابه «الفتنة الكبرى».

ومنهم من حاول أن يكون منصفاً، ولكنه تأثر بالروايات غير الصحيحة، التي في كتبِ التاريخ السابقة، فتكلَّم عن بعض الصحابةِ بما لا يليق، مثلُ الأستاذ سعيدِ الأفغاني في كتابه «عائشة والسياسة».

عرموش يجمع أخبار سيف بن عمر عن الفتنة

ومنهم من جمعَ خلاصةَ ما قاله بعضُ السابقين، مثل الأستاذ أحمد راتب عرموش، في كتابه «الفتنة ووقعة الجمل»، الذي استخرج فيه من تاريخ الطبري رواياتِ المؤرخ «سيف بن عمر الضبي التميمي» حول فتنة قتل عثمان، ثم معركة الجمل، وكان الأستاذ عرموش دقيقاً وأميناً في النقل، حيث استخرجَ وسجَّل بأمانةٍ أخبارَ سيف بن عمر عن هذه الأحداث. وكتابهُ من أجودِ الكتب في ذلك.

ثناء على كتاب عرجون عن عثمان

ومنهم من خَصَّصَ دراسَته وبحثَه وكتابَه لمسألةِ الفتنة والشغبِ على عثمان، وجمعَ الأخبار حول ذلك واستخرج دلالاتها، وهو الأستاذُ محمد الصادق عُرْجون رحمه الله في كتابه: «عثمان بن عفان: الخليفة المفترى عليه»..

وأَعتقد جازماً أن كتاب المؤلف عرجون عن عثمان، هو أجودُ وأفضلُ، وأعمقُ وأدقُّ كتاب عن هذا الخليفة المفترى عليه، الذي قتل مظلوماً رضي الله عنه!

وأَنصحُ كلَّ مسلم منصف، وكل باحثٍ عن الحق في مسألة الفتنة، بالإقبال على كتابِ عُرْجون، والاستفادة مما فيه من تحقيقٍ وإنصاف.

ترتيب أحداث الفتنة بإيجاز

وسأكتفي في هذه «القبسة التاريخية» بذكرِ بعض الأخبار الصحيحة، التي أَوردَها إمام المؤرخين الطبري، عن سيف بن عمر الضبي، وغيرِه من الإخباريين الصادقين، أُوردِها مرتبةً زمنياً، و بغاية الإيجاز والاختصار، وأُتابعُ الأحداثَ فيها من بدايةِ الشغبِ على عثمان رضي الله عنه في السنة السابعة من خلافته، سنةَ ثلاثين للهجرة، إلى أن انتهى الأمرُ إلى استشهاده، في نهاية سنة خمس وثلاثين.

وإحالة على المراجع التاريخية

أذكُرُ الأحداث باختصار، بهدفِ تقديم صورة مجملة، للقارىء المسلم، الباحثِ عن الحق، الذي يريدُ أن يعرفَ حقيقةَ ماجرى في عهد عثمان، وفي الخروج عليه.

أما الذي يريدالتوسُّع في بحث هذه المرحلة الخطيرة، والذي يصبر على التحقيق والتدقيق، واستخراجِ الحقيقة من رُكام الروايات التاريخية المتناقضة، فعليه بالإقبال على المادة الخام في تواريخ: الطبري، والذهبي وابن الجوزي، وابن عساكر، وابن خلدون، وابن كثير !!

بدأت أحداث الفتنة في سنة ٣٠ هـ، وهي السنة السابعةُ من خلافة عثمان رضي الله عنه، وكانت بداية الأحداث في مدينة «الكوفة» مركزِ الشغبِ والفتن في بدايات تاريخ المسلمين !!

ولاة الكوفة في أول عهد عثمان

لما استلم عثمانُ الخلافة كان الوالي على الكوفة المغيرة بن شعبة، فاستبدل عثمان الصحابي الجليل سعدَ بن أبي وقاص بالمغيرة بن شعبة رضي الله عنهم، فأقام سعدٌ والياً على الكوفة سنة وبعضَ سنة.

ثم غيره عثمان سنة ٢٥ هـ، وعيَّنَ الوليد بن عقبة بن أبي معيط والياً مكانه، والوليد بن عقبة صحابيٌّ جليل، ومجاهدٌ صادق، ولِيَ لأبي بكر ولعمر ولعثمان رضي الله عنهم !

الوليد بن عقبة والخمس سنوات

استمرَّ الوليدُ بن عقبة والياً على الكوفة حوالي خمس سنوات، وكان في هذه السنوات محبوباً عند المسلمين، وكان حليماً عليهم، رفيقاً بهم، حازماً في غير ضعف، لا يغلقُ بابه عنهم، يستقبلهم ويحلُّ مشكلاتهم[1]!

وفي هذه الفترة بدأت الفتنة في الكوفة، باتصالات سرية بين المُغرضين والخبثاءِ والخوارج على الإمام، كما وُجدَ بعض الشباب المخالف المرتكب للمحرمات !

سارقون ثلاثة في الكوفة

وفي ليلة من ليالي سنة ثلاثين هجمَ مجموعة من الشباب السارقين في الكوفة على منزل «ابنِ الحَيْسُمان الخزاعي» وكان منهم: مُوَرِّعُ بن أبي مورِّع الأسدي، وزهيرُ بن جندب الأزدي، وشُبَيْل بن أُبَيّ الأزدي،

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٢٧١.

فقاوَمَهم ابنُ الحَيْسُمان الخزاعي، ولكنهم قتلوه !!

وكان الصحابيُّ «أَبو شَريح الخزاعي» جاراً لابن الحيسمان، وسمعَ الزُّعرانَ اللصوصَ وهم يحدِّثون ابنَ الحيسمان، ورآهم وهم يقتلونه، فشهدَ أبو شريح وابنُه عندَ الوالي الوليد بن عقبة، بما شاهدا وبما سمعا.

الوليد يقيم حد الحرابة عليهم وآباؤهم يحقدون

فأُلقي القبضُ على هؤلاء الزُّعران اللصوص، وكتب الوليد فيهم إلى عثمان، فأَمرَ عثمان بقتلهم، وقام الوليد بقتلهم على باب قصره.

فقال الشاعر عمرو بن عاصم التميمي، يمدح حزمَ عثمان والوليد في قتل هؤلاء الزُّعران:

لا تَأْكُلوا أَبَداً جيرانَكُم سَرَفاً — أَهْلَ الزَّعارَةِ في ملكِ ابنِ عَفَّانِ
إنَّ ابنَ عفَّانَ الذي جرَّبْتُمُ — فَطَمَ اللُّصوصَ بمُحْكَمِ القرآنِ
ما زالَ يَعْمَلُ بالكتابِ مُهَيْمِناً — في كُلِّ عُنْقٍ مِنْهمُ وبَنانِ[1]

فلما طبقَ الوليدُ بن عقبة على اللصوص حكمَ الله، وقتلَهم، حقدَ عليه آباؤهم، وأقاربهم الذين انتصروا لهم عشائرياً، وصاروا يتحيَّنون الفرَصَ المناسبة للكيد بالوليد والتآمر عليه.

الوليد مع ضيفه أبي زبيد

وكان الوليدُ بن عقبة والِياً على الجزيرة في عهد عمر بن الخطاب، وكان يسكُن الجزيرة ـ وهي الأرض الواقعةُ ما بين دجلة والفرات شمال العراق ـ بعضُ نصارى العرب من قبيلة «تَغْلِب»، وقد أسلمَ على يديه بعض النصارى من هذه القبيلة، وكان ممن أسلمَ أحدُ زعماء هذه القبيلة ويكنى بأَبي زُبَيْد، وقامت بين أبي زُبَيْد والوليد أخوَّة وصداقة ومودة.

فلما نقل عثمانُ الوليدَ بن عقبة من ولاية الجزيرة إلى ولاية الكوفة، كان «أبو زبيد» يأتي إلى الكوفة لزيارة الوليد.

وجاء أبو زُبيد إلى الوليد زائراً في يوم من الأيام وعلم الحاقدون

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٢٧٢.

الثلاثة، الذين قتل الوليدُ أبناءهم: أبو مورِّع الأسدي، وأبو زُهير الأزدي، وأبو شُبيل الأزدي.

الموتورون يتهمون الوليد بشرب الخمر

فقال هؤلاء الثلاثة لأناسٍ من وجوه الكوفة: إن واليكم الوليدَ بن عقبة يشرب الخمرَ في بيته مع صديقه أبي زُبيد !!

فأتى بعضُ وجوه الكوفة مع هؤلاء الثلاثة إلى بيتِ الوليد، وكان الوليدُ جالساً مع أبي زُبيد.

فلما أحسَّ الوليدُ بهم أخفى شيئاً كان أمامه تحتَ السرير، فظنَّ بعضهم أن ما أخفاه الوليد عنهم هو الخمر.

وافتضاح أمرهم أمام وجوه الكوفة

فهجم أحدُ الثلاثة على ما تحت السرير، ليريه للقادمين، وأَخرجه وإذا به طَبَقٌ عليه بعض حبّاتِ عنب، فقط كان الوليد يأكلَ العنب مع أبي زُبيد، فلما فوجِىءَ بالناس قادمين، أَخفاهُ عنهم حياءً منهم، لأن فيه حبات عنبٍ قليلة ! فأشاع الحاقدون أنه أخفى عنهم الخمر !!

أقبلَ وجوه الكوفة على الحاقدين الثلاثة يسبّونهم ويشتمونهم، واعتذروا إلى الوليد وقالوا له: إنّ هؤلاءِ قومٌ غضب الله عليهم، وقد آذاهم حكمُ الله الذي أقمته على أبنائهم ! فنشروا عنك الإشاعات !!!

فسكتَ الوليد عن الأمر، وصبرَ واحتسب، ولم يخبر عثمانَ بأمرهم، ووسعَهم بحلْمِه وصفْحِه[1]!

كلامهم لابن مسعود عن الوليد

وازداد حقد الموتورين على عثمان، فذهبَ أحدُهم ـ جُندب الأزدي أبو زهير ـ إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ومعه بعضُ الحاقدين، وقالوا لابن مسعود: إنَّ الوالي الوليد يعتكفُ على شرب الخمرِ في بيته !

فردَّ عليهم ابن مسعود قائلاً: مَن استترَ عنَّا بشيء، لم نتتبَّعْ عورتَه ! ولم نهتكْ سِتْرَه !!

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

ولما سمعَ الوليدُ جواب ابن مسعود للحاقدين عاتَبه قائلاً، لماذا أجبتَ هؤلاء الموتورين بمثل ذلك ؟ أيَّ شيء أستتر به، هذا جوابٌ للمتهم المريب، وأنا لا أشربُ الخمر !!وجرى بين الوليد وابن مسعود كلامٌ وملاحاةٌ في ذلك ![1]

نشر الإشاعات في الكوفة عن سكر الوليد

واستمرَّ الكاذبون ينشرون الإشاعات في الكوفة، أنَّ الوليد يعاقر الخمر، ويكيدون ويتآمرون عليه، ويجمعون حولَهم الأشخاص المذنبين المخالفين، الذين أوقعَ بهم الوليد الحدَّ أو العقوبة أو التعزيرَ بسبب مخالفتهم !

وفي أحدِ الأيام، أحضروا ساحراً للوليد بن عقبة، فسألَ الوليد ابن مسعود عن حد الساحر وعقوبته، فقال ابن مسعود: وما يُدريكم أنه ساحر ؟

فقالوا للساحر: وما هو سحرُك ؟

وإثارتهم الشغب والفوضى ضده

قال: أستطيعُ أن أدخلُ من فمِ الحمار وأخرج من دبره !!

فقال ابن مسعود للوليد: اقتله.

وكان أناس متجمعين أمام منزل الوليد، وفيهم أحد الموتورين: جندب الأزدي.

فوجدَها جندب فرصةً مناسبةً للفوضى والشغب، فاعتدى على حقِّ الوليد، وهجم جندب بسيفه على الساحر فقتله.

فاتفقَ الوليد وابن مسعود على حَبْس جندبِ الأزدي، لأنه فعل ما ليس حقاً له، وقتلَ الساحر، وإقامةُ الحدِّ ليست من صلاحيات الرعية، بل هي حقٌّ للإمام أو نائبه.

ولما كتبَ الوليد إلى عثمانَ بشأن جندب الأزدي، أَمَرَه بتعزيره، ثم

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

إخلاء سبيله، ونهى الناسَ عن العمل بالظنون، وعن إقامة الحدود دون السلطان !!

وازدادَ جندب وجماعته حقداً على الوليد ومَكْراً به !![1]

طلبهم من عثمان عزل الوليد

توجَّه بعضُ الخوارج الحاقدين على الوليد من الكوفةِ إلى عثمان في المدينة، فيهم جندبُ الأزدي، وطلبوا منه عزل الوليدِ لكراهية الناس له، ولظلمه الرعيّة !

فردَّهم عثمان، وقال لهم: أنتم تعملون بالظنِّ الذي نهى عنه الإسلام، وتخرجون من الكوفة بغير إذن !![1]

ولما رجعوا إلى الكوفة ازداد حقدهم على الوليد وعلى الخليفة عثمان !

عصابة الخوارج الموتورين في الكوفة

وتجمَّعَ معهم المُغرضون، ولم يبقَ في المدينة موتورٌ ولا حاقد، ولا محدودٌ ولا مُعاقب، ولا معزَّر، ولا مخالِف، إلا أتاهم، وشكَّلوا عصابةً من الخوارج الموتورين، وتولَّوا نشر الإشاعاتِ والأكاذيبِ ضد الوليد وضد عثمان !!

وخطا هؤلاء خطوةً شيطانية أخبث، حيث تمكَّنوا من سرقة خاتم الوليد بن عقبة بطريقة خبيثة ـ ذكر الطبري تفاصيلها[2] ـ وذهبَ مجموعة منهم إلى عثمان، ومعهم خاتم الوليد، ليشهدوا عليه بشرب الخمر.

ولما عرف الوليد باختفاء خاتمه، وذهابِ هؤلاء إلى المدينة، علم أنهم يريدون شراً، فذهبَ إلى المدينةِ ليلحقَ بهم، ولكنهم سبقوه إلى عثمان!

شهادتهم زوراً أمام عثمان بسكر الوليد

دخلَ القوم على عثمان وتقدمهم رجلان منهم ـ أبو مُوَرِّع الأسدي

---

(١) تاريخ الطبري ٤ : ٢٧٥.

(٢) انظر تاريخ الطبري ٤ : ٢٧٥ ـ ٢٧٧.

أنه يشرب الخمر.

قال لهما: ماذا رأيتما؟

فشهدا كاذبَين، وقالا: دخلْنا على الوليد، وكان سكراناً، ورأيناه يقيءُ خمراً، وعصَرْنا الخمر من لحيته!!!

وبذلك أثبت الشاهدان الكاذبان على الوليدِ شربَ الخمر، لأنَّ حدَّ الخمر يثبتُ بشهادة شاهدين.

دفاع الوليد عن نفسه وكلام عثمان

ولما دخلَ الوليد على عثمان أقسم بالله أنه لم يشرب الخمر، وأن الشاهدين كاذبان، وأنهما خصمان موتوران!

فقال له عثمان: نحن نعمل بما ينتهي إلينا، ونقيمُ الحدود بشهادة الشهود، ويبوءُ شاهد الزور بالنار، والظالمُ الكاذبُ؛ الله ينتقم منه، والمظلومُ ينتقم الله له، ويحسن جزاءَه. فاصبِر ياأخي ـ وكان الوليد أخاً لعثمان بالرضاعة ـ ولا بدَّ من إقامةِ الحدِّ عليك!!

إقامة الحد على الوليد البريء وعزله

وأَمَرَ عثمان بضربِ الوليد المظلوم حدَّ الشرب، بشهادةِ الشاهدين الكاذبين!

ثم رأى أن المصلحة تدعو إلى عزله عن الكوفة، فعزله عنها، بعد ولايةٍ استمرت خمسَ سنواتٍ!

سعيد بن العاص الوالي الجديد

وولّى مكانه سعيدَ بن العاص. فصار سعيدُ بن العاص والياً على الكوفة في سنة ثلاثين[1].

عاد الموتورن الحاقدون الكاذبون إلى الكوفة، بعد شهادتِهم زوراً على الوليد، ليتولّوا رسمَ المكائدِ والمؤامرت ضد الوالي الجديد، سعيد!!

خطبة سعيد عن الفتنة

وصلَ سعيدٌ إلى مركز الفتنة «الكوفة» وصعدَ المنبر، وبعد ما حمدَ الله

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٢٧٥ ـ ٢٧٨.

وأثنى عليه، قال: والله لقد بُعثتُ إليكم وإني لكاره، ولكنّي عندما أمرني عثمان، لم أجد بدّاً من التنفيذ، ألا وإن الفتنةَ قد أَطلعَتْ رأسَها فيكم، ووالله لأضْرِبَنَّ وجهها، حتى أقمَعَها، أو تغلبَني، وإني رائد نفسي اليوم !![1]

اطلع سعيدُ بن العاص على أحوال أهلِ الكوفة، وعرف توجُّهاتِ الناس فيها، وأدرك تعمُّقَ الفتن فيها، وضُلوعَ مجموعة من الخوارج والموتورين والحاقدين وأعداءِ هذا الدين في التآمرِ والكيدِ والفتنة، وسيطرةَ الرعاعِ والغوغاءِ والأعرابِ على الرأي فيها !!

كتاب سعيد لعثمان عن أوضاع الكوفة

وكتبَ سعيدٌ رسالةً إلى عثمان يخبرُه فيها بالأوضاعِ المترديةِ في الكوفة، ومما قال له فيها:

إنَّ أهلَ الكوفة قد اضطربَ أمْرُهم، وقد غُلِبَ فيها أهلُ الشرف، والسابقةِ والقِدْمَة، والغالبُ على تلك البلاد روادفُ ردَفَتْ، وأعرابٌ لحقَتْ، حتى ما يُنظَرُ فيها إلى ذي شرفٍ وبلاء. . !!

فردَّ عليه عثمانُ برسالة، طلبَ منه فيها إعادةَ ترتيبِ أوضاعِ أهلها، وتصنيفَهم على أساسِ السَّبْق والجهاد، وتقديمَ أهل العلم والصدق والجهاد على غيرهم. .

خطبة عثمان وسعيد في إصلاح أوضاع الكوفة

ومما قال له فيها: فضِّلْ أهلَ السابقةِ والقِدْمَة، ممن فتحَ اللهُ على أيديهم تلك البلاد، واجعَل الذين نزلوا البلادَ بعد فتحها من الأعراب تَبَعًا لأولئك السابقين المجاهدين، إلا أنْ يكونَ السابقون تثاقلوا عن الجهاد والحق، وتركوا القيامَ به، وقامَ به مَنْ بعْدَهم! واحفَظْ لكلِّ إنسانٍ منهم منزلَتَه، وأَعطِهم جميعًا قسْطَهم بالحق، فإنَّ المعرفةَ بالناس يتحققُ بها العدلُ بينهم !!.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٢٧٩.

وعملَ سعيدٌ بتوجيهات عثمان، واستدعى أهلَ الجهاد، ممن شاركوا في معركة القادسية وغيرِها ـ مثل القعقاع بن عمرو التميمي ـ وقال لهم: أنتم وجوهُ الناس الذين وراءكم، والوجْهُ ينبىءُ ويخبرُ عن الجَسَد، فأخْبِرونا عن حاجةِ ذي الحاجة ممن وراءكم، وأبْلِغونا عن خُلَّة ذي الخُلَّة منهم !![1].

سعيد يشكل أهالي الشورى من صالحي الكوفة

لقد «شكَّلَ» سعيد أشبه ما يكون بمجلس شورى عنده، من أهلِ الحَلِّ والعقد من أهل الكوفة، وجعلَ فيه الصحابة والمجاهدين وأهلَ العلم والفقه، وأهلَ الدين والتقوى، وقراءَ القرآن وأصحابَ الفضل، وكان هؤلاء هم المحيطين به، المشتركين في مجلسهِ واستشاراتِه !

ولكنَّ خطواتِ سعيد هذه لم تعجب الموتورين الحاقدين ، ولا الرعاعَ الجاهلين، فَنَشَروا الإشاعات والأكاذيب والأراجيف ضدَّ سعيدٍ بين العامة، واتَّهموه عندهم بالباطل، وصدَّقَ بعضُ السذج أكاذيبَهم، واستمالوهم إلى جانبهم !

عثمان يخبر أهل شوراه بإجراءات الكوفة

أخبَرَ سعيدُ بن العاص الخليفةَ عثمان بما فعل، وجمعَ عثمانُ أهلَ الحَلِّ والعقد في المدينة، وأخبرهم بأوضاعِ الكوفة، ورسوخ الفتنة فيها، وإجراءاتِ سعيد بن العاص لمواجهتها، وأخبارِ الموتورين الحاقدين ناشري الإشاعات الكاذبة.

فقالوا لعثمان: أَصبْتَ فيما فعلت، ولا تُسعِفْ أهلَ الفتنة بشيء، ولا تُقَدِّمْهم على الناس، ولا تُطمِعهم فيما ليسوا له بأهل، فإنه إذا تولّى الأمورَ من ليس أهلاً لها، لم يقم بها، بل يفسدُها !

فقال عثمان لهم: يا أهلَ المدينة، إن الناسَ قد تحركوا للفتنة، فاستعدُّوا لمواجهتها، واستَمْسِكوا بالحق، وسوفَ أخبركم بأخبارِها وأنقلُها لكم أَوّلاً بأوّل ![2]

(١) تاريخ الطبري ٤ : ٢٧٩.
(٢) تاريخ الطبري ٤ : ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

تـأذي أصحـاب الأهـواء مـن الإصلاح

لقد تأذّى الرعاعُ وأَجلافُ الأعراب من تقديمِ أصحابِ السابقة والجهاد والبلاء والعلم والتقوى في المجالس والرئاسة والاستشارة، وصاروا يُعيبون على الوُلاة تقديمَ هؤلاء عليهم، واستشارتَهم دونهم ويعتبرونه تمييزًا، وجفوةً وإقصاءً لهم.

واستغلَّ الحاقدون الموتورون هذا الأمْرَ في نفوسهم، وغرسوا فيهم كُرْهَ الخليفة والولاة، ورفْضَ أعمالِ الوالي سعيد بن العاص، والخروجَ عليه، ونشْرَ الإشاعات ضدَّه بين الناس!

رفـض النـاس إشاعاتهم

رفضَ عامةُ الناس في الكوفة كلامَ الموتورين الخارجين، فسكتَ هؤلاء الحاقدون، وصاروا يُخفون شبهاتِهم ولا يظْهرونَها، لرفضِ معظم المسلمين لها.

ولكنهم كانوا يُسِرّون بها إلى مَنْ يؤيدُهم من الأعراب أو الغوغاء، أو المعاقبين المعزَّرين![1]

مـوتـورو اليهـود بفسـدون بين المسلمين

وكان أعداءُ الإسلام الموتورون من اليهود والنصارى والمجوس يتآمرون على الإسلام والمسلمين، وينشرونَ الإشاعاتِ الكاذبةَ ضدَّ الخليفة والولاة، ويستثمرونَ الأخطاءَ التي تصدرُ عن بعضهم في تهييج العامة ضدَّهم، ويَزيدون عليها الكثير من الافتراءات والتزويرات. وهم يهدفون من ذلك إلى نشْرِ الفوضى وتعميقِ الفرقة بين المسلمين، وذلك لتغذيةِ غيظِهم وحقْدِهِم على الإسلام الذي قضى على أديانهم الباطلة، وهَدْمِ نِظام الحكم الإسلامي، الذي حطَّم دولَهم، وقضى على جيوشهم!

ويشكلـون جمعيـة سرية للكيد

وجنَّد هؤلاء الأعداءُ لتحقيق أهدافهم، الموتورين من الرعاع والسذج والبُلَهاء، والتفَّ حولَهم الحاقدون ممَّنْ أدَّبهم أو حَدَّهم أو عَزَّرهم الخليفةُ أَو أحدُ ولاتِه.

---

(١) انظر الطبري ٤ : ٢٨١.

ونظَّم هؤلاء الأعداءَ «جمعيّةً سرية» خبيثة، جعلوا أعضاءَها هؤلاء الذين استجابوا لهم، وجعَلَوا لهم أتباعًا في المدن الكبيرة ؟ والأقاليمِ العديدة، وكوّنوا «شبكةَ» اتصالاتٍ سريةً بينهم ! .

عبد الله بن سبأ اليهودي اليمني على رأس العصابة

وكانت أهمُّ فروعِ جمعيتهم الخبيثة في: الكوفة، والبصرة، ومصر. ولهم بعضُ العناصرِ في المدينة المنورة، والشام !!.

وكان على رأس هذه الجمعيةِ السريةِ المعادية يهودي من يهود اليمن، ادَّعى الإسلام في خلافةِ عثمان، وزعمَ أنه صارَ من المسلمين !! وأخذ يتحركُ في البلاد الإسلامية، يجنِّد فيها أَتْباعَه وجنودَه، ويُنشىءُ فيها حزبَه وتنظيمَه !!

إنه اليهوديُّ «عبدُ الله بن وَهْبِ بن سبَأ»، المعروفُ بابن السوداء، لأنَّ أُمَّه كانت سوداء، ويُعرفُ أتباعُه باسم «السَّبَئِيّين» ولهم الدورُ الأولُ في الخروجِ على عثمان ثم قتلِه، وبعد ذلك الخروج على عليّ، ثم قتلِه.

بداية أمر سبأ

قال عنه الإمام الطبري بإسناده: «كان عبدُ الله بن سبأ يهوديًا من أهل صنعاء، أُمُّه سوداء، فأسلمَ زمنَ عثمان، ثم تنقَّلَ في بلدان المسلمين، يحاولُ إضلالَهم، فبدأَ بالحجاز، ثم البصرة، ثم الكوفة، ثم الشام. فلم يَقْدِر على ما يريدُ عندَ أحد من أهل الشام، فأخرجوه حتى أتى مصر !

قدمَ ابنُ سبأ مصر، فأقامَ فيها، وأثَّرَ في أُناسٍ من أهلها، وصارَ ينشرُ في الناس كفْرَه وضلالَه.

ابن سبأ يروج لرجعة محمد ووصاية علي

كان يقول لهم: العجبُ ممن يزعمُ أنَّ عيسى سيرجعُ في آخر الزمان، ويقولُ إن محمدًا لا يرجعُ في آخر الزمان، مع أنَّ اللهَ يقولُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥].

وإنَّ محمدًا أولى بالرجوع من عيسى، لأنه أفضلُ منه !

ووضَعَ لهم مبدأَ «الرَّجْعَة» فقَبلوه منه، وتكلَّموا فيه.

ثم خطا خطوةً أخرى، وهي تهييجُ الناس على الخليفة، فقال لهم:

إنه كانَ أَلْفُ نبي، ولكلِّ نبيٍّ وصي، وكان علي بن أبي طالب هو وصيَّ محمد، وبما أن محمدًا هو آخر الأنبياء، فعِليٌّ هو آخرُ الأوصياء !

ثم قالَ لهم بعد ذلك: مَنْ أظلمُ ممن لم يُجِزْ وصيةَ رسولِ الله ﷺ باستخلافِ عليٍّ مِنْ بعده، ووثبَ على وَصِيِّه عِلِيّ، وحَكَمَ المسلمين بدلاً منه !

ثم قال لهم بعد ذلك: إنَّ عثمانَ أخذ الخلافةَ بغير حق، وإنما هي للوصِيِّ عليِّ بن أبي طالب، ولا بدَّ أن يتركَها عثمانُ لعلي.

ابن سبأ يصدر توجيهاته لأتباعه

وأوصى ابنُ سبأ أَتْباعَه المجرمين في جمعيتِه السرية الخبيثة، المنتشرين في بلاد المسلمين، فقال لهم: انْهَضوا في هذا الأمر، فحرِّكوه، وابدَؤوا بالطعن على أمرائكم وولاتكم الذين يعينهم الخليفة، وأظهروا الأمْرَ بالمعروف والنهي عن المنكر، لتستميلوا الناس إليكم، وادْعوهم إلى هذا الأمر !!

وبثَّ عبدُ الله بنُ سبأ دعاتَه في بلاد المسلمين، في البصرة والكوفة والمدينة وغيرها، وهو مقيمٌ في مصر، وكاتَبَ أَتْباعَه الذين أفسدَهم في الأمصار وضمَّهم إليه، وكاتبوه !

نشاط أتباعه في الإفساد

وتحرَّكَ أَتباعُه في البلدان بدعوتهم، ودعوا مؤيِّديهم في السّرّ إلى ما هم عليه من الخروج على الولاة والخليفة، والعمل على عزْلِ عثمانَ عن الخلافة !

وكانوا في الظاهر يُظْهِرون الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر، ليؤثِّروا في الناس، ويستميلوهم ويخدعوهم !

وصارَ أَتْباعُ ابنِ سبأ يؤلِّفون الأكاذيبَ والافتراءاتِ عن عيوب أمرائِهم وولاتِهم، وينشرونهَا في كتب يرسلُها بعضُهم إلى بعضٍ في الأمصار، وصارَ أهلُ كلِّ مِصْرٍ منهم يكتبون كتباً بهذه الأكاذيب إلى أهل مِصْرٍ آخرين، فيقرأ أهل كلِّ مصر تلكَ الكتبَ المزوَّرةَ على الناس عندهم !

من أساليب السبئيين في الفتنة

فيسمعُ الناسُ عندهم عن عيوبٍ وأخطاءِ الوالي في ذلك البلد، فيقولون: إنا لفي عافية مما ابتُلِيَ به المسلمون في ذلك البلد، ويصدِّقون ما يسمعون!

وبذلك أفسدَ «السبئيّون» في الأرض، وأَفسدوا المسلمين، ومزّقوا كلمتهم، وزعزعوا أخوّتَهم ووحدَتَهم، وهيَّجوا الناسَ على الولاة والأمراء، ونشروا الافتراءات ضد الخليفةِ عثمان نفسه.

وكانوا بهذه الجرائمِ المنظَّمة والمدروسة بمهارةٍ، يريدونَ غير ما يُظْهِرون، ويُسِرّون غير ما يُعلنون، ويهدفون إلى عزلِ عثمان، والقضاءِ على النظامِ الإسلامي، لتحقيقِ أغراضِ شيطانِهم عبدِ الله بن سبأ، وأعوانِه من اليهود والنصارى والمجوس!![1]

لما أظهرَ «عبدُ الله بن وهب بن سبأ» الإسلام، توجَّهَ إلى الشام ليُفسدَ بعضَ أهلها، ويؤثرَ فيهم، ولكنه لم ينجحْ في هدفِه الشيطاني هناك!

ابن سبأ يموّه على أبي ذر في الشام

روى الإمامُ الطبريُّ بإسناده فقال: «لما أَتى ابنُ السوداء ـ ابنُ سبأ ـ الشام، لقيَ أباذَرٍّ الغفاري رضي الله عنه.

فقال ابن سبأ لأبي ذَرّ: ألا تتعجَّبُ من قول معاوية! إنه يقول عن المال: المالُ مالُ الله! ألا إن كلَّ شيء لله، لكنَّ معاويةَ يريد أن يحجُب هذا المال عن المسلمين، ويمحو عنه اسْمَ المسلمين!

فتأثَّرَ أبو ذر بحسْنِ نيّة، وصدقِ قلب، ونقاءِ سريرة بكلام ابن سبأ، وظنَّ أن معاويةَ مخطىءٌ في كلامه.

بين أبي ذر ومعاوية

ذهبَ أبو ذر إلى معاويةَ رضي الله عنهما، وأنكر عليه قائلاً: يا معاوية: ما يَدْعوك إلى أن تسَمِّيَ مالَ المسلمين مالَ الله؟

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٤٠ ـ ٣٤١ بتصرف في الصياغة.

قال له معاوية: يرحمكَ اللهُ يا أبا ذر. ألَسْنا عبادَ الله والمالُ مالُه، والخلْقُ خلقُه، والأمْرُ أمْرُه ؟؟

قال أبو ذر: لا تقل: هذا المالُ مالُ الله ؟

فقال له معاوية: لن أقول هذا المالُ ليس لله ولكن سأقول: هو مالُ المسلمين !!

أبو ذر يغادر إلى المدينة ثم إلى الربذة

وبذلك اختصرَ معاوية الأمر واستجاب لأبي ذر، مع أنَّ معاوية لم يُخطىء في كلامه، وإنما هي مكائد ابن سبأ وأراجيفه التي انْطَلَتْ على أبي ذر لحسن نيته وصفاء قلبه. ولكنَّ الخلاف اشتد بين معاوية وأبي ذر حولَ أمثالِ هذه المسألة، مما دعا عثمان إلى أنْ يكتبَ لأبي ذَرّ بالقُدوم معزَّزًا مكرَّمًا إلى المدينة، وخشيَ أبو ذر أنْ يَفهمَ عليه بعضُهم في المدينة خَطَأً، وأنْ يستغِلّوه في تحقيقِ أغراضهم الشيطانية، فآثَرَ أنْ يُقيمَ في «الرَّبَذَة» في أطراف المدينة، معتزلاً الفتنة، إلى أن توفّاه الله سنة٣٢هـ، قبل تسارُعِ الأحداث، وانتشارِ الفتن !!

وذهبَ ابنُ السوداء إلى أبي الدرداء رضي الله عنه في الشام، وكلَّمَه بمثلِ ما كلَّمَ به أبا ذر، وأرادَ إفساده، وتأليبَه على معاوية. لكنَّ أبا الدرداء سمعَ كلامَه بوعيٍ وبصيرةٍ وإيمان، فشمَّ منه رائحةَ اليهودية والشيطنة، فقال له: مَنْ أنت ؟ والله ما أنتَ يا ابنَ السوداء إلا يهوديًا !!.

أبو الدرداء وعبادة ابن الصامت يكشفان يهودية ابن سبأ

وذهبَ ابنُ سبأ إلى عُبادةَ بنِ الصامت رضي الله عنه، فكلَّمه بمثْلِ ما كلَّمَ به أبا الدرداء، واكتشفَ عُبادَةُ خبثَه ويهوديته، فساقَه وأَخذه إلى معاوية مخفورًا. وقال له: يا معاوية خُذْ هذا اليهودي، عليكَ به، فهو الذي هَيَّجَ عليك أبا ذر !!!.

فكتبَ معاويةُ إلى عثمان بالأمر، فقال له عثمان: إنَّ الفتنةَ قد أَخرجَتْ أنْفَها وعينَيْها، وأطلَّتْ برأسِها، ولم يبق إلاّ أنْ تَثِبَ وتَثور !

فلا تَنْكَأ الجرح، وكَفْكِفِ الناسَ ونفْسَك ما استطعت ![1]

ابن سبأ في البصرة سنة ثلاثين

وتوجَّهَ عبدُ الله بن سبأ في سنة ثلاثين من الشام إلى البصرة، ليجنِّدَ الأَتْباعَ له من المارقين أو الحاقدين أو الرُّعاع البُلَهاء. وكان والي البصرة عبدَ الله بنَ عامر بن كريز، وكان حازمًا عادلاً صالحًا.

لما وصَلَ ابنُ سبأ البصرة، نزلَ عند رجلٍ خبيثٍ من أهلها، كان لصًّا فاتكًا، هو حَكيمُ بن جَبَلَة !!

قال الإمام الطبري: بلغَ عبدُ الله بنُ عامر أن رجلاً غريبًا نازلاً على حَكيمِ بْنِ جَبَلَة.

ابن سبأ عند حكيم بن جبلة لص البصرة

وكان حكيمُ بنُ جبلة رجلاً لصًا، وعندما كانت تعودُ جيوش الجهادِ إلى البصرة، كان حكيمٌ يتخلَّفُ عنها، ليسعى في أرضِ فارسَ فسادًا، ويُغيرَ على أرضِ أهلِ الذمة، ويَعتديَ على أرضِ المسلمين، ويأْخُذَ منها ما يشاء !!

فشكاهُ أهلُ الذمة والمسلمون إلى عثمان، فكتبَ عثمانُ إلى عبدِ الله بن عامر، وقال له: احِبسْ حكيمَ بنَ جبلة في البصرة، ولا تتركْه يخرج منها حتى تأنسَ منه رُشدًا !

فحبَسه ابنُ عامر في بيته، وكان لا يستطيعُ أنْ يخرجَ من البصرة.

وبينما كان اللصُّ ابنُ جبلة تحت الإقامة الجبرية في بيته، نزلَ عليه اليهوديُّ عبدُ الله بن سبأ، واستغلَّ ابنُ سبأ زعارة ابنِ جبلة وانحرافَه، وحِقْدَه ولُؤْمَه، فجنَّده لصالحه، وصار ابنُ جبلة هو رجلَ ابنِ سبأ في البصرة !

ابن جبلة زعيم سبئي البصرة

وصار ابنُ جَبَلَة يقدِّمُ لابن سبأ أمثالَه من المنحرفين والموتورين، فيغرسُ ابن سبأ في نفوسهم أفكارَه، ويجنِّدهم لجمعيته السرية !

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

ولما علمَ ابنُ عامر بابن سبأ، استَدْعاه، وقال له: ما أنت؟

قال ابن سبأ: أنا رجلٌ من أهل الكتاب، رغبَ في الإسلام فأَسْلَم، ورغبَ في جوارك فأقامَ عندك!!

قال ابنُ عامر: ماهذا الكلامُ الذي يبلُغُني عنك؟ اخرجْ عني!!

طرد ابن سبأ من البصرة ثم الكوفة

أَخرجَه ابنُ عامر من البصرة، فغادرَها ابن سبأ، بعدَ أنْ ترك فيها رجالاً وأَتْباعًا له، وجعلَ فيها فَرْعًا لحزبه السَّبَئِيِّ اليهودي!

ذهبَ ابنُ سبأ إلى الكوفة، فوجَد فيها رجالاً من المنحرفين، جاهزين لاستقباله، فجنَّدَهم لجماعتِه وحزبه!

مقر ابن سبأ في مصر

ولما علمَ به سعيد بن العاص أخرجَه من الكوفة، فتوجَّه إلى مصر، فأَقامَ فيها، وعشَّشَ فيها وباض، وفرَّخَ فيها وأفسد، واستمالَ أُناسًا هناك من الرُّعاع والبلهاء، ومن الحاقدين والموتورين، ومن العصاة والمذنبين!

وكان من بين هؤلاء اثنانَ من أبناءِ الصحابة ـ مع شديدِ الأَسَف ـ هما: محمدُ بن أبي حذيفة بن عتبة، ربيبُ الخليفة عثمان، وابنُ امرأته.

ومحمدُ بن أبي بكر الصديق، الذي كانت أُخْتُه عائشة رضي الله عنها تغضَبُ منه، وتسمّيه «مُذَمَّمًا» وليس محمّدًا!!

وكان ابنُ سبأ يرتِّبُ الاتصالات السرية بين مقرِّه في مصر، وبين أَتْباعِه في المدينة والبصرة والكوفة، ويتحرَّكُ رجالُه بين هذه البلدان[1]!!

ست سنوات من جهود السبئيين

استمرتْ جهودُ ابنِ سبأ وأعوانِه حوالي ست سنوات، حيث بدؤوا أعمالَهم الشيطانية سنةَ ثلاثين، ونجحوا في آخرِ سنةِ خمسٍ وثلاثين في قتْلِ الخليفة عثمان، واستمرَّ إِفسادُهم طيلةَ خلافةِ عليّ رضي الله عنه!

بدأ السبئيون من الكوفة سنة ٣٣ هـ

قرَّرَ «السبئيّون» أن تكون بدايةُ الفتنةِ في الكوفة ـ بلدِ الفتن

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٢٦ ـ ٣٢٧.

والمؤامرات ـ وحدَّدوا سنةَ ثلاث وثلاثين موعدًا للتحركِ والشَّغَب، وكان والي الكوفة سعيد بن العاص.

وفي يومٍ من أيام سنةِ ثلاث وثلاثين جلسَ سعيدُ بن العاص، في مجلسه العامِ، وحولَه عامةُ الناس، وكانوا يتحدثون ويتناقشون فيما بينهم. فتسلَّلَ هؤلاء الخوارجُ من السبئيّين إلى المجلس، وعملوا على إفساده، وعلى إشعالِ نار الفتنة.

السبئيون يفسدون في مجلس سعيد بن العاص

جرى كلامٌ وحوارٌ في المجلس بين سعيد بن العاص، وبين أحد الحضور، وهو «خُنَيْسُ بنُ حُبَيْشٍ الأسدي»، واختلفا على أمر، وكان سبعةٌ من الخوارجِ أصحابِ الفتنة جالسين: منهم جُنْدُبُ الأزدي، الذي قُتِلَ ابنُه السارقُ من قبل، ومنهم الأشتر النخعي، وابن الكواء، وصعصعة ابن صوحان...

فاستغلَّ أصحابُ الفتنة المناسبة، وقاموا بضرب خُنَيْس الأسدي في المجلس، ولما قامَ أَبوه يساعدُه وينقذُه، ضربوه!

وحاولَ سعيدٌ منْعَهم من الضرب، فلم يمتَنِعوا، وأُغمي على الرجل وابنه من شدةِ الضرب، وجاءَ بنو أسد للأخْذِ بثأر أبنائهم، وكادت الحربُ تقع بين الفريقين، ولكنَّ سعيداً تمكَّن من إِصلاحِ الأمر![1]

ولما علمَ عثمانُ بالحادثة طلبَ من سعيد بن العاص أنْ يعالجَ الموضوع بحكمة، وأنْ يضيِّقَ على الفتنة مااستطاع.

أهل الكوفة يطلبون معاقبة السبئيين

ذهب الخوارجُ المفتونون إلى بيوتهم، وصاروا يَنشرونَ الإشاعات، ويُذيعون الافتراءات والأكاذيب ضدَّ سعيد، وضدَّ عثمان، وضدَّ أهلِ الكوفة ووجوهها!

فاستاءَ أهلُ الكوفة منهم، وطلبوا من سعيدٍ أنْ يعاقِبَهم!

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣١٧ ـ ٣١٨.

فقالَ لهم سعيد: إنَّ عثمان قد نهاني عن ذلك، فإذا أردتم ذلك فأَخْبِروه !

عثمان ينفي السبئين بطلب أهل الكوفة

وكتبَ أشرافُ أهلِ الكوفة وصلحاؤهم إلى عثمان بشأن هؤلاء النفر، وطلبوا منه إخراجَهم من الكوفة، ونفيَهم عنها، فهم مفسدون مخرِّبون فيها !!

أمرَ عثمان واليه سعيدَ بن العاص بإخراجهم من الكوفة، وكانوا بضعةَ عشر رجلاً، وأَرسلهم سعيدٌ إلى معاويةَ في الشام بأَمْر عثمان !

وكتبَ عثمانُ إلى معاوية بشأن هؤلاء، فقال له: إنَّ أهلَ الكوفة قد أَخْرَجوا إليك نفرًا خُلِقوا للفتنة، فَرُعْهُمْ وأَخِفْهُم، وأَدِّبْهم وأَقِمْ عليهم، فإن آنَسْتَ منهم رُشْدًا فاقْبَلْ منهم.

ومن الذين تَمَّ نفيُهم إلى الشام: الأشترُ النخعي، وجندبُ الأزدي، وصعصعة بن صوحان، وكميل بن زياد، وعمير بن ضابىء، وابن الكواء.

السبئيون منفيون عند معاوية

أقامَ القومُ عند معاوية أيامًا، وجرتْ بينه وبينهم مناقشاتٌ ومحاورات حادةٌ، أَغْلَظوا له فيها القول، فلم يستقيموا، ولم يتراجَعوا عما هم عليه، وكيفَ يتراجعون وهم موتورون حاقدون، أعضاءٌ في عصابةِ عبدِ الله بن سبأ اليهودي ؟[1]

وكتبَ معاويةُ إلى عثمان بشأنهم، فأذن له عثمان في تركهم يذهبون حيث شاؤوا، لأن عددهم قليل، ولاخطرَ منهم.

ماذا قال معاوية لعثمان عنهم

ومما قاله معاوية عنهم في رسالته لعثمان: إنه قدمَ عليَّ أَقوام، ليست لهم عقولٌ ولا أديان، أَثْقَلَهم الإسلام، وأَضْجَرَهم العدل، لا يُريدونَ الله بشيء، ولا يتكلَّمون بحجة، إنما همُّهم الفتنة، وأموالُ أهلِ الذمة،

---

(١) انظر بعض هذه المحاورات في تاريخ الطبري ٤: ٣١٩ ـ ٣٢٠.

وإن اللهَ مبتليهم ومختبرُهم، ثم فاضحُهم ومُخزيهم.

وليسوا بالذين يُؤَثِّرون بأحد، إلاّ إذا اجتمعَ إليهم غيرهم، فَانْهَ سعيدَ بن العاص عنهم، فإنهم ليسوا أكثرَ من مشاغبين، لا يضرّون ولا يؤثّرون !!

معاوية ينصح السبئيين قبل الإفراج عنهم

وقبلَ أن يفرجَ معاويةُ عنهم، جَمَعَهم، وكلَّمَهم ونَصَحهم، وكان مما قاله لهم: إني قد أذنْتُ لكم، فاذهَبوا حيث شئتم، وإن اللهَ لا ينفعُ بكم أَحَدًا، ولايضرُّه، ولستم رجالَ منفعةٍ ولا مضرَّة، وما أنتم إلا رجالُ شَغَب.

فإن أردتم النجاةَ فالْزَموا جماعتكم، وليسَعْكُمْ ما وسعَ الآخرين، ولا يبطرَنَّكم الإنعام، فإنَّ البطرَ لا يُصيبُ الأخيار !

وإنَّ اللهَ ذو سَطَوات وَنَقْمات، يمكُرُ بمن مكَرَ به، فلا تتعرَّضوا لأمرٍ وأنتم تعلمون من أنفسكم غيرَ ما تُظْهِرون، وإن اللهَ لن يترككُم حتى يختبرَكُم، ويُبدي للناس سرائرَكم! وقد قالَ الله:

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[1] [العنكبوت: ١ـ٢].

لما خرج المتآمرون من دمشق قالوا: دَعوا العراق والشام، ولا تعودوا للكوفة لئلا يشمتَ الناسُ بكم. ولكن اذهبوا إلى الجزيرةِ ـ وهي الواقعةُ بين الفرات ودجلة ـ.

السبئيون عند عبد الرحمن بن خالد في الجزيرة

وكان والي الجزيرة وحمص هو «عبد الرحمن بن خالد بن الوليد»، فلما سمع بهم، استدْعاهم، وكلَّمَهم كلامًا شديدًا، وكان مما قاله لهم: يا آلةَ الشيطان: لا مَرْحَبًا بكم ولا أهلاً ! لقد رجعَ الشيطانُ محسورًا خائبًا، وأنتم مازلتم نشيطونَ في الباطل ! خَسَّرَ اللهُ عبدَ الرحمن إن لم يؤدِّبْكم

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٢٠ـ٣٢١.

ويُخْزِكم، يامعشَرَ مَن لاأدري مَنْ أنتم: أَعربٌ أم عجم، لن تقولوا لي كما كنتم تقولون لسعيدٍ ومعاوية!

أنا ابنُ خالد بن الوليد، أنا ابنُ مَنْ قد عجمَتْه العاجمات، أنا ابنُ فاقىءِ الرِّدّة، والله لأذلّنّكم.

ابن خالد يعاملهم بمنتهى الحزم والشدة

وأقامهم عبدُ الرحمن بن خالد عنده شهرًا كاملاً، وعامَلَهم بمنتهى الحزم والشدة، ولم يَلِنْ معهم كما لانَ سعيدٌ ومعاوية، وكان إذا مشىٰ مشوا معه، وإذا ركب ركبوا معه، وإذا غزا غَزَوْا معه، وكان لا يَدَعُ مناسبةً إلاّ ويذلُّهم فيها.

وكان إذا قابلَ زعيمَهم «صعصعةَ بن صوحان» يقول له يا ابن الخطيئة: هل تعلَمُ أنَّ مَنْ لم يصلحْه الخيرُ أصلَحَه الشر! وأنَّ مَنْ لم يصلِحْه اللينُ أصلحَتْه الشدة!

وكان يقول لهم: لماذا لاتردّون عَلَيَّ كما كنتم تردّون على سعيدٍ في الكوفة، وعلى معاويةَ بالشام؟ لماذا لاتخاطبونني كما كنتم تخاطبونَهما؟؟

ونفعَ معهم أسلوبُ عبد الرحمن بن خالد، وأخرسَهم حزمُه وشدتُه وقسوتُه، وأَظهروا له التوبةَ والندم.

الأشتر النخعي عند عثمان لإظهار توبة السبئيين

وقالوا له: نتوبُ إلى الله ونستغفرُه، أَقِلْنا أقالَكَ الله، وسامِحْنا سامَحَك الله!

بقيَ القومُ في الجزيرة عند عبد الرحمن بن خالد، وأرسلَ عبدُ الرحمن أحدَ زعمائهم وهو الأشترُ النَّخْعي إلى عثمان، ليخبَره بتوبتِهم وصَلاحِهم، وتراجُعِهم عما كانوا عليه من الفتنة.

فقال عثمانُ للأشتر: احْلُلْ أنتَ ومَنْ معك حيث شئتم، فقد عفوتُ عنكم.

قال الأشتر: نريدُ أنْ نبقى عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وذكَرَ له من فضْلِ عبد الرحمن وحَزْمه.

فأقاموا عندَ عبد الرحمن في الجزيرة مدة، أَظْهَروا فيها التوبةَ والاستقامةَ والصلاح !![1].

سكوت سبئيي الكوفة إلى حين

سكتَ أصحابُ الفتنة في الكوفة إلى حين، وكان هذا في شهور سنةِ ثلاث وثلاثين، بعد ما تمَّ نفيُ رؤوسِ الفتنة إلى معاوية في الشام، ثم إلى عبد الرحمن بن خالد.

فرأى أَصحابُ الفتنة في الكوفة أنَّ المصلحة تقتضي أنْ يسكتوا إلى حين !!

أما «السبئيّون» في البصرة بزعامة حَكيم بن جَبَلَة، فقد كادوا ضدَّ أهلِ الفضل فيها، وتآمروا وكَذَبوا عليهم !

سبئيو البصرة يفترون على أشج عبد القيس

كان من أَفضلِ وأَتقى أهلِ البصرة «أَشَجُّ عَبْدِ القيس» واسمه «عامِرُ بن عبد القيس»، وكان زعيمًا لقومه، وقد وفدَ على رسولِ الله ﷺ، وتعلَّمَ منه، ومدحَهُ رسولُ الله ﷺ بقوله:

إنَّ فيك خصلتَيْن يحبُّهما اللهُ ورسولُه: الحِلْمُ والأناة !

وكان عامرُ بن عبد القيس من قادةِ الجهاد في القادسية وغيرِها، وكان مقيمًا في البصرة، وكان على قسطٍ كبيرٍ من الصلاح والتقوى.

فكذَبَ الخارجون عليه، واتَّهموه بالباطل !!، فسيَّره عثمانُ إلى معاوية بالشام، ولما كلَّمه معاوية وعامَلَه، عرف براءَتَه وصِدْقَه، وكَذِبَ الخوارجِ وافتراءَهم عليه.

وكان الذي تولّى الكذب على عامر بن عبد القيس هو «حُمْرانُ بن أَبان» وهو رجلٌ عاصٍ بدون دين، حيث تزوَّجَ امرأَةً في أثناء عدَّتِها !

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٢١ـ ٣٢٢.

ولما علم عثمانُ بذلك فرَّقَ بينهما، وضربَه ونكلَ به لمعصيتِه، ونفاهُ إلى البصرة، وهناك التقى مع زعيم «السبئيين» فيها، اللصِّ حكيمِ بن جبلة[1].

ابن سبأ يجدد سنة أربع وثلاثين للتحرك

وفي سنةِ أربعٍ وثلاثين ـ السنة الحادية عشرة من خلافة عثمان ـ أَحكمَ عبدُ الله بن سبأ اليهودي خطتَه، ورسمَ مؤامرتَه، ورتَّبَ مع جماعته السبئيّين الخروجَ على الخليفة و ولاتِه.

اتصَّل ابنُ سبأ من وَكْرِ مؤامرته في مصر بالشياطين من حزبه في البصرة والكوفة والمدينة، واتفقَ معهم على تفاصيلِ الخروج، وكاتَبَهم وكاتَبوه، وراسَلَهم وراسَلوه !

وكان ممن كاتَبَهم وراسَلَهم، السبئيّون في الكوفة، وقد كان بضعة عشر رجلاً منهم منفيّين في الشام، ثم في الجزيرة عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وبعد نفي أولئك الخارجين، كان زعيمُ السبئيّين الحاقدين في الكوفة يَزيدَ بْنَ قيس.

ابن سبأ يحرك سبئيي الكوفة

وخَلَت الكوفةُ في سنة أربعٍ وثلاثين من وجوهِها وأَشرافِها، لأنهم توجَّهوا للجهادِ في سبيل الله، ولم يبقَ إلاّ الرّعاع والغوغاء، الذين أَثّر فيهم السبئيّون والمنحرفون، وشحَنوهم بأفكارِهم الخبيثة، وهيَّجوهم ضدَّ والي عثمان على الكوفة سعيدِ بن العاص.

قال الطبري عن أوضاع الكوفة سنةَ أربعٍ وثلاثين: وفدَ سعيدُ بن العاص إلى عثمان في سنة إحدى عشرة من إمارةِ عثمان.

أوضاع أهل الكوفة عند تحرك السبئيين

وقد بعث سعيدٌ قبلَ خروجه الأشعثَ بن قيس إلى أذربيجان، وسعيدَ بن قيس إلى الري، والنُّسَيْرَ العجلي إلى همذان، والسّائِبَ بن الأقرَع إلى أصبهان، ومالكَ بن حبيب إلى ماه، وحكيمَ بن سلامة إلى

---

(1) انظر تفاصيل افتراءات حمران بن أبان والسبئيين ضد عامر بن عبد القيس في تاريخ الطبري ٤ : ٣٢٧ ـ ٣٢٨.

الموصل، وجريرَ بن عبد الله إلى قرقيسيا، وسلمانَ بن ربيعة إلى الباب، وعُتَيْبَةَ بن النّهّاس إلى حلوان.

وجعلَ على الحرب القعقاعَ بن عمرو التميمي، وكان نائبُه بعد خروجه عَمْرَو بن حُرَيْث.

وبذلك خَلَت الكوفةُ من الوجوه والرؤساء، ولم يَبْقَ فيها إلا منزوعٌ أو مفتون![1].

خروج يزيد بن قيس على رأس السبئيين فيها

في هذا الجوِّ خرجَ زعيمُ السبئيّين في الكوفة «يَزيدُ بن قيس» بعد اتفاقٍ مع شيطانِه ابنِ سبأ في مصر، وخرجَ معه السبئيّون الذين انضمّوا إلى جمعيةِ ابن سبأ السرية، والغوغاءُ الذين تأثّروا فيها.

قال الطبري في أولِ خروج عليٍّ للسبئيّين سنةَ أربعٍ وثلاثين:

القعقاع بن عمرو يقضي على التحرك الأول

خرجَ يزيدُ بن قيس في الكوفة، وهو يريد خلْعَ عثمان، فدخلَ المسجد، وجلسَ فيه، وتجمّعَ عليه في المسجد السبئيّون، الذين كان ابنُ السوداء يكاتبُهم من مصر، ولما تجمعَ الخارجون في المسجد، علم بأمرهم القعقاعُ بن عمرو أَميرُ الحرب، فألقى القبضَ عليهم، وأَخذَ زعيمَهم يزيدَ بن قيس معه.

ولما رأى يزيدُ شدةَ القعقاع ويقظَتَه وبصيرتَه، لم يجاهِرْه بهدفِهم وخطَّتهم في الخروج على الخليفةِ عثمان وخلْعِه، وأظهرَ له أن كلَّ ما يريدُه هو وجماعتُه عزلَ الوالي سعيدَ بن العاص، والمطالبةَ بوالٍ آخر مكانَه.

وهذا أمْرٌ هَيِّن، وطالَبَ به أُناسٌ سابقون قبلهم، فاستُجيب لطلبهم، ولذلك أطلق القعقاعُ سراحَ الجماعة لما سمعَ كلامَ يزيد.

ثم قال ليزيد: لا تجلسْ لهذا الهدفِ في المسجد، ولا يجتمعْ عليك

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٣٠ـ٣٣١.

أحد، واجلسْ في بيتك، واطلبْ ماتريدُ من الخليفة، وسيحققُ لك ذلك ![1]

وماكان أميرُ الحرب القعقاعُ بن عمرو يعلمُ أنَّ هناك تنظيمًا سرّيًا خبيثًا، وما هؤلاء إلا عناصرُ فيه، وأنَّ هدفَهم الأساسي هو خلعُ الخليفة ! ولو كان يعلمُ ذلك عنهم، لكان لهم عنده حسابٌ آخر، وعقوبةٌ أشدّ !!

يزيد بن قيس يكاتب السبئيين المنفيين عند ابن خالد

جلسَ يزيدُ بن قيس في بيته، واضطرَّ إلى تعديلِ خطته في الخروج والفتنةِ والثورة.

واستأجرَ هذا السَّبَئِيُّ «يزيدُ بن قيس» رجلاً، وأعطاه دراهم وبغلاً، وأمره أنْ يذهبَ بسرعةٍ وكتمان إلى السبئيّين من أهل الكوفة، الذين نفاهم عثمانُ إلى الشام ثم إلى الجزيرة، وهم مقيمون عند عبد الرحمن بن خالد هناك، وقد أظْهَروا له التوبة والندم، حتى إنَّ زعيمَهم الأشتَر النخعي ـ وهومالِكُ بْنُ الحارث النخعي ـ قد ذهبَ إلى عثمان، وأظْهَرَ له توبتَه هو وجماعته !

وقال يزيدُ لإخوانِه الشياطين في كتابه: إذا وصلكم كتابي هذا فلا تَضَعوه مِن أَيديكم، حتى تأتوا إلَيّ، فقد راسَلْنا إخوانَنا في مصر ـ وهم السبئِيّون هناك ـ واتفَقْنا معهم على الخروج !

التحرك الثاني للسبئين في الكوفة

ولما قرأ الأشترُ كتابَ يزيد خرج فورًا للكوفة، ولحقَ به إخوانُه الخارجون، وفَقَدهم عبدُ الرحمن بن خالد فلم يجدهم، فأرسلَ جماعةً في طلبهم، فلم يدركوهم.

اتصلَ يزيدُ بن قيس بجماعتِه مرةً ثانية، واتصلَ جماعَتُه بالرعاع والغوغاء في الكوفة، وتجمَّعوا في المسجد، ودخلَ عليهم الأشتَرُ

---

(١) تاريخ الطبري ٤ : ٣٣١.

النخعي في المسجد، وعملَ على إثارتِهم وتهييجهم، ودفْعِهِم للثورة والخروج !

وكان مما قالَ لَهم:

الأشتر النخعي يكذب على عثمان

لقد جئتكم من عندِ الخليفة عثمان، وتركْتُ واليكم سعيدَ بن العاص عنده، وقد اتفَق عثمان وسعيد على إنقاصِ عطائكم، وخفْضِ أموالكم من مئتي درهم إلى مئةِ درهم !

وقد كذَبَ الأشترُ في ماقال، ولم يتحدثْ عثمانُ وسعيدٌ بذلك، ولكنه أسلوبُ السبئيّين في نشْرِ الأكاذيب والافتراءات لتهييج العامة.

استخَفَّ الأشترُ بكلامه الناسَ الذين في المسجد، وأثَّرَ في الرعاعِ والغوغاء وهيَّجَهم، وكانتْ ضجةً كبيرةً في المسجد.

وصار يكلمه عقلاءُ المسلمين من وجوهِهم وأشرافِهم، وصالِحيهم وأتقيائهم، كأبي موسى الأشعري وعبدِ الله بن مسعود، والقعقاع بن عمرو، فلم يسمعْ منهم، ولم يستجبْ لهم !

السبئيون يثيرون غوغاء الكوفة

وصاحَ يزيدُ بن قيس في الغوغاء والرعاع داخلَ المسجد وخارجَه، وقال: إني خارجٌ إلى طرق المدينة، لأمنعَ سعيدَ بن العاص من دخول الكوفة، ومَنْ شاءَ أنْ يخرجَ معي لمنعِ سعيد من الدخول، والمطالبةِ بوالٍ مكانه، فليفعل !!

فاستجابَ لندائِه السبئيّون والرّعاع، وخرج معه حوالي ألفٍ منهم !![1].

لما خرجَ السبئيّون والغوغاءُ طلباً للفتنة والثورة، بقي في المسجد وجوهُ المسلمين وأشرافُهم وحلماؤُهم.

فصعدَ المنبرَ نائبُ الوالي «عمرو بن حُرَيْث» وطالبَ المسلمين

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٣١.

بالأخوةِ والوحدة، ونهاهم عن التفرقِ والاختلاف والفتنةِ والخروج، ودعاهم إلى عدمِ الاستجابةِ للخارجين المتمردين !

القعقاع بن عمرو يرى قتل قادة السبئيين

فقال له القعقاع بن عمرو: إنك لا تستطيعُ أن تواجِهَ هؤلاء، لأن السيل لا يُردُّ، ونهرُ الفرات لا يردُّه أحدٌ عن مجراه، وهؤلاء غوغاءٌ أصحابُ فتنة، ولا يَقضي على فتنتِهم إلا ضربُ رقابهم وقتْلُهم بالسيوف !!

وستكونُ فتنٌ وسفكُ دماء، وسيدفعُ هؤلاء ثمنَ تمرُّدهم وخروجهم، فاصبر، ودعهم حتى يأتي الوالي !

فقال عمرو بن حُريث: أَصْبِرُ حتى يأتي الوالي. وذهبَ إلى بيته !

يزيد بن قيس يخرج بألف من الغوغاء إلى «الجرعة»

سارَ يزيدُ بن قيس ومعه الأَشْتَرُ بالألف من الخارجين إلى مكانٍ على طريق المدينة، يسمى «الجَرَعَة» !

وبينما كانوا معسكرين في الجَرَعة، طلعَ عليهم سعيدُ بن العاص عائداً من عند عثمان.

فقالوا له: عُدْ من حيثُ أتيت، ولا حاجةَ لنا بك، ونحن نمنعُك من دخول الكوفة، وأَخْبِر عثمان أننا لا نريدُ والياً علينا، ونريدُ من عثمان أن يجعل أبا موسى الأشعريَّ والياً مكانك !!

السبئيون يمنعون سعيد بن العاص من دخول الكوفة

قال لهم سعيد: لماذا خرجتُم ألفاً لتقولوا لي هذا الكلام؟ كان يكفيكم أن تبعثوا رجلاً إلى أمير المؤمنين بطلبكم، وأن توقفوا لي رجلاً في الطريق ليخبرَني بذلك، وهل يخرجُ ألفُ رجلٍ لهم عقولٌ لمواجهة رجلٍ واحد[1] ؟

رأى سعيدُ بن العاص أن من الحكمة عدمَ مواجهتهم، وعدمَ تأجيجِ نارِ الفتنة، بل محاولة إخمادها، أو تأجيل اشتعالها على الأقل، وهذا كان

---

(١) تاريخ الطبري ٤ : ٣٣٢.

رأي أبي موسى الأشعري وعمرو بن حريث والقعقاع بن عمرو في الكوفة.

سعيد بن العاص يخبر عثمان عن أول تمرد للسبئيين

عاد سعيدُ بن العاص إلى عثمان وأخبره خبرَ القوم الخوارج.

قال له عثمان: ماذا يريدون؟ هل خَلَعوا يداً من طاعة؟ وهل خَرجوا على الخليفة؟ وأَعلنوا عَدمَ طاعتِهم له؟

قال له سعيد: لا. لقد أَظهَروا أنهم لا يريدونني والياً عليهم، ويريدون والياً آخر مكاني!

قال له عثمان: من يريدون والياً؟

قال سعيد: يريدون أبا موسى الأشعري.

عثمان يعيّن أبا موسى الأشعري واليا على الكوفة

قال عثمان: قد عَيّنّا وأثبتنا أبا موسى والياً عليهم، ووالله لن نجعلَ لأحدٍ عُذراً، ولن نتركَ لأحدٍ حُجّة، ولَنَصْبِرَنّ عليهم كما هو مطلوب منا، حتى نعرفَ حقيقةَ مايريدون!!

وكتب عثمان إلى أبي موسى بتعيينه والياً على الكوفة[1].

وقبلَ وصولِ كتاب عثمان بتعيين أبي موسى والياً، كان في مسجدِ الكوفة بعض أصحابِ رسول الله ﷺ، وقد حاولوا ضبطَ الأمور، وتهدئة العامة، ولكنهم لم يتمكّنوا من ذلك، لأن السبئيّين والحاقدين سيطروا على الرعاع والغوغاء، وهيَّجوهم، فلم يعودوا يسمعونَ صوتَ عقلٍ أو منطق.

حوار بين أبي مسعود وحذيفة بن اليمان حول التمرد

وكان في مسجدِ الكوفة وقتَ التمرد والثورة والفتنة اثنان من أصحاب رسول الله ﷺ، هما: حذيفةُ بن اليمان، وأبو مسعود عقبةُ بن عمرو الأنصاري البدري.

كان أبو مسعودٍ غاضباً لتمرُّد وثورة الرعاع، وخروجِهم إلى الجرعة،

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٣٢.

وعزلِهم الوالي سعيد، وعصيانهم له، وهي أول مرة تحصل، بينما كان حذيفة بعيدَ النظر، يتعاملُ مع الحدثِ بموضوعيةٍ وتفكير.

قال أبو مسعود لحذيفة: لن يعودوا من الجَرَعَة سالمين، وسيرسلُ الخليفةُ جيشاً لتأديبِهم، وستسفك فيها دماءٌ كثيرة!

رأي حذيفة بن اليمان في حركة السبئيين

فردَّ عليه حذيفة قائلاً: والله سيعودون إلى الكوفة، ولن يكون هناك اشتباك أو حرب، ولن تسفكَ هناك دماء.

وما أعلمُ من هذه الفتن اليوم شيئاً، إلا وقد علِمْتُه من رسول الله ﷺ وهو حيّ، حيث أخبرَنا عن هذه الفتن التي نراها اليوم قبل وفاته.

ولقد أخبرَنا رسول الله ﷺ أنَّ الرجلَ يصبحُ على الإسلام، ثم يمسي وليس معه من الإسلام شيء، ثم يقاتلُ المسلمين، فيرتدُّ وينكصُ قلبه، ويقتلُه الله غداً.

وسيكون هذا فيما بعد!![1]

لقد كان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه متخصِّصاً في علم «الفتن»، وتعامَلَ مع فتن السبئيّين في الكوفة وغيرها، وفقَ ما سمعَه وعلمه من رسول الله ﷺ، واستحضَرَ ما حفظه من تلك الأحاديث، ففهم حقيقةَ ما يجري حوله، ولم يستبْعده ولم يستغربه، وحاولَ الإصلاحَ ما أمكنه!!

أما أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، فقد حاول تهدئةَ الأمور، ونهى الناس عن العصيان. وقال لهم:

أيها الناس: لا تخرجوا في مثل هذه المخالفة، ولا تعودوا لمثل هذا العصيان، اِلْزَموا جماعةَ المسلمين، وعليكم بطاعةِ أولي الأمر، وإياكم والعجلة، واصبروا.

حوار أبي موسى مع السبئيين قبل تعيينه والياً

ولما لم يكن هناك أمير في الكوفة أثناءَ التمردِ والعصيان، فقد جاء

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٣٥.

السبئيّون إلى أبي موسى، وقالوا له: تقدَّمْ فصلِّ بنا!

قال لهم: لا أُصلّي بكم إلا على شرط سمعِكم وطاعتِكم للخليفة عثمان!

قالوا: موافقون، فنحن لعثمان سامعون مطيعون!

وما كانوا صادقين في ذلك، لكنهم كانوا يُخفون أهدافَهم الحقيقية عن الآخرين.

وكان أبو موسى يصلي بالناس إلى أن جاءه كتاب عثمان بتعيينه والياً على الكوفة.

ولما هَدأت الأمورُ في الكوفة إلى حين، في سنة أربعٍ وثلاثين، عادَ حذيفةُ بن اليمان إلى أذربيجان والباب، يقودُ جيوشَ الجهاد هناك، وعادَ العمالُ والولاةُ إلى أعمالهم في مناطق فارس!

كتاب عثمان إلى الخارجين في الكوفة

وقد كتبَ عثمان بن عفان إلى الخارجين من أهل الكوفة كتاباً، يبيِّنُ فيه الحكمة من استجابتِه لطلبهم في عزل سعيد، وتعيين أبي موسى بدله، وهي رسالةٌ ذات دلالاتٍ هامة، وتبيِّنُ طريقة عثمان في مواجهة هذه الفتن، ومحاولته تأجيلَ اشتعالها، ما استطاع، مع علمه اليقيني أنها قادمة، وأنه عاجزٌ عن مواجهتها، فهذا ما علمه من رسول الله ﷺ.

قال لهم عثمان في رسالته:

«أما بعد:

فقد أمَّرتُ عليكم من اختَرْتُم، وأعفيتُكم من سعيد، والله لأفْرُشَنَّ لكم عِرضي، ولأبْذُلَنَّ لكم صبري، ولأستصلِحنَّكم بجهدي، واسألوني كل ما أحببتم، مما لا يُعصى الله فيه، فسأُعطيه لكم، واطلبوا مني أن أُعفيكم من كل ما تكرهون، مما لم يطلبْه الله، فسأعفيكم منه، وسوف أنزل في كل ذلك عند ما أحببتم، وذلك حتى لا يكون لكم عليَّ حجة»!!

رضي الله عن أمير المؤمنين عثمان، ماكان أصلَحه، وأوسعَ صدره،

وكم ظلمه السبئيّون والخارجون الحاقدون، وكذبوا وافتروا عليه !!

عثمان يجتمع مع أهم ولاته ويستشيرهم

وبعدما هدأت الأمور في البصرة والكوفة إلى حين، استدعى عثمان أهمَّ ولاته على البلدان ليستشيرهم، وكان ممن حضر: معاويةُ بن أبي سفيان، وعبد الله بن عامر، وعبد الله بن سعد، وسعيدُ بن العاص، وعمرو بن العاص، رضي الله عنهم.

فلما اجتمع بهم قال لهم: إن لكلِّ امرىء وزراء ونُصَحاء، وأنتم وزرائي ونصحائي، وقد صنع الناسُ ما قد رأيتم، وطلبوا إليَّ أن أعزلَ بعض عمالي، وأَرجعَ عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون، فاجتَهدوا رأيكم وأشيروا عليّ.

ما أشار به عبد الله ابن عامر

فقال له عبد الله بن عامر واليه على البصرة: إنهم يفعلون ذلك لأنهم غير مشغولين بالجهاد، وهم متفرغون للإشاعات والفتن، يملؤون بها أوقاتَهم، ويُشْغلون بها أنفسَهم.

أَرى لك ياأمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد الأعداء، يُشغلُهم عنك، وأن تُبقيهم في المغازي، وأن توقفهم على الثغور، فلا يكونُ همُّ أحدهم إلا نفسَه، ولا يفكِّر إلا في دابَّته وسلاحِه وقتالِه، وإزالةِ قمْلِ فروتِه !!

بعد ما سمعَ عثمان كلامَ ابن عامر، أقبلَ على سعيد بن العاص، وقال له: ما رأيُك ؟

وما أشار به سعيد ابن العاص

قال سعيد: ياأميرَ المؤمنين احسِمْ عنك الداء، واقطع عنك الذي تخاف، واعمل برأيي تُصِبْ !

قال له: ما هو رأيُك ؟

قال سعيد: لكل قومٍ قادة، وإذا هلك قادتُهم تفرَّقوا، وأرى أن تقتل قادة هؤلاء الخارجين والمشاغبين، وعندما تقتلُ قادتهم سيتفرَّقون، ولا يجتمع لهم أمر !!

تعليق عثمان على رأي سعيد

وعلَّق عثمان على رأي سعيد بقوله: إنَّ هذا هو الرأي، لولا ما فيه !!

أي: هذا رأيٌ صائب، وحازم، وقامعٌ للفتنة، ولكن خطورتَه هي الإقدام على قتل أناسٍ مسلمين في الظاهر، فكيفُ يقتلُ الخليفة مسلمين من رعيته ؟

أليس جوابُ عثمانَ لسعيد بن العاص قريباً من جوابِ نبيِّه محمدٍ ﷺ عندما أشار عليه عمر رضي الله عنه، بقتْل زعيم المنافقين عبدِ الله بن أُبيّ، عندما فرَّقَ المسلمين في غزوة بني المصطلق ؟

قال له عمر: يارسول الله: دعْني أضربْ عنقَه !

قال له رسول الله ﷺ: سيقول الناس: إن محمداً يقتلُ أصحابَه !!

وكأنَّ عثمان يقول: سيقول الناس: إن الخليفةَ عثمان يقتلُ المسلمين من رعيته !!

ما أشار به معاوية وابن أبي السرح

ثم سأل عثمان معاويةَ عن رأيه، فأشارَ عليه معاوية أن يعيد عمالَه إلى بلدانهم، وأنْ يضبطوا الأمورَ بحزم.

وقال له: وأنا ضامنٌ لك أهل الشام.

وقال عبد الله بن سعد بن أبي السرح: إن الناس أهل طمع، فأَعطهم من هذا المال تعطِف عليك قلوبهم !!

كلام غريب لعمرو بن العاص

وقال عمرو بن العاص كلاماً عجيباً لعثمان: أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون، فاعتزِم أن تعتدل، فإن أبيتَ فاعتزِم أن تعتزل، فإن أبيت فاعتزم عَزْماً، وامضِ قُدُماً !!!

وقد تعجَّب عثمان من كلام عمرو بن العاص، وما درى أن عمراً ما كان جادّاً في قوله، وأن دافعَه في ذلك هو دهاء، ليوصِلَ رسالةً إلى الآخرين !

عمرو يبيّن لعثمان هدفه من الكلام

ولهذا ما أَن انتهى الاجتماع، وتفرَّق القوم، حتى جاء عمرو إلى عثمان، وقال له: ياأمير المؤمنين، أنت أَعزُّ عليَّ من ذلك، ولكن علمتُ أن قوماً بالباب يسمعون كلامَنا لك، وإشارتَنا عليك، وسيبلغُ كلامُنا

للناس، فأحببت أن يبلَغهم قولي لك، ليثِقوا بي، ويعلموا أني ضدَّك، وعندها قد أعرف بعضَ ماعندهم من مكائد، فأقودُ لك خيراً، أو أدفعُ عنك شراً[1]!!

رضي الله عنك ياعمرو بن العاص، ما أبعدَ نظرك، وأكثرَ دهاءَك !!

أعادَ عثمانُ عمالَه وولاته إلى بلدانهم، وكان هذا في سنة أربع وثلاثين، وأخذَ بالمناسب مما أشاروا به عليه !

اتصالات ابن سبأ مع سبئيي الكوفة والبصرة

ولكن السبئيّين استمروا في نشر الإشاعات والأكاذيب والافتراءات، وكانوا يتكاتبون ويتراسلون فيما بينهم، وكانت مراكزُ قوتهم ثلاثة: مصر مقرُّ عبد الله بن سبأ، والكوفة، وزعيمهم فيها يزيد بن قيس، والأشتر النخعي، والبصرة، وزعيمُهم فيها اللصُّ الفاتك حكيم بن جبلة.

ووصلت الشكاوى إلى عثمان، فجمع مستشاريه من أهل الحلِّ والعَقْدِ في المدينة، وقال لهم: أنتم شركائي، وشهودُ المؤمنين، فأَشيروا عليّ.

مستشارو عثمان يشيرون بلجان تفتيش

قالوا له: نشيرُ عليك أن تبعث إلى الأمصارِ رجالاً من المدينة، ممن تثقُ بهم، ليطَّلعوا على أحوال المسلمين، ويقفوا على أخبارهم، ويتعرَّفوا على حقيقة ما ينقلُ عن الولاة والأمراء، وينشر على الناس من كلام وروايات، ويتأكَّدوا من صحة ذلك !

لقد أراد مستشارو عثمان من كبارِ الصحابة أن لا يكتفيَ عثمان بتقارير الولاة والأمراء، وإنما يتصل بالناس والعامة في الأمصار، بأن يرسل رجالاً أُمناءَ للتفتيشِ والتحقيق والتدقيق.

وقد أَخذَ عثمان بهذا الرأي الوجيه، وأَرسلَ رجالاً موثوقين إلى مختلف البلدان والأمصار والمراكز، في بلاد العرب ومصر والشام

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٣٣ ـ ٣٣٥.

والعراق وفارس ! ليَجمعوا له الأخبار، ويطَّلعوا على أحوال الناس.

وكان ممن أرسلَهم لهذه المهمة التفتيشية:

مفتشو عثمان في الأمصار

محمدُ بن مسلمة الأنصاري، رضي الله عنه، حيث وجَّهه إلى الكوفة !

وأسامةُ بن زيد، رضي الله عنهما، حيث وجَّهه إلى البصرة !

وعمارُ بن ياسر رضي الله عنهما، حيثُ وجهه إلى مصر !

وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما، حيث وجهه إلى الشام[1]!

تقارير المفتشين الإيجابية عن الأمصار

وبعدما قام الموفَدون الرسميّون، بمهماتهم التفتيشية، عادوا لعثمان، إلا عماراً، وقدَّموا تقاريرهم إلى عثمان ومستشاريه، وقالوا: ما أنكَرْنا فيما رأينا شيئاً، ولا أنكر أعلامُ المسلمين في تلك البلدان شيئاً، والولاةُ عادلون مع الرعية، ويؤدون واجباتهم لهم، ويقومون عليهم، وبلدانُ المسلمين في خير.

والنتائجُ التي خرجَ بها الصحابة الموفدون الصادقون تُكذِّبُ الإشاعاتِ والافتراءات والأكاذيب التي كان يؤلِّفها ويختلقها ويضعها السبئيّون، ويزعمون أنها منتشرة في بلاد المسلمين، عن ظلمِ الولاة وجرائمهم، ومعاصيهم، وإهمالهم أمورَ الرعية !!!

تأخر عمار بن ياسر في مصر

عادَ الموفدون إلا عمارَ بن ياسر رضي الله عنه، حيث استبطأَه عثمان ومستشاروه، وظنوا أنه قد قتل !!

تأثر عمار بدعايات السبئيين في مصر

وبعد حين وصل إلى عثمان كتابٌ من عبد الله بن سعد بن أبي السرح واليه على مصر، يخبره فيه أن قوماً من المشاغبين والخارجين قد استمالوا عمار بن ياسر، وأثَّروا عليه !!

منهم عبد الله بن سبأ ـ ابن السوداء ـ وخالد بن ملجم، وسودان بن

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٤١.

حمران، وكنانة بن بشر[1] !

وتألم عثمان ومستشاروه من فعل عمار بن ياسر رضي الله عنه، وتأثُّرِه بكلام هؤلاء الخوارج، واستمالتهم له !!

وقد كان عمارٌ غاضباً على عثمان رضي الله عنهما لأمرٍ جرى من عمار، فأدَّبه عثمان، فلم ينسَه عمار، ولكنَّ عثمان نسيه، وجعلَ عماراً محلَّ ثقته، فأرسله بهذه المهمة العظيمة إلى مصر، ولكن السبئيين أثروا فيه، وأثاروا كوامنَ نفسه، فانطلى الأمر عليه، وأثَّر كلامهم فيه، رضي الله عنه.

سبب غضب عمار على عثمان

وسببُ ضربِ عثمان لعمار أنه جرى خلاف بين عمار بن ياسر وبين عباسِ بن عتبةِ بن أبي لهب، فحملَ عمارٌ على عباس، وعَركه وضربه، ثم تقاذفا، فقذف عباسٌ عماراً، وقذف عمارٌ عباساً.

وقد أقام عثمان على كلٍّ منهما حدَّ القذف، وضرَبَهما، ونسيَ الأمر، وبعث عماراً إلى مصر ليكونَ موفَدَه الخاص.

واستغلَّ السبئيّون هذه الحادثة، وذكَّروا عماراً بها، واستمالوه غفر الله له.

أرسلَ عثمانُ إلى عبد الله بن سعد، وطلب منه أن يأتوا بعمار إلى المدينة مكرَّماً، وأكرموا عماراً، واستقدموه للمدينة.

عثمان يعاتب عماراً على فعله

ولما دخلَ عمارٌ على عثمان، عاتَبه على ما حصل منه في مصر، وكان مما قاله له: ياأبا اليقظان قذفْتَ ابن أبي لهب بعد أن قذفك، فأقمتُ الحدَّ عليكَ وعليه، أَغَضِبتَ عليَّ لأني أخذتُ لك بحقِّكَ منه، وأخذتُ له بحقِّه منك !

ثم قال عثمان: اللَّهم إني قد وهبتُ ما بيني وبين أمتي من مظلمة،

---

(1) تاريخ الطبري ٤: ٣٤١.

واللهم إني أتقرَّب إليك بإقامةِ حدودك على كل أحد، ولا أُبالي !

أُخرجْ عني ياعمار[1] !

توجيه موقف عمار وعثمان

وهل يلامُ عثمانُ الخليفة لضربه وتأديبه لأحد أفرادِ الأمة، ولو كان صحابياً جليلاً كعمار بن ياسر رضي الله عنه ؟ ألم يضربْ عمر بن الخطاب بالدرة صحابةً أجلاء تعزيراً وتأديباً لهم كعمرو بن العاص، وسعد بن أبي وقاص، ومعاوية، وأُبيّ بن كعب ؟

وهل نريد من عمار أو غيرِه من الصحابة الكرام أن يكونوا معصومين من المآخذ والمعاصي ؟ مع أنه ليس عندنا أحدٌ معصومٌ إلا رسول الله ﷺ !!

من الممكن والجائزِ أن يُذنبَ ويُخطىءَ عمار، وغيرُه، من الصحابة، ومن حق أميرِ المؤمنين أن يعاقبَ المخطىء، وأن يؤدِّب المخالف، سواء كان عمراً أو عثمان !!!

عمار كأبي ذر لم يكتشف حقيقة السبئيين

أما تأثُّر عمار بن ياسر بدعاية السبئيّين، فلأنه لم يعرفْ حقيقة أهدافهم، ثم لأنه لم يتعامل مع شبهاتهم وافتراءاتهم ببُعْدِ نظرٍ وصواب رأي، وإنما أحسنَ الظنَّ بهم وبكلامهم.

لقد تأثَّر قبله الصحابيُّ الصادق أبو ذر الغفاري رضي الله عنه بكلام اليهودي عبد الله بن سبأ، لما كلَّمه في الشام، وحمله على المحمل الحسن !

ولقد كان الصحابة الكرام عليهم الرضوان يتفاوتون في نفاذِ بصيرَتهم، وعمقِ فكرِتهم، وسَعةِ أفقهم، وصدقِ فراستهم، وهذا لا يُعيبُهم ولا يُنقِصُ أقدارَهم.

وشتانَ بين موقف أبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر من دعايات

---

(١) انظر قصة عثمان مع عمار في العواصم من القواصم لابن العربي تحقيق محب الدين الخطيب: ٦٤ ـ ٦٦.

اليهودي ابن سبأ، وبين موقف أبي الدرداء وعبادة بن الصامت من نفس ذلك اليهودي !! اللَّذينِ اكتشفا يهوديَّته، رضي الله عن جميع الصحابة !!

اجتماع عثمان مع الولاة بعد حج سنة أربع وثلاثين

بعدما وقف عثمان على حقيقة الوضع في الأمصار والبلدان، دعا عمالَه وولاته إلى الاجتماع به، بعد موسم حج سنة أربع وثلاثين.

وكان ممن قدم عليه معاويةُ أميرُ الشام، وعبد الله بن عامر أمير البصرة، وعبد الله بن سعد أمير مصر وآخرون.

واستشار عثمانُ الولاة الذين قدموا عليه، وأشركَ معهم في المشورة عمرو بن العاص واليه السابق على مصر، وسعيد بن العاص واليه السابق على الكوفة.

ولما اجتمع بهم خاطبهم قائلاً: ويْحَكم، ما هذه الشكوى التي تنتشر عنكم ؟ وما هذه الإذاعةُ التي تذاعُ ضدَّكم ؟ وإني أخشى أن يكونوا صادقين في كلامهم عنكم !!

فقالوا له: ألم تبعث رجالاً من عندكم يحقِّقون في البلدان ؟ ألم يتَّصلوا بالناس ويسألوهم ؟ دون أن نتدخل نحن بهم ؟ ألم ينقلوا لك الأخبار أنَّ الناس في خير، ولم يتقدَّم لهم الناسُ بالشكوى منا ؟ ؟

ثم قالوا له: إن أصحاب الفتنة ما صدقوا ولا بروا، وليس لكلامهم أصل، وما هي إلا إذاعةٌ وإشاعةٌ منهم، تقوم على الكذب والافتراء، لا يحلُّ الأخذ بها[1]!

ثم قال لهم عثمان: أشيروا عليَّ.

سعيد بن العاص يشير بقتل زعماء السبئيين

فقال له سعيد بن العاص ـ وما أروع ما قال ! ـ هذه الشكايات والإذاعات أكاذيبٌ وافتراءاتٌ ملفَّقة، يؤلِّفها ويحبُكُها أناسٌ، في السر، ثم ينشرونها بين الناس، فيسمَعُها منهم قوم من الرعاع، ليسوا من أهل

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٤٢.

الفهم والمعرفة، فيصدقونها، ويتحدثون بها في مجالسهم، ومن ثم تنتشر بين الناس !!

قال له عثمان: ما دواءُ ذلك ؟

قال سعيد: طلبُ هؤلاء القومِ رؤوسِ الفتنة، وصانعي الإشاعات، وملفِّقي الأكاذيب، واكتشافُهم، ثم قتلُهم.

رأي معاوية وابن سعد وابن العاص

وقال له عبد الله بن سعد: خُذ من الناس الحقَّ الذي عليهم وأعطهم الحقَّ الذي لهم !

وقال له معاوية: لقد ولَّيتني أمرَ الشام، وأهلُه قومٌ لا يأتيك عنهم إلا الخير، وباقي البلدان ولاتها أعلمُ بأوضاعها !

وقال عثمان لعمرو بن العاص: ما ترى ياعمرو ؟

قال عمرو: أرى أنَّك قد لِنْتَ لهم، وتراخيتَ عنهم، وزدْتَهم على ما كان يصنع بهم عمر، وقد أكثرتَ لهم من اللين والحلم وسعةِ الصدر.

وأرى أنك تلتزمُ طريقة صاحبيك، أبي بكر وعمر، فتشتدَ في مواضع الشدة، وتلين في مواضع اللين، يجب أن تكونَ الشدةُ مع الذين يريدون بالناس شراً، وأن يكون اللين مع الحريصين على نصحِ الناس !!

عثمان يبين خطته في مواجهة الفتنة

وبعدما انتهوا من كلامهم تكلَّم عثمان رضي الله عنه، مبيِّناً خطته في مواجهة الفتنة، التي هي قادمةٌ لا محالة، وكل ما يفعله إنما هو تأخيرُ حدوثها، لا منعُها !

وكان مما قاله: قد سمعتُ كلَّ ما أشرتم به عليَّ.

ولكلِّ أمرٍ بابٌ يؤتى منه، وإن الفتنة التي نخافها على هذه الأمة كائنة وواقعة لا محالة، ونحن نحاول أن نكفكفَها باللين، والمؤاتاة والمتابعة.

وسنلينُ مع الناس، إلا في حدٍّ من حدود الله، ولا يستطيع أحدٌ أن يعيب حداً منها، أو ينكر علينا لأننا أقمناه.

وليس لأحدٍ حجةٌ عليَّ في حق، وقد علمَ الله أني لم أقصِّر في تقديمِ الخيرِ للناس.

ما طلبه عثمان من الولاة

ووالله إن رحا الفتنةِ لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحرِّكها!!

كَفْكِفوا الناس، وَهَبوا لهم حقوقهم، وسامحوهم واغفروا لهم، ولينوا معهم، أما إذا انتُهِكَت حقوق الله، فلا تُداهنوا فيها!!![1]

طلبَ عثمان من ولاته أن يعودوا إلى أعمالهم، وفقَ ما أعلنه لهم من أسلوبِ مواجهةِ الفتنة، التي كان كلُّ بصيرٍ يرى أنها قادمة!

اقتراحان لمعاوية يرفضهما عثمان

وقبل أن يتوجَّه معاوية بن أبي سفيان إلى الشام، أتى إلى عثمان وقال له: ياأمير المؤمنين: انطلق معي إلى الشام، قبل أن يهجم عليك من الأمور والأحداث مالا قِبَلَ لك بها.

قال عثمان: أنا لا أبيع جِوارَ رسول الله ﷺ بشيء، ولو كان فيه قطعُ خيطِ عُنقي!

قال له معاوية: إذن أبعثُ لك جيشاً من أهل الشام، يقيمُ في المدينة، لمواجهة الأخطار المتوقَّعة، ليدافع عنك وعن أهل المدينة!

قال عثمان: لا؛ حتى لا أقتِّر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق، بجُندٍ تساكنُهم، ولا أضيِّق على أهل الهجرة والنصرة!

قال له معاوية: ياأمير المؤمنين، والله لتُغتالنَّ أو لتُغزَينَّ!

قال عثمان: حسبيَ اللهُ ونعمَ الوكيل[2]!!!

وسار معاوية إلى الشام.

دخول سنة خمس وثلاثين وفيها نجاح السبئيين

ودخلت سنةُ خمسٍ وثلاثين: سنةُ الفتنة العمياء، التي نجحَ فيها السبئيّون في قتلِ الخليفة عثمان رضي الله عنه.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ٣٤٥.

بعدما عاد الأمراءُ إلى بلدانهم، فكر السبئيّون في أمرهم، فاضطروا إلى تغيير خطتهم.

السبئيون يغيرون خطتهم بعد فشل يوم الجرعة

كانت خطتهم السابقة في الخروجِ على عثمان، تقوم على إعلان الخروج في الأمصار والبلدان، وإحداثِ الفوضى والفساد، واستمالةِ السذَّج والرعاع.

ولكن هذه الخطةَ لم تنجح، فقد خرجوا في الكوفة يوم «الجَرَعَة» بزعامة «يزيد بن قيس» ومنعوا سعيدَ بن العاص من العودة للكوفة.

ولم يتمكنوا من تحقيق هدفِهم، وكلُّ ما حققوه أنهم نجحوا في تغيير الوالي، حيث عيَّن عثمان أبا موسى الأشعري والياً على الكوفة.

قدومهم لعثمان من مصر والكوفة والبصرة

اتفق شياطينُ السبئية في الأمصار الثلاثة: مصر، والكوفة، والبصرة، على الذهاب إلى عثمان في المدينة، ومواجهتِه مواجهةً علنية، ومجادلتِه ومخاصمتِه، ومحاكمتِه على مسمع من المسلمين!

خرجَ قوم منهم من الأمصار الثلاثة، في سنة خمسٍ وثلاثين إلى المدينة للاجتماع مع عثمان، وأَظْهَروا أنهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويحرصون على الإصلاح، ويرغبون في تقويمِ أخطاء الخليفة، ومحاسبته على أفعاله!

السبئيون يحاكمون عثمان في المدينة

جمعوا اعتراضاتِهم على عثمان، وشبهاتِهم ضدَّه، ليسألوه عنها، ويحاسِبوه عليها، على مرأى ومسمع من المسلمين، وأرادوا أن يعترف بأخطائه فيها، ويشهدوا عليه، ثم يقوموا بنشر هذا بين المسلمين في البلدان[١]!

ولما وصل السبئيّون إلى المدينة، أرسلَ عثمان لهم رجلين من المسلمين، مَخْزومياً وزُهْرياً، وقال لهما: انظُرا مايريدون، واعْلَما علمَهم.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٤٦.

قرشيان يصارحان السبئيين في المدينة

وكان عثمانُ قد أدَّب هذين الرجلين من قبل، لأخطاءٍ وقعت منهما، وقد رضيا بالحق، ولم يحقدا على عثمان.

وكان السبئيّون يعلمون ذلك عنهما، أي أن عثمان قد سبقَ أن أدَّبهما، وطمِعوا أن يستميلوهما إلى جانبِهم بسببِ ذلك.

ولذلك كان السبئيّون صريحين مع الرجلَين، فأَخبروهما بما يريدون.

قالا لهم: هل معكم أحدٌ من المدينة.

قالوا: مَعَنا ثلاثة نفر فقط!

قالا لهم: كيف تريدون أن تصنعوا؟

السبئيون يكشفون عن هدفهم أمامهما

قالوا: نريدُ أن نكلم عثمان عن أشياء فعلها، قد زرَعناها في قلوب الناس في الأمصار، ونَشَرْناها بينهم، ثم نعودَ إلى أقوامنا، ونخبرَهم أننا قرَّرْنا عثمان بأخطائه، وأنه قد اعترف بها أمامَنا، ولكنه لم يخرج منها ولم يتب.

ونريدُ أن نخرج من أقطارنا في موسم الحجِّ القادم، ونأتيَ المدينة كأننا حُجَّاج، ثم نحاصرَ عثمان ونخلَعَه، فإن أبى الاستقالة قتلناه!!!

تقرير الرجلين أمام عثمان

رجعَ الرجلان إلى عثمان، وأخبراه بحقيقة ما يريده السبئيّون، وأنه هو المقصودُ في النهاية!

رأى عثمان أن هؤلاء أهونُ وأقلُّ من أن يفعلوا ذلك، وما هي إلا أفكارٌ في رؤوسهم، لذلك لما علم بخبرهم ضحك، وقال: اللهم سلِّم هؤلاء، فإنك إن لم تسلِّمْهم شقُوا[1]!!

أرسلَ عثمانُ إلى هؤلاء السبئيّين القادمين من مصر والكوفة والبصرة فأتوا المسجد.

ثم نادى المنادي: الصلاةُ جامعة.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٤٦.

فأقبلَ أصحابُ رسول الله ﷺ إلى المسجد، وكان السبئيّون جالسين حولَ المنبر، وكان المسلمون محيطين بهم، وكان عثمانُ على المنبر.

عثمان يكشف هدف السبئيين في المسجد

تكلمَ عثمانُ في هذا الاجتماع الحاشد، فحمدَ الله وأثنى عليه، ثم أخبرَ الصحابة خبر السبئيّين، وحقيقة ما يريدون، من تأكيدِ الشبهات عليه، تمهيداً للخروج عليه وخلعه، أو قتلِه!

وقام الرجلان اللذان حادثا السبئيّين، فشهدا بما أخبروهما به.

رأي الصحابة قتلهم

فقال المسلمون جميعاً في داخل المسجد: اقتلْهم ياأميرَ المؤمنين، لأنهم يريدون الخروجَ على أمير المؤمنين، وتفريقِ كلمة المسلمين!!

لماذا لم يقتلهم عثمان؟

رفضَ عثمان دعوةَ الصحابة لقتْلهم، كما سبق أن رفض دعواتٍ سابقة لقتلهم، لأنهم مسلمون ـ في الظاهر ـ من رعيته، ولا يرضى أن يقال: عثمان يقتل مسلمين مخالفين له.

ولذلك ردَّ عثمان على تلك الدعوة قائلاً: لا نقتُلُهم، بل نعفو ونصفح، ونبصِّرهم بجهدنا، ولا نقتلُ أحداً من المسلمين، إلا إذا ارتكبَ حداً يوجب القتل، أو أظهر ردَّة وكفراً[1].

جلسة محاكمة علنية في المسجد النبوي

ثم دعا عثمانُ القومَ السبئيّين إلى عرض ما عندهم من شبهات، وإظهار ما يرونه من أخطاء وتجاوزات ومخالفات، وقعَ هو فيها، وكانت جلسة مصارحةٍ ومكاشفةٍ في المسجد، على مرأى ومسمعٍ من الصحابة والمسلمين.

يتكلَّم السبئيّون ويعرضونَ الأخطاء التي ارتكبها عثمان، وعثمانُ يقومُ بالبيان والتوضيح، ويقدِّم حقيقةَ الأمر، والمسلمون المنصفون يسمعون هذه المصارحة والمكاشفة والمحاسبة!!

أورد عثمانُ ماأخذوه عليه، ثم بيَّن حقيقة الأمر، ودافعَ عن حُسن

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٤٦.

فعلِه، وأشهدَ معه الصحابة الجالسين في المسجد.

١ ـ قال: قالوا: إني أتممتُ الصلاة في السفر، وما أَتمَّها قبلي رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر!

حجة عثمان في إتمام الصلاة بمكة

لقد أتممتُ الصلاة لما سافرتُ من المدينة إلى مكة، ومكة بلدٌ فيه أهلي، فأنا مقيمٌ بين أهلي، ولستُ مسافراً.

أليسَ كذلك؟

فقال الصحابة: اللهم نعم!

٢ ـ وقالوا: إني حميتُ حمى، وضيَّقتُ على المسلمين، وجعلتُ أرضاً واسعة، خاصة لرعي إبلي!

حجة عثمان في توسيع حمى الصدقة

ولقد كان الحمى قبلي، لإبل الصدقة والجهاد، حيثُ جعلَ الحمى كلٌّ من رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وأنا زدتُ فيه لما كثرت إبلُ الصدقة والجهاد، ولم نمنعْ ماشية فقراء المسلمين من الرعي في ذلك الحمى، وما حميتُ الحمى لماشيتي!

ولما ولّيتُ الخلافة كنتُ من أكثرِ المسلمين إبلاً وغنماً، وقد أنفقْتُها كلها، ومالي الآن ثاغيةٌ ولا راغية، ولم يبق لي إلا بعيران، خصَّصْتُهما لحجّي!

أليس كذلك؟

فقال الصحابة: اللهم نعم!

٣ ـ وقالوا: إني أبقيتُ نسخةً واحدة من المصاحف، وحرَّقْتُ ما سواها، وجمعتُ الناس على مصحف واحد!

حجة عثمان في جمع القرآن

ألا إن القرآن كلامُ الله، من عندِ الله، وهو واحد، ولم أفعل سوى أن جمعتُ المسلمين على القرآن، ونهيتُهُم عن الاختلاف فيه، وأنا في فعلي هذا تابعٌ لما فعله أبو بكر، لمَّا جمعَ القرآن!

أليس كذلك؟

فقال الصحابة: اللهم نعم!

حجة عثمان في الحكم بن أبي العاص

٤ - وقالوا: إني رددت الحَكَمَ بن أبي العاص إلى المدينة، وقد كان رسول الله ﷺ نفاه إلى الطائف!

إنَّ الحكم بن أبي العاص مكّي، وليس مدنياً، وقد سيَّره رسول الله ﷺ من مكة إلى الطائف، وأعاده الرسول ﷺ إلى مكة بعدما رضي عنه، فالرسولُ ﷺ سيَّره إلى الطائف، وهو الذي ردَّه وأعاده!!

أليس كذلك؟

فقال الصحابة: اللهمَّ نعم.

حجة عثمان في تولية الشبان

٥ - وقالوا: إني استعملْتُ الأحداث، ووليَّتُ الشبانَ صغارَ السن!

ولم أُوَلِّ إلا رجلاً فاضلاً محتَمِلاً مَرْضياً، وهؤلاء الناسُ أهلُ عملهم، فسَلوهم عنهم.

ولقد ولّى الذين من قبلي مَن هم أحدثُ منهم وأصغرُ منهم سناً، ولقد ولّى رسول الله ﷺ أسامةَ بن زيد، وهو أصغرُ ممنْ وليَّته، وقالوا لرسول الله ﷺ أشدَّ مما قالوا لي.

أليس كذلك؟

قال الصحابة: اللهم نعم! إن هؤلاء الناسَ يَعيبون للناس مالا يفسِّرونه ولا يوضحونه!

حجة عثمان فيما أعطاه لابن لأبي السرح

٦ - وقالوا: إني أعطيت عبد الله بن سعد بن أبي سرح ما أفاءَ الله به عليه.

وإنما أعطيتُه خُمسَ الخُمس، وكان مئةَ ألف، لما فتحَ إفريقية، جزاءَ جهاده.

وقد قلت له: إن فتحَ الله عليك إفريقية، فلكَ خمسُ الخمسِ من الغنيمة نَفْلاً.

وقد فعلها قبلي أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

ومع ذلك قال لي الجنودُ المجاهدون: إنّا نكره أن تعطيه خمس الخمس ـ ولا يحقُّ لهم الاعتراض والرفض ـ فأخذتُ خمسَ الخمس من ابن سعد ورددْتُه على الجنود! وبذلك لم يأخذ ابن سعدٍ شيئاً!

أليس كذلك؟

قال الصحابة: اللهم نعم!

حجة عثمان في إعطاء أقاربه

٧ ـ وقالوا: إني أحبُّ أهل بيتي وأعطيهم!

فأَما حبّي لأهل بيتي، فإنه لم يحمِلني على أن أميلَ معهم إلى جورِ وظلمِ الآخرين، بل أحملُ الحقوقَ عليهم، وآخذُ الحق منهم.

وأما إعطاؤُهم فإني أُعطيهم من مالي الخاص، وليس من أموالِ المسلمين، لأني لا أستحلُّ أموال المسلمين لنفسي، ولا لأحدٍ من الناس.

ولقد كنتُ أعطي العطيةَ الكبيرة الرغيبةَ من صُلبِ مالي، أَزمانَ رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وأنا يومئذٍ شحيحٌ حريص. أفحينَ أتيتُ على أسنان أهل بيتي، وفَنيَ عمري، وجعلْتُ مالي الذي لي لأهلي وأقاربي، قال الملحدون ماقالوا؟

وإني والله ماأخذتُ من مصرٍ من أمصار المسلمين مالاً ولا فضلاً، ولقد رددتُ على تلك الأمصار الأموال، ولم يُحضِروا إلى المدينة إلا الأخماس من الغنائم، ولقد تولى المسلمون تقسيمَ تلك الأخماس، ووضْعَها في أهلها!

ووالله ما أخذتُ من تلك الأخماس ولا غيرها فلْساً فما فوقَه، وإنني لا آكل إلا من مالي، ولا أُعطي أهلي إلا من مالي!

حجة عثمان في الأرض المفتوحة

٨ ـ وقالوا: إني أعطيتُ الأرض المفتوحة لرجال معيّنين، وإن هذه الأَرَضين المفتوحة، قد اشترك في فتحها المهاجرون والأنصار وغيرُهم

من المجاهدين، ولما قُسّمت هذه الأراضي على المجاهدين الفاتحين، منهم من أقام بها واستقرَّ فيها، ومنهم من رجع إلى أهله في المدينة أو غيرها، وبقيت تلك الأرض ملكاً له، وقد باعَ بعضهم تلك الأراضي، وكان ثمنها في أيديهم!

وبذلك أوردَ عثمان رضي الله عنه أهم الاعتراضات التي أُثيرتْ عليه، وتولّى توضيحها، وبيانَ وجهِ الحق فيها[1].

وقد سمع كلامَه وتوضيحه زعماءُ السبئيّين الذين بجانب المنبر، كما سمعه الصحابة الكرام، ومن معهم من المسلمين الصالحين.

وتأثّر المسلمون بكلام عثمان وبيانه وتوضيحه، وصدّقوه فيما قال، وازدادوا له حباً.

عدم اقتناع السبئيين بحجج عثمان

أما السبئيّون دعاةُ الفتنةِ والفرقة، فلم يتأثروا بذلك، ولم يتراجعوا، لأنهم لم يكونوا باحثين عن حق، ولا راغبين في خير، إنما كان هدفُهم الفتنة، والكيد للإسلام والمسلمين.

وقد أشار الصحابةُ والمسلمون على عثمان بقتلِ أولئك السبئيّين، بسببِ ما ظهر من كذبهم وتزويرهم، وحقدِهم، بل أصروا عليه في قتلهم، ليتخلّص المسلمون من شرهم، وتستقرَّ بلادُ المسلمين، ويُقضى على الفتنة التي يثيرها هؤلاء وأتباعهم!

عثمان لا يأخذ برأي الصحابة بقتل السبئيين

ولكن عثمان كان له رأي آخر، وتحليلٌ مغاير، فآثَرَ أن يتركهم، ورأى عدَمَ قتلهم، محاولةً منه لتأخير وقوعِ الفتنة!!

لم يتخذ عثمانُ ضد السبئيين القادمين من مصر والكوفة والبصرة أيَّ

---

(1) انظر أهم الاعتراضات التي أثيرت على عثمان، ووجه الحق فيها، في كتاب «العواصم من القواصم» لابن العربي مع هوامش محب الدين الخطيب: ٦١ ـ ١١١، ومقدمة أحمد عرموش لكتاب الفتنة: ١٠ ـ ١٤.
وانظر تاريخ الطبري: ٤: ٣٤٦ ـ ٣٤٨.

إجراء، مع علمه بما يخططون ويريدون، وتركهم يغادرون المدينة، ويعودون إلى بلادهم !!

خطـوة السبئيين التنفيذية:

اتفق السبئيون فيما بينهم على القيام بخطوتِهم العملية النهائية، في مهاجمة عثمان في المدينة، وحملِه على التنازل عن الخلافة، وإلا يُقتل.

احتلال المدينة في موسم الحج

وقرروا أن يأتوا من مراكزهم الثلاثة: مصر والكوفة والبصرة، في موسم الحج، وأن يغادروا بلادهم مع الحجاج، وأن يكونوا في صورة الحجاج، وأن يعلنوا للآخرين أنهم خارجون للحج، فإذا وصلوا المدينة، تركوا الحجاج يذهبون إلى مكة لأداء مناسك الحج، واستغلوا فراغَ المدينة من معظمِ أهلها ـ المشغولين بالحج ـ وقاموا بمحاصرة عثمان، تمهيداً لخلعه أو قتلِه ![1]

يخططُ السبئيون هذا التخطيطَ الشيطاني، والمسلمون لا يدرون من تخطيطهم شيئاً.

وفي شوال سنة خمسٍ وثلاثين كان السبئيّون على مشارف المدينة !

قادة سبئيي مصر

خرجَ السبئيون من مصرَ في أربعِ فِرَق، لكل فرقةٍ أمير، ولهؤلاء الأمراء أمير، ومعهم شيطانُهم عبد الله بن وهب بن سبأ.

وأمراء الفرق الأربعة هم: عبدُ الرحمن بن عَديس البَلَويّ، وكِنانةُ بن بِشْر التَّجيبي، وسُودانُ بن حُمرانِ السَّكوني، وقَتيرَةُ بن فُلان السَّكوني.

وأمير هؤلاء الأمراء هو الغافقيُّ بن حَرْبِ العكّي.

وكان عددُ الفرق الأربعة ألف رجل.

وقـادة سبئيي الكوفة والبصرة

وخرج السبئيّون من الكوفة ألف رجل، في أربع فرق، وأمراء فرقهم هم: زيدُ بن صوحان العبدي، والأشترُ النخعي، وزياد بن النَّضر الحارثي، وعبد الله بن الأصم.

---

(١) تاريخ الطبري ٤ : ٣٤٨.

وأميرُ سبئيي الكوفة هو عمرو بن الأصم.

وخرج سبئيو البصرة ألفَ رجل، في أربع فرق، وأمراءُ فرقهم هم: حكيمُ بن جَبَلَة العبدي، وذريحُ بن عبّاد العبدي، وبشرُ بن شريح القيسي، وابنُ المحرِّشِ ابن عبد الحنفي.

وأمير سبئيي البصرة هو حُرقوص بن زهير السَّعدي.

وهكذا تكاملت مؤامرة السبئيّين، وجموعُ المسلمين لا يعرفون حقيقةَ مرادِهم.

ثلاثة آلاف سبئي يتبعون ابن سبأ

أكثرُ من ثلاثة آلاف منهم قادمون للمدينة، بنية الحج في الظاهر، وبهدفِ القضاء على الخليفة في الحقيقة.

وعبدُ الله بن سبأ يسيرُ مع هؤلاء مزهواً مسروراً، بنجاحِ خطته اليهودية الشيطانية!!

كان سبئيو مصر يريدون عليَّ بن أبي طالب خليفة، وكان سبئيو الكوفة يريدون الزبير بن العوام خليفة، وكان سبئيو البصرة يريدون طلحة بن عبيد الله خليفة[1]!

السبئيون يكذبون على علي وطلحة والزبير

والصحابةُ الكرامُ الثلاثة ـ علي والزبير وطلحة ـ رضي الله عنهم، لم يتفقوا مع السبئيّين، ولم يتآمروا على عثمان معهم، ولم يكاتبوهم ولم يعلموا حقيقةَ أهدافهم.

لكن السبئيّين كانوا يكذبون على هؤلاء الصحابة، ويوهمون أتباعهم من السذَّج والغوغاء أن الصحابة معهم، وأنهم يكاتبونهم ويراسلونهم، وأنهم يحركونهم.

كان سبئيو مصر يقولون لأتباعهم: إنَّ علياً هو الذي يحركنا.

وسبئيو الكوفة يقولون لأتباعهم: إن الزبير هو الذي يحركنا.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

وسبئيو البصرة يقولون لأتباعهم: إن طلحة هو الذي يحركنا !

والصحابةُ الكرام بريئون من هذه الافتراءات السبئية !!

معسكر السبئيين على مشارف المدينة في شوال ٣٥هـ

وعسكرت جيوشُ السبئيّين على بعدِ ثلاثِ ليال من المدينة.

فقد نزل سبئيو البصرة «ذا خَشَب»، ونزل سبئيو الكوفة «الأعوص»، ونزل سبئيو مصر «ذا المروة».

طلبَ قادة السبئيّين من أتباعهم التريثَ وعدم العجلة، والتمهل في دخول المدينة، حتى لا ينتبه أهلُ المدينة لهم، ولا يكشفوا أمرهم !

أرسلَ هؤلاء القادة المتآمرون اثنين منهم إلى المدينة، ليستطلعا الأمر، ويعرفا ما عند أهلها، وهما زيادُ بن النضر وعبد الله بن الأصم، من قادة سبئيي الكوفة.

قائدان سبئيان يستأذنان أهل المدينة

دخل الرجلان المدينة، وقابلا بعض أهلها، قابلا بعضَ أزواج النبي ﷺ، كما قابلا علياً وطلحة والزبير.

وقالا لمن قابلاهم: نحن قادمون من الكوفة والبصرة ومصر، وهدفُنا هو الحج، ونحن نازلون على بعد ثلاث ليال من المدينة، ولا نريدُ من المدينة إلا مقابلة عثمان، لنشكوَ بعضَ وُلاتِنا له، ونطلبَ منه تغييرَهم.

واستأذنا ممن قابلاهم، ليأذنوا لجموعهم بدخول المدينة !

فلم يأذن لهم أحد بدخول المدينة، واعتبروا هذه الجموعَ أصحاب فتنة، وفتنتُهم بَيْضٌ يوشكُ أن يفرِّخ، فبما أنهم يريدون الحج، فلماذا لا يتوجَّهون إلى مكة ؟ ولماذا يدخلون المدينة ؟ وهم في شهر شوال ؟

ومع هذا لم يعلم أهل المدينة حقيقةَ ما يريده القوم.

عادَ الرجلان إلى قومهم، وأَخبروهم الخبر، وأنَّ أهل المدينة لا يعرفون حقيقة أمرهم، ولكنهم حذرون منهم، متشكِّكون فيهم.

السبئيون يرسلون وفوداً لعلي وطلحة والزبير

درسَ قادة المؤامرة الأمر، فرَأوا أن يرسلوا من كل بلدٍ من البلدان

الثلاثة نفراً لمقابلة الصحابي الذي يوهمون أتباعه أنه معهم.

أتى نفرٌ من أهل مصرَ علياً، وأتى نفرٌ من أهل البصرة طلحة، وأتى نفرٌ من أهل الكوفة الزبير.

وكان كلُّ نفر يقول: إن بايعَ أهلُ المدينة صاحبَنا خليفةً كفَفْنا عنهم، وإن رفضوا مبايعة صاحبنا، خليفةً كِدْناهم، وفرَّقنا جماعتهم، ثم كرَرْنا عليهم وباغَتْناهم وقاتَلْناهم!

علي يرفض مقابلتهم ويلعنهم

أتى المصريون منهم علياً رضي الله عنه، وكان عند «أحجار الزيت» مُعْتَمّاً بشقيقة حمراء، لابساً حُلَّةً يمنية، متقلِّداً سيفه، وكان قد أرسلَ ابنه الحسن إلى الخليفة عثمان، ليكون معه.

كلَّموا علياً، وعَرضوا الأمر عليه، وطلبوا منه أن يكون الخليفة!

فصاحَ بهم وطَرَدهم، وكان مما قاله لهم: لقد علم الصالحون أن جيشَ ذي خَشَب وذي المروة والأعوص ملعونون على لسان محمد ﷺ، ارجعوا لا حفظكم الله ولا صحبَكم!!

طلحة والزبير يلعنانهم

وأتى البصريّون منهم طلحة، وكان قد أرسل ابنه محمداً إلى عثمان ليكون معه، فكلَّموه وعرضوا عليه الخلافة! فصاحَ بهم وطرَدهم، وقال لهم: لقد علمَ الصالحون أن جيش ذي خشب وذي المروة والأعوص ملعونون على لسان رسول الله ﷺ!

ولما كلم الكوفيون منهم الزبير، قال لهم كما قال علي، وكما قال طلحة[1].

السبئيون يحتلون مصر ويطردون الوالي

وكان والي مصر هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فثار عليه السبئيّون الذين كانوا هناك، وأثاروا عليه الغوغاء، وكان يقودهم محمد بن أبي حذيفة بن عتبة ـ ربيبُ عثمان وابنُ زوجته ـ فطَردوا الوالي ابن أبي سرح،

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

وتغلَّبَ محمد بن أبي حذيفة على الأمر في مصر، فغادَرها ابن أبي سرح قادماً إلى المدينة.

قادة السبئيين يفاوضون عثمان

اجتمع قادة السبئيّين بعثمان في المدينة بحضورِ بعض الصحابة، وناقَشهم وناقشوه، وفنَّد شبهاتهم وقدَّم حجتَه.

وقد اشتكى المصريون منهم من واليهم عبد الله بن سعد، وطلبوا من عثمان تغييره، وتعيينَ والٍ آخر مكانه.

قال لهم عثمان مَنْ تريدون؟

قالوا: نريدُ محمد بن أبي بكر الصديق!

عثمان يعين محمد ابن أبي بكر والياً على مصر

فعزلَ عثمان عبد الله بن سعد عن مصر، وعين مكانَه محمدَ بن أبي بكر.

كما فعلَ من قبلُ مع خوارجِ أهلِ الكوفة، عندما عزلَ سعيدَ بن العاص، وعيَّن مكانه أبا موسى الأشعري.

أظهرَ السبئيّون أنهم عائدون إلى بلدانهم، وأنهم حققوا مرادَهم، بعزلِ عبد الله بن سعد وتولية محمد بن أبي بكر مكانه.

عاد سبئيو مصر إلى مصر، ومعهم واليهم الجديد محمد بن أبي بكر ـ وكان سبئيّاً مثلهم ـ وعاد سبئيو البصرة والكوفة إلى العراق[1].

وظنَّ المسلمون في المدينة أنّ المشكلة قد حلَّت، وأنّ الأزمةَ قد انتهت، وأنّ المحنة قد زالت.

وما دروا أن هذه العودة ما هي إلا جزءٌ من المؤامرة اليهودية الشيطانية السبئية.

وقد تخلَّف شيطانان من شياطين السبئيّين في المدينة لأمر ما، بعدما

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٥٤ ـ ٣٥٥.

عاد القوم إلى بلدانهم. وهما: الأشترُ النخعي من الكوفة، وحكيم بن جبلة من البصرة.

سارَ القومُ في طريقين متباعدين، حيث سار المصريون نحو الغرب إلى الشمال قاصدين مصر، بينما سار العراقيون نحو الشرق إلى الشمال قاصدين الكوفة والبصرة.

مؤامرتهم الخبيثة: الغلام والبعير والكتاب

وبينما كان المصريون منهم عائدين إلى مصر، وهم على مسافة ثلاثة أيام من المدينة، إذا هم بغلام أسود، راكباً بعيراً له، يخبُطُ الأرض.

فقالوا له: ماشأنُك ؟ كأنكَ طالبٌ أو هاربٌ!

قال: أنا غلامُ أمير المؤمنين وقد وجَّهني إلى والي مصر.

قالوا له: هذا والي مصر معنا ـ محمد بن أبي بكر ـ

قال: ليس هذا أريد! أريدُ الوالي عبد الله بن سعد!

قال له محمد بن أبي بكر: هاتِ الكتاب الذي معك ؟

فأَخرجوا كتاباً منه، وعليه خاتَمُ عثمان، وكان كتاباً عجيباً، موجَّهاً من عثمان إلى عبد الله بن سعد يقول له فيه:

إذا جاءك القوم فاقتل محمد بن أبي بكر، واقتل فلاناً وفلاناً وفلاناً منهم، واحبِس الباقين، وأَبطل كتابيَ الذي كتبتُه بتوليةِ محمد بن أبي بكر، واثبتْ أنت والياً على مصر، حتى يأتيك رأيي!!

أَوقفَ محمد بن أبي بكر القوم ـ وكانوا حوالي ألف رجل ـ وقرأ عليهم كتاب عثمان إلى عبد الله بن سعد، وهيَّجهم ضدَّ عثمان، وأثارهم عليه، فكيف يتفقون مع عثمان على حل، ويعودون إلى مصر، ثم يبطلُ عثمان ذلكَ الحل، ويأمرُ بقتلِ وحبسِ القوم ؟

إذن لا بدَّ من خلعِه وعزْله، فإن أبى لا بد من قتْله!!

عودة السبئيين للمدينة

وعاد سبئيو مصر إلى المدينة في بداية شهر ذي القعدة، وقلوبُهم ممتلئةٌ حقداً على عثمان، وهم مصمِّمون علانيةً على التخلص منه.

وعاد الخوارج من الكوفيين والبصريين إلى المدينة، لنفس السبب، وكلهم عازمون على التخلص من عثمان.

السبئيون يحتلون المدينة

فوجىءَ أهلُ المدينة بعودةِ السبئيين من مصرَ والكوفة والبصرة، واحتلالِهم شوارعَ المدينة وطرقاتها، فما الذي أعادهم ؟ ألم يتفقوا مع عثمان ويحلّوا المشكلة ؟ لقد عادوا إلى بلادهم راضين فلماذا رجعوا الآن ؟

شكى السبئيّون عثمانَ إلى أكابر الصحابة، وعلمَ الصحابةُ بقصةِ كتاب عثمان الذي أثارهم وأعادهم، فتأثَّروا.

علي يسأل عثمان عن قصة الغلام والبعير والكتاب

ودخل علي بن أبي طالب على عثمان رضي الله عنهما، ومعه الكتابُ والغلامُ والبعير !

وقال له: هل هذا الغلامُ غلامُك ؟

قال عثمان: نعم.

قال له: هل هذا البعيرُ بعيرُك ؟

قال عثمان: نعم.

قال له: هل أنتَ كتبتَ الكتاب ؟

قال عثمان: لا !!

وحلفَ عثمان بالله، أنه ماكتب الكتاب، ولا أمرَ بكتابته، ولا وجَّه الغلام إلى مصر، ولا يدري من الذي كتب !!

علم عليٌّ ومن معه من الصحابة صدقَ عثمان، فما كان ليحلف بالله باطلاً، كما علموا أن هناك من زوَّرَ الكتاب، وكتبه على لسان عثمان، واستخدمَ غلام عثمان وبعيره، وتعمَّد الغلامُ أن يراه المصريون العائدون، لتتمَّ إثارتُهم على عثمان.

وهناكَ أمرٌ لفتَ انتباه الصحابة، جعلهم يقفون على طرفٍ من هذه المؤامرةِ السبئيةِ الشيطانية !!

علي وابن مسلمة يكتشفان مؤامرة السبئيين

كلَّمَ الخوارجَ المتآمرين عليٌّ بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنهما، كما كلمهم كلٌّ من طلحة والزبير.

قالوا لهم: لماذا رجعتُم إلى المدينة ؟ لقد عدتُم إلى بلادكم راضين ؟ وحُلَّت المشكلة التي قَدمتم من أجلها، فما الذي غير رأيكم ؟

قال المصريون: ألقينا القبضَ على غلام عثمان، وكان يركبُ بعيرَ عثمان، ومعه كتاب من عثمان إلى واليه بقتلِنا، فعدنا لخلعِ عثمان.

وقالوا للخوارج البصريين والكوفيين: وأنتم ماالذي أرجعكم ؟

قالوا: جئنا لننصر إخواننا المصريين ونمنَعَهم ونساعدهم !

كيف علم أهل الكوفة والبصرة بكتاب أهل مصر؟

قال عليٌّ ومحمد بن مسلمة للبصريين والكوفيين: كيف علمتم ياأهل البصرة وياأهل الكوفة بما لقيَ أهلُ مصر ؟ لقد ساروا إلى مصر، وسرتُم أنتم جهة الشرق إلى العراق، وبينكم وبينهم مسافاتٌ بعيدة، فكيفَ علمتم بقصةِ الغلام والكتاب ؟ هذا أمرٌ أُبرمَ في المدينة، وهذه مؤامرةٌ دبِّرت بليل !!

قال الخوارج السبئيّون: ضَعوا الأمر على ماشئتم، وقولوا ما تريدون، فنحن نريد تغيير عثمان، ولا حاجة لنا فيه، ليعتزلْنا ويترك الخلافة[1] !!

إذن: السبئيون زوروا الكتاب

لقد اكتشف هذه المؤامرةَ البلهاءَ عليٌّ بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة، بفراستهما الإيمانية، وعلما أن قصة الكتاب المزور جزءٌ من المؤامرة السبئية، وأن هناك من كتبه في المدينة، ونسبَه لعثمان، وأخبرَ خوارجَ الكوفة والبصرة به.

---

(١) انظر تاريخ الطبري ٤ : ٣٥٠ ـ ٣٥١، وانظر العواصم من القواصم: ١٠٩ ـ ١٢٨. وعثمان بن عفان لمحمد صادق عرجون: ١١٧ ـ ١٢٤.

وإزاء فراسة علي ومحمد بن مسلمة وبُعدِ نظرهما، اضطر الخوارج إلى السكوت عن مسرحية الكتاب المزعوم، والكشفِ عن حقيقةِ هدفهم.

المطلوب هو رأس عثمان

إن المطلوبَ هو رأسُ عثمان رضي الله عنه، وما الكتابُ المزعومُ إلا حلقةٌ من حلقاتِ المؤامرة اليهودية السبئية !

ولا ننسى أنه قد تخلَّف في المدينة رجلان من قادة الخوارج السبئيّين، وهما الأشترُ النخعي وحكيمُ بن جبَلَة، ولهما دورٌ كبير في قصة الكتاب المزعوم، وفي عودة المصريين والكوفيين والبصريين !

المدينة فارغة من أهلها

حاصرَ الخوارجُ المدينة، ولزمَ الناسُ بيوتهم، وكان عدد الرجال في المدينة قليل، لأنَّ معظمهم كانوا مجاهدين في جبهات القتال، أو دعاةً في البلاد المفتوحة، وكثيرٌ ممن بقي في المدينة ذهبوا إلى أداء مناسك الحج.

ولعل الرجال في المدينة كانوا أقلَّ من الخوارج السبئيّين، الذين كان عددُهم ثلاثةَ آلاف رجل.

وفي أواخر شهر ذي القعدة لم يتمكن عثمان من الخروج للحج، وكان يحجّ كل سنة، أما في هذه السنة فإن السبئيّين قد احتلوا المدينة، وحاصروا عثمان في داره.

عثمان يعين ابن عباس أميراً للحج

ولا بدَّ من تعيين أمير للحج، ليحجَّ بالناس.

استدعى عثمانُ عبد الله بن عباس رضي الله عنهم، وكلَّفه أن يحجَّ بالناس هذا الموسم.

فقال له ابن عباس: دعني أكن معك وبجانبك ياأمير المؤمنين، في مواجهة هؤلاء، فوالله إن جهاد هؤلاء الخوارج أحبُّ إليَّ من الحج !

قال له: عزمتُ عليك أن تحجَّ بالمسلمين.

فلم يجد ابن عباس أمامه إلا أن يطيعَ أميرَ المؤمنين.

وكتب عثمان كتاباً مع ابن عباس، ليُقرأ على المسلمين في الحج، بيَّن

فيه قصته مع الخوارج عليه، وموقفَه منهم، وطلباتهم منه[1].

تصرف عثمان أمام احتلال المدينة

ودخلَ شهرُ ذي الحجة والخوارجُ السبئيّون محاصِرون لعثمان، محتلون للمدينة، ومع هذا كان عثمانُ يصلي بهم وبغيرِهم من المسلمين، وكان هؤلاء الخوارج يصلّون خلفه.

ولما رأى عثمانُ أن هؤلاء السبئيّين لا يريدون مغادرةَ المدينة، كتبَ عثمان كتاباً إلى المسلمين في الأمصار، في الشام والكوفة والبصرة، يطلبُ منهم المددَ والقدوم للمدينة، ليطردوا عنها الخوارج السبئيّين، وكان مما قاله عثمان في كتابه:

كتاب عثمان للأمصار

«بسم الله الرحمن الرحيم:

أما بعد:

فإن الله عز وجل بعثَ محمداً ﷺ بالحق، بشيراً ونذيراً، فبلَّغَ عن الله ما أمره به، ثم مضى، وقد قضى الذي عليه، وخلَّف فينا كتابَه، فيه حلاله وحرامه، وبيانُ الأمور التي قدَّرها، فأمضاها، على ما أحبَّ العبادُ وكرهوا.

ثم كان الخليفةُ أبو بكر رضي الله عنه، ثم عمر رضي الله عنه.

ثم أُدخلتُ في الشورى، عن غيرِ علْم، ولا مسألة، عن مَلأ من الأمة، ثم أجمعَ أهل الشورى عن ملأ منهم ومن الناس علي، على غيرِ طلبٍ مني ولا محبة.

فعملتُ فيهم ما يعرفون ولا يُنكرون، تابعاً غير مستتبع، متَّبعاً غيرَ مبتدع، مقتَدياً غيرَ متكلِّف.

عثمان يستنجد بأهل الأمصار على السبئيين

فلما انتهت الأمور، وانتكثَ الشرُّ بأهله، بدَتْ ضغائنُ وأهواء، على غير إجرامٍ ولا تِرَة.

---

(١) انظر نص كتاب عثمان في تاريخ الطبري ٤: ٤٠٧ ـ ٤١١.

فطلبوا أمراً، وأعلنوا غيره، بغير حجةٍ ولا عذر، فعابوا عليَّ أشياء مما كانوا يرضون، وأشياء عن ملأ من أهل المدينة، لا يصلحُ غيرها.

فصبَّرتُ لهم نفسي، وكففتُها عنهم منذ سنين، وأنا أرى وأسمع، فازدادوا على الله عزَّ وجل جرأة.

حتى أغاروا علينا في جوار رسول الله ﷺ وحرمِه، وأرضِ الهجرة، وثابَت إليهم الأعراب، فهم كالأحزابِ أيامَ الأحزاب، أو مَنْ غزانا بأُحُد، إلا ما يُظهرون.

فمن قدرَ على اللَّحاق بنا، فليلْحَق[1] !»

تأثر المسلمين في الأمصار بكتاب عثمان

ولما وصلَ الكتابُ المسلمين في الأمصار، تأثَّروا به، وعجبوا من جرأة الخوارج المشاغبين، وهبوا لنجدة خليفتهم، وإنقاذِه من الحصار، لكنَّ قدرَ الله كان أسبقَ من نجدتهم، كما سنذكرُ من تسارعِ الأحداث.

بعثَ معاوية بن أبي سفيان جيشاً من الشام، بقيادة حبيبِ بن مسلمة الفِهري.

وبعثَ عبد الله بن سعد جيشاً من مصر، بقيادة معاوية بن خديج السكونيّ.

الصحابة والتابعون في الكوفة يحضون على نصرة عثمان

وقام بعض الصحابة في الكوفة، يحضّون أهلها على الخروج لنجدة عثمان، وتخليصِ المدينة من الخارجين، وكان منهم: عقبةُ بن عمرو، وعبد الله بن أبي أوفى، وحنظلةُ بن الربيع.

وكان من التابعين الذين يقومون بنفس الأمر في الكوفة أصحابُ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، مثل: مسروق بن الأجدع، والأسود بن يزيد، وشريح بن الحارث، وعبد الله بن عكيم.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٥١ ـ ٣٥٢.

وكان هؤلاء الصحابة والتابعون يسيرون في طريق الكوفة، ويطوفون على مجالسها، ويقولون لأهلها:

أيُّها الناس: إنَّ الكلام اليومَ وليس غداً، وإنَّ النظر يحسُنُ اليوم، ويقبحُ غداً، وإنَّ القتالَ يحلُّ اليوم ويحرمُ غداً، انهضوا إلى خليفتكم، وعصمةِ أمركم!

فاستجابَ لهم مجموعة من صالحي أهل الكوفة، وخرجوا إلى المدينة لنجدةِ عثمان، وكانوا بقيادة المجاهد القعقاع بن عمرو التميمي.

وكذلك في البصرة والشام ومصر

وكان ممن يحضُّ أهل البصرة على الخروج لنجدة عثمان من الصحابة: عمرانُ بن حصين، وأنسُ بن مالك، وهشامُ بن عامر، ومن التابعين: كعبُ بن سور، وهرمُ بن حيّان العبدي.

وكان ممن يحضُّ على ذلك في الشام من الصحابة: عبادةُ بن الصامت، وأبو أمامة الباهلي، وأبو الدرداء. ومن التابعين: أبو مسلم الخولاني، وشريك النميري، وعبد الرحمن بن غنم[1].

وسارت الجيوش من مصر والشام والكوفة والبصرة لنجدة عثمان، ولما علمَ الخوارجُ السبئيّون بمسيرها، خافوا على أنفسهم، فعجَّلوا بتنفيذ مؤامرتهم، وقاموا بقتلِ عثمان رضي الله عنه.

ولما علمت الجيوش بذلك، عاد كلُّ جيشٍ إلى بلده، ولم يدخلوا المدينة!!

كان نزولُ الخوارج السبئيّين في المدينة، وحصارُهم لعثمان في الثامن من ذي القعدة سنة خمس وثلاثين.

خطبة عثمان في الجمعة الأولى بعد احتلال المدينة

ولما كانت الجمعةُ الأولى من احتلالهم المدينة، خرجَ عثمان ليخطبَ خطبة الجمعة، ويصلي بالناس.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٥٢.

فصلّى بالناس، وبعدما أنهى الصلاة قام على المنبر، وكان في المسجد الخوارج السبئيّون وبعض الصحابة والمسلمين.

ولما صعد عثمان المنبر قال: ياهؤلاء الأعداء: اللهَ، اللهَ، اتقوا الله، فوالله إن أهل المدينة ليعلموا أنكم ملعونون على لسان رسول الله ﷺ، فامْحوا الخطايا بالصواب، فإن اللهَ عز وجل، لا يمحو السيىءَ إلا بالحسن.

ضرب السبئيين لبعض الصحابة وطردهم من المسجد

فقام محمد بن مسلمة رضي الله عنه فقال: أنا أشهدُ أنكم ملعونون على لسان رسول الله ﷺ، فقامَ إليه حكيمُ بن جَبَلَة زعيمُ سبئيي البصرة، فجذَبه وأقعده رغماً عنه!

ثم قام زيدُ بن ثابت رضي الله عنه فقال لهم: ناولوني الكتاب الذي زعمتم أن عثمان قد كتبه لواليه على مصر.

فقام إليه أحدُ السبئيّين وأقعده رغماً عنه.

ثم ثارَ السبئيّون في المسجد جميعاً، وحصبوا الصحابةَ والمسلمينَ الآخرين بالحجارة، وأخرجوهم من المسجد، وطردوهم وشتموهم.

وضربهم لعثمان وهو على المنبر

وحَصَبوا عثمان الذي كان على المنبر بالحجارة، فسقط عن المنبر إلى أرض المسجد مغشياً عليه، وحُمِلَ وأدخل دارَه، وهو مريضٌ مغمى عليه!!

وشمرَ مجموعة من الصحابة للقتال، واستعدوا لقتال الخوارج السبئيّين، ولو كانوا أقلَّ وأضعفَ منهم، منهم سعدُ بن أبي وقاص، وأبو هريرة، ومحمدُ بن مسلمة، وزيدُ بن ثابت، والحسنُ بن علي، وعبد الله بن الزبير وآخرون.

الصحابة يكفون عن القتال بأمر عثمان

فلما علم عثمان بذلك، أرسلَ إليهم، وأمرهم بالكف عن القتال، ووضْعِ السلاح، والعودةِ إلى بيوتهم!!! فنفَّذوا أمره من باب السمع والطاعَة، لكنهم كانوا مُكْرَهين!

وأَقبَلَ كلٌّ من عليّ وطلحة والزبير، فدخلوا على عثمان، يعودونَه من مرضه، ويشكون بثَّهم وحُزنهم أمامه، ثم عادوا إلى منازلهم.

علي يتبرأ منهم وينكر كتابته لهم

وجاء نفرٌ من سبئيي مصر إلى علي، فقالوا له: قمْ معنا إلى عثمان لنخلَعَه، وإن الله قد أحلَّ لنا دمَه!

فغضب علي منهم ولعنَهم، وقال: والله لا أقومُ معكم.

فقال له بعضهم: إذن لماذا كتبت إلينا ياعليُّ بالقدوم من مصر والخروج على عثمان، والإنكار عليه! فنحن ما أتينا إلا بسبب كتابك لنا!!

فاستغرب عليّ من كلامهم، وقال لهم: والله ما كتبتُ إليكم كتاباً قطّ!!

فنظر بعضُهم لبعض متعجبين، وقالوا: أَمِنْ أجلِ عليّ تُقاتلون؟ وله تغضبون[1]؟

السبئيون يزيفون الكتب على لسان علي والصحابة

وهذا الخبر يدلُّنا على طريقة شياطين اليهود السبئيّين، في استغفال الرعاع السذَّج من المسلمين، واستدراجهم والتأثير عليهم لينضمّوا إليهم، ويوظفوهم في إفساد أمر المسلمين، والقضاء على نظام الحكم فيهم.

إنها «تزويرُ» الكتبِ على لسان كبار الصحابة، ونسبتُها إليهم، والزعمُ بأن هؤلاء الصحابة الكبار هم الذين يدعون الناس للخروج على عثمان والإنكار عليه، وخَلعِه، وإلا قتله!

فهاهم سبئيو مصر يزوِّرون الكتب على لسان علي رضي الله عنه، ويوهمون الغوغاء الذين معهم، بأنهم ما خرجوا إلا بعدَ دعوةِ عليّ لهم بالخروج، لذلك تعجَّبوا عندما حلفَ عليٌّ بالله، أنه ما كتب لهم كتاباً قط!!

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٥٢ ـ ٣٥٣.

طلحة والزبير ينكران الكتابة لهم

وأنكرَ طلحةُ بنُ عبيد الله أمامَ غوغاء البصرة أن يكون قد كتب لهم كتاباً بالخروج على عثمان، والقدوم إلى المدينة !

وكذلك أنكر الزبير بن العوام ذلك أمام خوارج الكوفة.

وبعدما قتل عثمان جلس مسروق التابعي أمام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

عائشة تروي تزويرهم على لسانها

فقالت عائشة عن عثمان: لقد قُتِل عثمان مظلوماً، لعنَ الله من قتلَه، لقد تركوه كالثَّوبِ النقي من الدنس، ثم قرَّبوه فذبحوه كما يُذبَحُ الكبش !

فقال لها مسروق: هذا عملُك ! أنتِ كتبتِ إلى الناس، تأمرينهم أن يخرجوا إلى عثمان !!

قالتْ عائشة: لا والله الذي آمنَ به المؤمنون، وكفرَ به الكافرون، ما كتبتُ لهم سوداءَ في بيضاء، حتى جلستُ مجلسي هذا !!!

قال الأعمشُ الراوي عن مسروق: فكانوا يرون أن الكتابَ كتبَ على لسان عائشة[1] !

لقد كان تزويرُ الكتبِ على كبارِ الصحابة من أخبث الوسائل الشيطانية، التي سَلَكها السبئيّون، للتأثير في الرعاع، وتهييجهم ضدَّ عثمان. زوَّروا الكتبَ على لسان عائشة وعلي وطلحة والزبير، كما زوَّروا الكتب على لسان عثمان نفسه.

وبعدما صُرِعَ عثمان في تلك الجمعة، من أواسطِ شهر ذي القعدة، استمرَّ يصلي بالناس إماماً في المسجد، ويصلّي خلفه المسلمون الصالحون، والخوارجُ السبئيّون.

وبعد ذلك بأيام منعه الخوارج السبئيّون من الصلاة، وحَصَروه داخلَ بيته، ومنعوا أحداً من كبار الصحابة من أن يصلي بالناس إماماً.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٧: ١٩٥.

السبئيون حكام المدينة فعلاً وأميرهم هو الإمام

وكانوا هم حكام المدينة فعلاً، يجوبون طرقاتِها، ويمنعون المسلمين فيها من الاجتماع، ويمنعون عثمانَ من الخروج من بيته.

وتقدمَ أميرُ خوارج مصر، وحاكم المدينة الفعلي في أيام الحصار «الغافقيُّ بن حرب العكِّي» فصلى بالناس إماماً، وصلى خلفَه خوارجُ مصر والكوفة والبصرة.

أما أهلُ المدينة فقد لزموا بيوتَهم، وكان لا يخرجُ منهم أحدٌ إلا وعليه سلاحه، خشيةً من القوم، وكانوا أقلَّ من الخوارج[1].

وغادرَ كبارُ الصحابة المدينة في أواخرِ أيام الحصار، حيثُ خرجَ من المدينة عليٌّ وطلحةُ والزبير وسعد وغيرهم.

عدم إذن عثمان للصحابة بقتالهم

ولما حاصر السبئيّون عثمان كان حوله مجموعةٌ من الصحابة، يدافعون عنه، وكانوا قريباً من سبعمئة، فيهم عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وأبو هريرة، والحسن والحسين، ومروان بن الحكم، وآخرون.

ولو أذنَ لهم عثمان بالقتال، لقاتلوا، ولكنه آثرَ تركَ القتال، وقال لهم: أُقسمُ على من لي عليه حقُّ الطاعة، أن يكفَّ يده، وأن يعودَ إلى منزله!

عثمان ينهىٰ زيد بن ثابت وأبا هريرة وابن عمر عن القتال

وجاء زيدُ بن ثابت رضي الله عنه إلى عثمان، فقال له: إن هؤلاء الأنصار بالباب يقولون: إن شئتَ كنا أنصار الله مرتين!

فقال له عثمان: لا حاجة لي بذلك، كفّوا أيديكم ولا تقاتلوا!

وجاءَه أبو هريرة رضي الله عنه، وهو حاملٌ سلاحه، ويقول: اليومَ طابَ الضربُ معك!

قال له عثمان: عزَمتُ عليكَ لتخرُجَنَّ. وعُدْ إلى بيتك ولا تقاتل.

وجاءَه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وهو لابسٌ سلاحَه، ليقاتلَ

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٥٤.

الخوارج ـ ولم يَلبَس ابن عمر سلاحه إلا مرتين: يومَ الدار في خلافة عثمان دفاعاً عنه، ويومَ أن أراد زعيمُ الخوارجِ «نجدةُ بن عامر» دخولَ المدينة أيام ابن الزبير ـ فقال له عثمان: قمْ وبلِّغ الناس أمري بالكفِّ عن القتال ولزوم بيوتهم !!

روايات بمنع عثمان من القتال

وقالَ سليطُ بن أبي سليط رضي الله عنه: نهانا عثمان عن قتال الخوارج، ولو أذنَ لنا بقتالهم، لضربْناهم حتى نخرجهم من المدينة.

وقالَ عبد الله بن عامر بن ربيعة رضي الله عنه: كنتُ مع عثمان في الدار، فقال عثمان لنا: أَعزِمُ على كلِّ من رأى أن لي عليه سمعاً وطاعة، إلا كفَّ يده وسلاحه عن القتال، فإن أفضلكم عندي غَناء، هو الذي كفَّ يده وسلاحه عن القتال.

عثمان ينهى أبناء الصحابة عن القتال

وكان مع عثمان في الدارِ مجموعةٌ من أبناء الصحابة: الحسنُ والحسين ابنا علي، وعبد الله بن الزبير، ومحمدُ بن طلحة، ومروان بن الحكم، وعبد الله بن عمر، رضي الله عن الجميع.

فقال لهم عثمان: أَعزمُ عليكم لما رجعتم، ووضعتُم أسلحتكم، ولزمتُم بيوتكم[1] !

الأشتر النخعي يفاوض عثمان

وأرسلَ الخوارجُ السبئيّون أحدَ قادتهم إلى عثمان، ليتنازل عن الخلافة، وهو الأشترُ النخعي ـ مالكُ بن الحارث ـ.

فقال له عثمان: ماذا تريدون ؟

قال الأشتر: ثلاثٌ، ليس من إحداهنَّ بُدّ.

قال عثمان: ما هُنّ ؟

---

(١) انظر هذه الأخبار وغيرها في العواصم من القواصم وهوامش محب الدين الخطيب عليه: ١٣٢ ـ ١٤٢.

قال الأشتر: أن تخلعَ نفسك من الخلافة، وتقول للناس: هذا أمرُكم فاختاروا من شئتُم !

فإن أبيتَ، فعليكَ أن تقتصَّ من نفسك !

فإن أبيتَ، فإن القوم قاتِلوك لا محالة !

عثمان يرفض عروض الأشتر الثلاثة

قال له عثمان: أما أن أخلعَ لهم أمرهم، فما كنتُ لأفعل ذلك، وما كنتُ لأخلع سِرْبالاً سَرْبَلَنيهِ الله ، وقميصاً قمَّصنيه الله، ولا أتركُ أمة محمد، بعضَها على بعض.

وأمَّا أن أقتصَّ لهم من نفسي، فما فعلتُ ما يوجب القصاص، وصاحباي أبو بكر وعمر لم يقصّا من أنفسهما، وبدني لا يحتملُ ذلك.

وإنْ قتلتموني، فلم أرتكب ما يوجبُ قتلي. ووالله لئن قتلتموني فإنكم لا تتحابون بعدي أبداً، ولا تصلون جميعاً بعدي أبداً، ولا تقاتلون العدو جميعاً بعدي أبداً[1] !

واستشار عثمان بعضَ من حوله من كبار الصحابة في الأمر.

استشار عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، وكانَ أميرَ الدار قبلَ أن يأمره عثمان بالانصراف.

فقال له ابن الزبير: أُشير عليك بإحدى ثلاث:

عثمان لا يوافق على خيارات ابن الزبير الثلاثة

إمَّا أن تُحرم بعمرة، فيحرُمُ عليهم دمُك، وإما أن تركبَ إلى معاويةَ بالشام، وإما أن تأذن لنا وتخرجَ معنا، فنضربَ رقابَ هؤلاء بالسيف، حتى يحكمَ الله بيننا وبينهم، فإننا على الحق وهم على الباطل !

فقالَ له عثمان: أما الإحرامُ بعمرة، فلن يمنعهم من قتلي، لأنهم يرونني حلالَ الدم، قبلَ الإحرام وبعده !!

وأما ذهابي إلى الشام، فما كنت لأتركَ جوارَ رسول الله ﷺ، وإني

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٧: ١٨٤.

أستحيي من الله أن أخرجَ من بينهم خائفاً، فيراني أهلُ الشام، ويسمعُ بي الكفار فيفرحون ويشمتون !

وأما قتالهم، فإني أرجو أنْ ألقى الله، ولا يُراق بسببي مَحْجَمَةُ دم[1] !

ابن عمر يشير على عثمان بعدم التنازل

واستشار عثمان عبد الله بن عمر رضي الله عنهم في الأمر. قال له: إن القوم يقولون لي: اخلع نفسك أو نقتلك !

قال له ابن عمر: أَمُخلَّد أنت في الدنيا ؟

قال عثمان: لا.

قال: هل يزيدون على أن يقتلوك ؟

قال عثمان: لا.

قال: هل يملكون لك جنة أو ناراً ؟

قال عثمان: لا.

قال ابن عمر: فلا تخلَع قميصَ الله عنك، فتكون سنةً من بعدك، كلَّما كرهَ قومٌ خليفَتَهم خلعوه أو قتلوه[2] !

بعد نظر ابن عمر

رضي الله عن عبد الله بن عمر، ما كان أبعدَ نظره، إنه لا يريدُ أن يسنَّ عثمانُ سنَّة سيئةً للخلفاء ـ وحاشا لعثمانَ أنْ يفعل ـ فلو تنازلَ عثمانُ لهؤلاء الخوارج السبئيِّين، وخلعَ نفسه، لصارَ الخلفاء أُلعوبةً وملهاةً بأيدي الطامعين أو المغرضين، وبذلك تهتزُّ صورةُ الخليفة، وتزولُ هيبته عند الناس.

ولقد سنَّ عثمان سنَّةً حسنة لمن بعده بمشورةِ ابن عمر وغيره من

---

(١) البداية والنهاية ٤ : ١٩٨.
(٢) العواصم من القواصم: ١٣٠.

الصحابة رضوان الله عليهم، حيث صبرَ واحتسب، فلم يتنازل عن الخلافة، ولم يسفكْ دماء المسلمين !!

آخر لقاء لعثمان

وكان آخرُ لقاءٍ عامٍّ لعثمان مع المسلمين، بعدَ أسابيع من الحصار، حيث دعا الناس، فاجتمعوا له جميعاً، المحاربُ الطارىءُ من السبئيّين، والمسالمُ المقيمُ من أهل المدينة، وكان في مقدمةِ القادمين: عليّ وطلحة والزبير.

فلما جلسوا أمامه قال لهم:

عثمان ينصح المسلمين

إن الله عز وجل إنما أعطاكم الدنيا لتطلُبوا بها الآخرة، ولم يعطكم الدنيا لتركنوا إليها. وإنَّ الدنيا تفنى، والآخرة تبقى، فلا تبطرنَّكم الفانية، ولا تشغلنَّكم عن الباقية، وآثِروا ما يبقى على ما يفنى، فإنَّ الدنيا منقطعة، وإنَّ المصير إلى الله، واتقوا الله عز وجل، فإنَّ تقواه جُنَّةً ووقايةً من بأسِه وانتقامه، والزَموا جماعَتكم، ولا تصيروا أحزاباً. قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ثم قال للمسلمين:

ويودعهم صابراً محتسباً

ياأهل المدينة: إنِّي أستودعكُم الله، وأسألُه أن يُحسنَ عليكم الخلافةَ من بعدي. وإني والله لا أدخلُ على أحدٍ بعد يومي هذا، حتى يقضي الله فيَّ قضاءَه، ولأدعَنَّ هؤلاء الخوارجَ وراء بابي، ولا أُعطيهم شيئاً، يتخذونه عليكم دَخَلاً في دينٍ أو دنيا، حتى يكون اللهُ هو الصانعُ في ذلك ما أَحبَّ[١].

ولزمَ عثمانُ بعد ذلك دارَه، حتى أتاه أجَلُه، حيث قام السبئيّون بإزهاقِ روحِه.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٨٤ ـ ٣٨٥.

ولما رأى الخوارجُ السبئيّون تصميمَ عثمان على عدم التنازل، شددوا عليه الحصارَ في بيته، ومنعوا من الدخولِ عليه، بل منعوا المسلمين من تزويده بالطعامِ والشراب.

تشديد الحصار على عثمان

وكان جيران عثمان آلَ حزم. فأشرفَ عثمان على آلِ حزم، وأَرسلَ ابنهم إلى علي بن أبي طالب وطلحة والزبير وأزواجِ رسول الله ﷺ، وقال لهم: إن القوم قد منعونا الماء، فإنْ قدرتُم أن تُرسلوا لنا شيئاً من الماء فافعلوا!

عثمان يستغيث ويطلب المال

فأتى عليٌّ بعدما صلى الفجر، وصاح في الخوارج قائلاً: ياأيها الناس: إنَّ الذي تصنعونه لا يشبهُ أمرَ المؤمنين، ولا يُشبهُ أمر الكافرين، لا تقطعوا عن الرجل الطعام والشراب، وإنَّ فارسَ والروم والكفار، يأسِرون، فيُطعمون أسراهم ويَسقونهم، وفيمَ تستحلونَ قتلَ الرجلِ وحصْرَه؟

السبئيون يمنعون علياً من إغاثة عثمان

فطردوا علياً وقالوا له: والله لا نتركُه يأكلُ ولا يشرب.

وأَمامَ عجزِ علي عن فكِّ الحصار، أو تقديمِ الطعام والشراب لعثمان، أو الدخول عليه ليكلمه، فقد رمى عمامته في الدار، ليراها عثمان، فيعلم أن علياً قد نهضَ فيما أنهضَه له، ولكنه عجزَ عن إنجاده!

وقامَت أمُّ المؤمنين أمُّ حبيبة رضي الله عنها ـ وهي رَمْلَةُ بنت أبي سفيان ـ بمحاولةِ إنجاد عثمان، وتقديم الماء له.

السبئيون يمنعون أم حبيبة من إمداده بالماء

فأتتْ بيتَ عثمان، وهي راكبةٌ بغلة، ومعها إداوةٌ فيها ماء.

فاعترضَ لها الخوارج، ومنعوها من الدخول.

فقيل لهم: هذه أمُّ حبيبة أم المؤمنين زوج رسول الله ﷺ.

فقالوا: لن نَدَعها تدخل، وضربوا وجهَ بغلتها.

قالت لهم: إنَّ وصايا بني أمية مع عثمان، وأريد أن ألقاه لأسأله عنها، حتى لا تضيعَ أموالُ الأرامل والأيتام!

قالوا لها: أنتِ كاذبة، وإنما تريدين تقديمَ الماء له.

وبينما كانت راكبة على البغلة قطعوا حبل البغلة، فمالت أمُّ حبيبة، وأَوشكتْ أن تسقط، لولا أن تلقَّاها المسلمون، فأَخَذوها وأعادوها إلى البيت.

ولما رأت عائشة ما حدث لأم حبيبة، رضي الله عنها، غضبت على الخوارج السبئيّين، وخرجَت من المدينة إلى مكة للحج.

حوار عائشة مع مروان بن الحكم وذهابها للحج

فقابلها مروان بن الحكم، وقال لها: ياأمَّ المؤمنين، لو أقمتِ في المدينة لكان أولى، فإنَّ القوم قد يهابونك، ويراقبون عثمان بخير!!

قالت له: يامروان: أتُريدُ أن يُصنَعَ بي كما صُنِعَ بأم حبيبة، ثم لا أجدُ من يمنعُني وينصُرُني، لا والله لا أُعيَّرُ، ولا أدري إلى ماذا ينتهي أمرُ هؤلاء القوم، والله لئن استطعت أن يحرمَ اللهُ هؤلاء القوم مايريدون ويحاولون لأفعلنَّ!

محمد بن أبي بكر يرفض الحج مع أخته عائشة

وطلبت عائشة من أخيها محمد بن أبي بكر أن يخرجَ معها للحج ـ وكان من رؤوس الفتنة الذين أغواهم عبد الله بن سبأ ـ فأبى أن يخرجَ معها، وآثرَ أن يبقى مع السبئيّين محاصراً لعثمان.

فغضبتْ عائشة منه، وقالت له: أنتَ لست محمداً، بل أنت مُذَمَّم.

حنظلة بن الربيع يلوم ابن أبي بكر ويقول شعراً حكمة

فلما علم حنظلةُ بن الربيع الكاتب رضي الله عنه بموقفِ محمد بن أبي بكر، قال له: يامحمد، تستَتْبِعُكَ أختُكَ أمّ المؤمنين إلى الحج فلا تتبَعها، وتدعوكَ ذئابُ العرب وغربانها إلى مالا يحلّ، من الخروج على الخليفةِ فتتبَعُهم!

فقال له محمد: ماأنت وذاك ياابن التميمية؟

فانصرف حنظلة، وهو ينشد هذه الأبيات، التي هي القمة في الحكمة:

عَجِبْتُ لما يُخوضُ الناسُ فيهِ يرومونَ الخلافةَ أن تَزولا

وَلـو زالـتْ لـزالَ الخيرُ عنهُـمْ   وَلاقَــوْا بعــدهـا ذُلاً ذليـلاً
وكـانـوا كـاليهـودِ أو النَّصارى   سـواءً كلُّهـمْ ضَلُّـوا السَّبيـلا[1]

صدق تحليل حنظلة

وقد حصل ما توقَّعه حنظلةُ الكاتبُ بفراسته الإيمانية، حيث إن فُرقة المسلمين، وضعفَ الخلافة أو زوالَها، يؤدّي إلى ذلِّ المسلمين وهوانِهم وضلالِهم.

وقد أدركَ حنظلةُ بثاقب بصره، ونفاذِ بصيرته، أن هدف الخوارج السبئيّين ليس هو شخص عثمان، وإنما هدف شياطينهم هو نظامُ الحكم الإسلامي، فهم يريدون إزالةَ الخلافة، والقضاءَ عليها !!

ليلى بنت عميس تنصح أخويها الخارجين

وقالت ليلى بنت عُمَيْس لمحمد بن أبي بكر ـ وهو أخوها لأمّها، لأن أمها هي أسماءُ بنت عُمَيس ـ ولمحمد بن جعفر بن أبي طالب ـ وهو أخوها الشقيق، لأن أسماء بنت عُميس كانت زوجةً لجعفر بن أبي طالب، فلما استُشهد في مؤتة تزوَّجها أبو بكر الصديق، رضي الله عنهم ـ:

إنَّ المصباحَ يأكلُ نفسه، ويضيءُ للناس، فلا تأثما في أمر تسوقانه إلى من لا يأثمُ فيكما ! فإن هذا الأمر الذي تحاولونه اليوم، من الخروج على عثمان، هو لغيركم غداً، فإياكم اليوم أن يكون عملُكم اليوم حسرةً عليكم !!

فغضِبا منها، وقالا لها: لا ننسى ما صنعَ بنا عثمان !

قالت لهما: وماذا صنعَ بكما، ما زادَ على إلزامكما بشرعِ الله، وتأديبكما لمخالفةِ أمر الله[2] !

إسراع السبئيين بتنفيذ خطتهم بعد ثلاثين يوماً من الحصار

مضى على حصار السبئيّين لعثمان أكثر من ثلاثين يوماً ـ حيث بدأ الحصار في الثامنِ من شهر ذي القعدة ـ وتوجَّهت جيوش المسلمين من مصر والشام والكوفة والبصرة، لنجدة عثمان، ومحاربة الخوارج

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٨٥ـ٣٨٦.
(٢) تاريخ الطبري ٤: ٣٨٧.

السبئيّين، وعلم هؤلاء الخوارج بمسير الجيوش إليهم، فأرادوا الإسراع بالتخلُّص من عثمان وقتله، لتزداد الفرقة بين المسلمين، ولئلا يتفق المسلمون عليهم.

توجه الحجاج والجيوش للمدينة

كما أن الخوارج علموا أن موسم الحج قد انتهى، وأن الحجاجَ عازمون على التوجُّه إلى المدينة لنصرةِ عثمان، والقضاء على الخوارج.

فقد قرأ ابن عباس رسالة عثمان إلى الحُجَّاج، فتأثَّروا، وقالوا: عندما نفرغُ من الحج، نأتي إلى المدينة لنحارب المصريين وأشياعهم، المحاصرين لعثمان، فمحاربتُهم عبادة، نضيفُها إلى عبادة الحج.

وفعْلاً وصلت طلائعُ الحُجاج إلى المدينة، وكان أول من دخل المدينة «المغيرةُ بن الأخنس بن شريق» الذي دخلَ دار عثمان مدافعاً عنه، مقاتلاً لأعدائه السبئيّين!

السبئيون يتحرشون بأبناء الصحابة

تحرَّشَ السبئيّون بعثمان ومن معه داخلَ البيت ـ وكان معه مجموعة من أبناء الصحابة يدافعون عنه، مثلُ ابنَي علي وابن طلحة وابن الزبير وابن عمر وابن الحكم ـ وأَرادوا حجة يحتجون بها، ويبرِّرون بها اقتحامَ دار عثمان، فلم يجدوها.

وزادَ حصارُهم للدار، وبالغوا في منع الطعام والماء عن المحصورين داخلَ الدار، وماكان يأتيهم إلا قليل من الماء، كان يصلُهم خفيةً وسراً، من دارِ ابن حزم جيرانِهم.

كلام بالغ الروعة لعبد الله بن سلام بنصح السبئيين

وقبلَ أيام من قتل الخوارج لعثمان، مرَّ بهم الصحابيُّ الجليل عبد الله بن سلام رضي الله عنه ـ الذي كان قبل إسلامه كبيرَ أحبار اليهود ـ ووقفَ على بابِ دار عثمان، وخاطب الخوارج المحاصرين له قائلاً:

«ياقوم لا تقتلوا إمامَكم وخليفَتكم، ولا تَسُلُّوا بقتله سيفَ الله عليكم، فوالله إن سَلَلْتُم سيف الله عليكم، لن يُغْمَدَ بعد ذلك! ويلكم! إن

سلطانَكم اليوم يقومُ بالدُّرَّة والعصا، فإن قتلْتموه لن يقومَ سلطانُكم إلا بالسيف !!

ويلكم! إن المدينة اليوم محفوفةٌ بملائكة الله تحرسُها، والله لئن قتلتموه لتترُكنَّها هذه الملائكة !!»

فغضب السبئيّون من كلام ابن سلام، وشتموه قائلين: ياابن اليهودية وماأنت وهذا ؟ وما يُدريكَ من هذا الأمر[1] ؟

وهذا الكلامُ من عبد الله بن سلام رضي الله عنه في قمةِ الروعة والنفاسة، ككلام حنظلة بن الربيع الكاتب الذي سبق أن أوردْناه.

ولقد تحقَّق ما حذَّرهم منه ابن سلام، عندما سفكوا دمَ عثمان !

لماذا قرروا الإسراع بقتل عثمان

وعلمَ الخوارج السبئيّون بقربِ وصول الجيوش الإسلامية من الأمصار إلى المدينة، فخافوا على أنفسهم، ووجَدوا أن الحلَّ لمشكلتهم هو قتلُ عثمان.

قالوا: لا يخرجُنا مما وقعنا فيه إلا قتلُ هذا الرجل، فإننا إن لم نقتُلْه قَتَلَنا الناس، وإن قتلناه اشتغل الناس عنا بقتله !

وبذلك قرر الشياطين السبئيّون في الأيام الأخيرة من الحصار قتل عثمان رضي الله عنه.

المغيرة بن الأخنس أول حاج يدافع عن عثمان

دخلَ معه الدار المغيرة بن الأخنس بن شريق، الذي سارع لنصرته بعد أداء مناسك الحج، وانضمَّ لأبناءِ الصحابة المدافعين عن عثمان.

وقفَ المغيرةُ بن الأخنس على باب الدار من الداخل، وقال: ما عُذْرُنا عند الله إن تركناك ياأمير المؤمنين ! لا بدَّ أن نقاتلهم حتى نموت[2].

---

(١) تاريخ الطبري ٤ : ٣٩١.
(٢) تاريخ الطبري ٤ : ٣٣٨.

وأقبل عثمان في أيام الحصار الأخيرة على الصلاة وقراءةِ القرآن، يصلي ما شاء الله له أن يصلي، فإذا أعيا، يجلسُ ويقرأُ في المصحف، وهكذا ينتقل بين الصلاة والقراءة في المصحف.

السبئيون يشعلون النار بدار عثمان

وقرَّر السبئيّون أن يهجموا الهجومَ الأول على الدار، فجاؤوا بنار، وأشعلوا الباب والسقف ناراً، وقامَ الرجالُ في الداخل بإطفاءِ النار، وعثمانُ قائمٌ يصلي.

فاحترق الباب والسقفُ، وخرَّ الخشبُ على الأرض.

أول معركة على باب دار عثمان

وبرزَ لهم الرجال المدافعون في الداخل يقاتلونهم، قاتلهم المغيرة بن الأخنس، والحسنُ بن علي، ومحمد بن طلحة، وسعيد بن العاص، ومروان بن الحكم، وعبد الله بن الزبير، وزياد بن نعيم الفهري، ونيار بن عبد الله الأسلمي، وأبو هريرة.

قال أبو هريرة وهو يقاتلُ الخوارج: أَنا أسوتُكم وقدوتُكم في قتالهم، هذا يوم طاب فيه الضرب، وحلَّ فيه القتال، وقال للخوارج وهو يقاتِلُهم: ﴿ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾.

وعثمان يصلي ويقرأ القرآن

كلّ هذا وعثمان يصلي، ويقرأُ سورة طه في الصلاة، فما اكترثَ بما جرى، وما تتعتعَ في القراءة، ولا قطعَ الصلاة، فلما أنهى سورة طه ركعَ وأنهى الصلاة، ثم جلس يقرأ في سورة آل عمران من المصحف[1].

شهيدان على باب دار عثمان

وكان أولُ الشهداء على باب دار عثمان هو المغيرةَ بن الأخنس، حيثُ قتله رجلٌ ليثي من بني ليث، فلما قتَلَه ندم، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

فقال عبد الرحمن بن عديس أحد زعماء الخوارج للّيثي: مالك ؟

قال: إني أُتيتُ فيما يرى النائم، فقيل لي: بشِّر قاتلَ المغيرةِ بن

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٨٨ ـ ٣٨٩.

الأخنس بالنار ! فابتُليتُ أنا بقتْله !!!

وقتلَ رجلٌ كناني نِيارَ بن عبد الله الأسلمي، فكان الأسلمي هو الشهيدَ الثاني على باب الدار !

عثمان يأمر المدافعين عنه بالعودة لبيوتهم

ولما رأى عثمانُ جثتي الشهيدين على باب الدار حزنَ وتألَّم، وأقسمَ على الرجال المدافعين عنه أن يتوقَّفوا عن القتال، وأن يُغمدوا سيوفَهم !

وأَمرهم أن يخرجوا من الدار، وأن يعودوا إلى منازلهم !!

وكان لا بدَّ من أن ينفِّذوا الأمر، فغادروا الدار جميعاً وعادوا إلى منازلهم.

وبذلك انتهى الاشتباكُ الأولُ بين المسلمين الصالحين وبين الخوارج والسبئيّين !! بأمرٍ من عثمان رضي الله عنه.

وكانَ آخرَ من غادرَ الدار هو عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، حيث أرسلَ معه عثمانُ وصيَّته، ليسلِّمها إلى والده الزبير بن العوام، رضي الله عنهم[1].

وبقي عثمانُ وحده داخلَ الدار، مع بعض أهلِه وخدمه، يحاصره ثلاثةُ آلافٍ من الخوارج السبئيّين !!

آخر يوم في حياة عثمان: الجمعة ١٨/١٢/٣٥هـ

وأخيراً جاء يومُ الجمعة، الثامنُ عشر من شهر ذي الحجة سنةَ خمس وثلاثين. وقد مضى على حصار الخوارج لعثمان أربعون يوماً كاملة.

وفيها كان قتلهم لعثمان رضي الله عنه !

أصبح عثمان يوم الجمعة صائماً، وهو يوقن أنه قد دنا أجله، وأن القوم قاتِلوه، فأقبلَ على قراءة القرآن، ليلقى الله صائماً قارئاً !

دخلَ عليه السبئيّون الدار، وعاثوا فيها فساداً.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

عثمان يحاور المكلف الأول بقتله ويقنعه

أقبلَ عليه أحد السبئيّين ليقتُلَه، فقال له: اخلعْ نفسَك من الخلافة، وسوفَ ندعُك ونتركُك!

قال له عثمان: ويحك، والله ما كشفْتُ امرأةً في جاهلية ولا إسلام، ولا تَغَنَّيْتُ ولا تَمَنَّيْتُ، ووالله ما وضعت يميني على عورتي منذُ بايعتُ رسول الله ﷺ.

ولستُ خالعاً قميصاً كسانيه اللهُ عز وجل! وأنا على مكاني هذا، حتى يُكرمَ الله أهلَ السعادة، ويُهينَ أهلَ الشقاء!

فكفَّ الرجل يدَه عن عثمان، وخرجَ إلى الخوارج، فقالوا له: ماذا صنعت؟ ولماذا لم تقتله؟

فقال لهم: لقد وقعْنا والله في مشكلةٍ لا حلَّ لها، والله ما ينْجينا من الناس إلا قتله، ووالله لا يحلُّ لنا قتلُه! ولا أدري ماذا نفعل!

عثمان يقنع المكلف الثاني بالكف عن قتله

فأدخلَ السبئيّون رجلاً آخر لقتله.

فقال له عثمان: من أين أنت؟

قال: أنا ليثي!

قال له: اخرجْ، لستَ أنت الذي تقتُلُني!

قال له: وكيف؟

قال: ألستَ أنت الذي دعا لك رسول الله ﷺ يوم كذا وكذا، وأنت في نفر من أصحابك؟

قال: بلى!

قال: اذهبْ ياأخي، ولا تُضيّع دعاءَ رسول الله ﷺ!!

فتذكَّر الرجل وندمَ على ما فعل، وخرجَ من الدار، وفارقَ القوم السبئيّين.

ويقنع كذلك المكلف الثالث

فأدَخلوا عليه رجلاً قرشياً ليقتله!

فقال: ياعثمان: إني قاتِلُك !

قال عثمان: كلا يافلان. إنك لن تقتُلني !

قال: ولماذا ؟

قال عثمان: لقد استغفرَ لك رسول الله ﷺ يومَ كذا وكذا، ولذا لن ترتكبَ دماً حراماً !

فتذكَّر الرجل وندم على ما فعل، واستغفرَ ربه، وغادرَ الدار، وفارق القوم !

ويقنع أيضاً المكلف الرابع محمد بن أبي بكر بالكف

وكان آخرَ من دخلَ عليه محمد بن أبي بكر، فأخذَ بلحيته فجَذَبها، فقال له عثمان: دعْ لحيتي، لقد أخذتَ مأخذاً، وقعدتَ مني مقعداً، ما كان أبوك أبو بكر رضي الله عنه ليفعله !

ياابن أخي: ويلك ! أعلى الله تغضب ؟ ماذا فعلتُ بك ؟ لقد ارتكبتَ جرماً فأقمتُ عليك حكمَ الله !

فندم محمد بن أبي بكر، وقام عن عثمان، وخرج من الدار نادماً[1].

تعجبَ قادة الخوارج من نكوصِ القوم عن قتلِ عثمان، فهاهم يكلِّفون أربعة رجال بقتله، وعثمان يكلِّمهم ويقنعُهم، فيتراجعون ويقومون عنه، ويفارقونهم نادمين !

دخول ثلاثة من قادة السبئيين لقتله

عندها قرَّر ثلاثة من قادة السبئيّين وشياطِينهم، أن يدخلوا عليه جميعاً، وأن يقتلوه معاً.

وكان الوقتُ بعد عصرِ يوم الجمعة، وعثمان صائم، وجالسٌ وأمامه المصحف يقرأ فيه.

دخلَ عليه الغافقيُّ بن حربٍ العكّي أميرُ الخوارج، وسُودان بن حمران السُّكوني، وقَتيرةُ بن فُلان السَّكوني.

---

(١) انظر حوار عثمان مع الرجال الأربعة في تاريخ الطبري ٤: ٣٩٠-٣٩١.

الغافقي يضرب عثمان ويضرب مصحفه برجله

فضربَ الغافقي عثمان بحديدة كانت معه، وضرب المصحف الذي أمام عثمان برجله !! فاستدارَ المصحف واستقرَّ بين يدي عثمان. وسال الدمُ من وجه عثمان بسبب ضرب الغافقيِّ بن حرب له، واستقرتْ قطرات من دمه على قوله تعالى: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٧].

سودان بن حمران يقطع أصابع زوجة عثمان، ثم يقتل عثمان

وجاءَ سودانُ بن حمران السُّكوني، وأهوى بسيفه على عثمان، فدافعَتْ عنه زوجتُه «نائلة بنتُ الفَرافِصة»، واتَّقت السيف بيدها، فضربَها سودان بالسيف، فقطع أصابع يدها، فذهبت والدمُ يسيل من أصابعها المقطوعة!

فغمزَ سودانُ أوراكَها، وقال: إنها لكبيرةُ العجيزة !!!

وضربَ سودانُ بن حمران عثمانَ بسيفه عدة ضربات فقتَلَه.

نجيح يقتل سودان

ولما رأى أحدُ غلمان عثمان الأمر، راعَه قتلُ عثمان، وكان يسمى «نَجيح» فهجمَ نجيحٌ على سودان بن حمران بسيفه فقتله !!

ولما رأى قتيرةُ بن فلان السكوني نجيحاً قد قتل سودان، هجم على نجيح فقتله.

وهجم غلامٌ آخر لعثمان اسمه «صَبيح» على قتيرة بن فلان فقتله.

أربعة قتلى في البيت: شهيدان ومجرمان

فصار في البيت أربعةُ قتلى، شهيدان ومجرمان.

أما الشهيدان: فعثمان وغلامه نجيح.

وأما السبئيان المجرمان: فسودان وقتيرة السكونيان.

ولما تم قتل عثمان رضي الله عنه ـ وكان ذلك قبل مغيبِ شمس يوم الجمعة ـ نادى منادِ القوم السبئيّين قائلاً: إنه لم يحلّ لنا دم الرجل ويحرمْ علينا ماله! ألا إن ماله حلال لنا، فانهبوا ما في البيت.

فعاث رعاعُ السبئيّين في البيت فساداً، ونهبوا كلَّ ما في البيت، حتى نهبوا ما على النساء!

وقتيلان على البيت: شهيد ومجرم

وهجمَ أحدُ السبئيّين، ويدعى كلثوم التجيبي على امرأة عثمان «نائلة»، ونهب الملاءة التي عليها، ثم غمزَ وِرْكَها، وقال لها: ويح أمّك، من عجيزةٍ ما أتمك!

فرآه غلامُ عثمان «صبيح»، وسمعَه وهو يتكلم في حق نائلة هذا الكلام الفاحش، فعلاه بالسيف فقتله.

وهجمَ أحدُ السبئيّين على الغلام فقتله.

الحصيلة ستة قتلى: ثلاثة وثلاثة

وأُغلق بيت عثمان على ستة قتلى.

ثلاثةٌ شهداء، وهم عثمان، وغلاماه نَجيح وصبيح.

وثلاثةٌ مجرمون، وهم: سودان وقتيرة وكلثوم التجيبي.

وكان قد استشهد من قبل ثلاثة في الدفاع عن عثمان، وهم: المغيرة بن الأخنس، وزياد بن نعيم الفهري، ونيار بن عبد الله الأسلمي.

السبئيون ينهبون بيت المال

وبعدما أتم رعاع السبئيّين نهبَ دار عثمان، تنادوا وقالوا: أَدْرِكوا بيتَ المال، وإياكم أن يسبقكم أحد إليه، وخذوا ما فيه!

وسمعَ حراسُ بيت المال أصواتهم، ولم يكن فيه إلا غرارتان من طعام.

فقالوا: انجوا بأنفسكم فإن القوم يريدون الدنيا!

واقتحم السبئيّون بيت المال وانتهبوا ما فيه[1]!

عمر عثمان ومدة خلافته ووقت استشهاده

وكان استشهادُ عثمان رضي الله عنه قبلَ غروبِ شمسٍ يوم الجمعة، الثامن عشر من شهر ذي الحجة، سنة خمس وثلاثين.

وذلك بعد أن حاصره الخوارج السبئيّون من مصر والكوفة والبصرة أربعين يوماً. من الثامن من شهر ذي القعدة، حتى الثامن عشر من شهر ذي الحجة.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٩١ ـ ٣٩٢.

وكانت خلافته رضي الله عنه اثنتي عشرةَ سنة إلا اثني عشر يوماً. لأنه بويعَ بالخلافة في بداية شهرِ محرم سنة أربع وعشرين.

وكان عمرُه عند استشهاده حوالي ثلاث وثمانين سنة. رضي الله عنه[1].

رعاع أتباع السبئيين يندسون بعد قتل عثمان

حقَّق الخوارج السبئيّون مرادَهم، وقتلوا أمير المؤمنين، وتوقَّفَ كثير من أتباعهم من الرعاع والغوغاء بعد قتل عثمان ليفكروا، وماكانوا يظنّون أن الأمر سينتهي بهم إلى قتله، لقد استغفلهم شياطينهم السبئيّون، واستغلوهم في الشغب على عثمان، أما أن يقتلوه فهذا ما استفظعوه واستشنعوه.

وأُسقط في أيدي هؤلاء الغوغاء، وحصل لهم كما حصل لبني إسرائيل، لما عبدوا العجل، ندم بعضُهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨ـ١٤٩].

حزن أهل المدينة لمقتل عثمان

وحزن الصالحون في المدينة لمقتل خليفتهم، وعجزهم عن نصرته، لقلة عددهم في مقابل السبئيّين، ولأن عثمان أمرهم بكفِّ أيديهم، ونهاهم عن القتال، وصاروا يسترجعون ويَبكون.

لكن ماذا يفعلون؟ وجيوشُ الخوارج السبئيّين تحتلُّ المدينة، وتعيثُ فيها فساداً، وتمنعُ أهلها من فعل أيِّ شيء؟

أمير المدينة الفعلي هو الغافقي بن حرب

وكان الحاكم الفعلي للمدينة هو أمير خوارج مصر «الغافقيّ بن حربٍ العكّي».

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير ٧: ١٩٠.

وكان معهم شيطانُهم المخطِّط «عبد الله بن وهب بن سبأ»، وهو فرحٌ مسرورٌ، لما وصل إليه من أهدافٍ ومآربَ يهودية شيطانية !

وعلَّق كبار الصحابة على مقتل عثمان.

الزبير وطلحة وعلي يسبون قتلة عثمان

لما علمَ بذلك الزبير بن العوام رضي الله عنه، قال: رحمَ الله عثمان، إنا لله وإنا إليه راجعون.

فقيل له: إن القومَ نادمون.

فقال: دبَّروا ودبَّروا، ولكن كما قال الله: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ: ٥٤].

ولما علم طلحةُ بذلك قال: رحم الله عثمان، إنا لله وإنا إليه راجعون.

فقيل له: إن القوم نادمون.

قال: تبّاً لهم ! وقرأ قوله تعالى: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يس: ٤٩-٥٠].

ولما علم علي بذلك، قال: رحم الله عثمان. إنا لله وإنا إليه راجعون.

قيل له: إن القوم نادمون.

فقرأ قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا.. ﴾ [الحشر: ١٦-١٧].

سعد بن أبي وقاص يدعو على قتلة عثمان

ولما علم سعد بن أبي وقاص بذلك قال: رحمَ الله عثمان. ثم تلا قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٦].

ثم قال سعد: اللهم اندمْهم واخْزِهم واخْذُلهم، ثم خُذْهم.

واستجابَ الله دعوةَ سعد ـ وكان مستجاب الدعوة ـ فقد أَخَذَ كلٌّ من شارك في قتلِ عثمان، مثل عبد الله بن سبأ، والغافقي، والأشتر، وحكيم بن جبلة، وكنانة التجيبي، حيث قُتلوا[1].

كل منهم مات مقتولاً

وماماتت أحدٌ ممن خرجَ على عثمان، وشارك في قتْلِه إلا مقتولاً !!

قال المستَنيرُ بن يزيد عن أخيه قيس بن يزيد: والله ماعلمتُ ولا سمعتُ بأحدٍ غزا عثمان رضي الله عنه، ولا رَكب إليه، إلا قُتل.

ثم ذكر قيسُ بن يزيد اجتماع قومٍ من خوارج الكوفة للخروج على عثمان، فيهم الأشتر النخعي، وكميل بن زياد، وعميرُ بن ضابىء.

وكيف أنهم جميعاً قتلوا إلا عُمَيراً وكميلاً.

حتى جاءت إمارة الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق، بعد أكثر من أربعين سنة من قتل عثمان.

الحجاج يقتل آخر اثنين منهم

فقام الحجاج بقتلهما بعد تلك السنين، بسبب خروجهما على عثمان[2].

قلنا إن عثمان رضي الله عنه قُتل قُبيل غروب شمس يوم الجمعة، الثامن عشر من شهر ذي الحجة.

إخراج جثة عثمان في الليل

فلما حلَّ الظلام جاءت امرأة عثمان نائلة بنت الفرافصة إلى عبد الرحمن بن عديس البَلَوي، أحدِ قادة الخوارج، وطلبت منه إخراج جثثِ القتلى الستة من البيت، فشتمها وزجرها !

وفي جوف الليل جاءَ مروان بن الحكم إلى بيت عثمان فقال: إن تركتم عثمان حتى الصباح فإن القوم سيمثّلون به.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٩٢، والبداية والنهاية ٧: ١٨٩.

(٢) انظر قصة قتل الحجاج لهما في تاريخ الطبري ٤: ٤٠٣ ـ ٤٠٤.

فاجتمع نفر من الصحابة، منهم: علي، وطلحة، وكعب بن مالك، وزيد بن ثابت، وحكيم بن حزام، وجبير بن مطعم، والزبير بن العوام.

الصلاة عليه ودفنه في البقيع

فأخرجوا جثةَ عثمان، وغسّلوه وكفّنوه، وصلى عليه الجنازة مروانُ بن الحكم.

ثم حفروا قبره في «حشّ كَوْكَب»، وهو بستانٌ يسمى بستان كوكب، بجانب بقيعِ الغرقد، كان عثمان قد اشتراه، وجعلَه مقبرة، وزادَه في البقيع، فكانَ أولَ من دفنَ فيه رضي الله عنه.

وفي الصباح أخذوا جثّتَي غلامَي عثمان: نَجيح وصَبيح، فصلّوا عليهما، ثم دفنوهما في حُشّ كوكب، بجانب قبر عثمان.

أما القتلى السبئيّون الثلاثة: سودان وقتيرة وكلثوم، فقد جَرّوهم بأرجلهم، ورموهم في بساتين المدينة، فأكلتهم الكلاب[1] !!

خروج بعض بني أمية إلى مكة

وبعد قتلِ عثمان ودفنه، خرجَ مروان بن الحكم، ومعه بعض بني أمية، من المدينة إلى مكة، خوفاً من بطشِ الخوارج السبئيّين، فلقيَ أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها في الطريق، عائدةً من مكة إلى المدينة، بعد أدائها مناسك الحج، فأخبرَها بمقتل عثمان، فترحمت عليه، ودعَت على قاتليه ولعنَتهم.

ثم عادت إلى مكة.

عودة جيوش النجدة إلى بلادها

وخرجَ بعض بني أُمية من المدينة إلى الشام، فالتقوا في «وادي القُرى» جيشَ الشام بقيادة حبيبِ بن مَسْلَمة، الذي جاء لنصرة عثمان فأخبروهم بقتل عثمان، وعادَ حبيبٌ بجيشه إلى الشام ولم يدخل المدينة.

وعلم جيش الكوفة بقيادة القعقاع بن عمرو التميمي، الذي خرج لنصرة عثمان، بقتل عثمان، فعادَ من الطريق !

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٤١٤ ـ ٤١٥.

أقوال في التعليق على مقتل عثمان

ونوردُ فيما يلي بعضَ الأقوال بشأنِ قتل عثمان، صادرةً عن رسول الله ﷺ، وبعضِ الصحابة والتابعين.

١ ـ روى النسائي عن الأحنف بن قيس التميمي رضي الله عنه قال: خرجْنا حُجّاجاً، فقدِمْنا المدينة ونحن نريدُ الحج [وذلك في فتنة عثمان] فبينما نحن في منازلنا، نضعُ رحالَنا، إذْ أتانا آت، فقال: إن الناسَ قد اجتمعوا في المسجد، وقد فزِعوا، فانطَلقْنا، فإذا الناس مجتمعون في المسجد، وإذا معهم علي والزبير وطلحة وسعد بن أبي وقاص، وإنا لكذلك، إذ جاءَ عثمانُ، وعليه ملاءَةٌ صفراء، قد قَنَع بها رأسه.

عثمان يستشهد الصحابة على ثناء الرسول عليه

فقال عثمان: أهاهنا علي؟ أهاهنا طلحة؟ أهاهنا الزبير؟ أهاهنا سعد؟

قالوا: نعم.

ثلاثة من مظاهر إنفاق عثمان زمن الرسول

قال عثمان: فإني أَنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: من يَبْتاعُ مَرْبَدَ بني فلان غفرَ الله له؟ فابتَعْتُه بعشرين ألفاً ـ أو بخمسة وعشرين ألفاً ـ فأتيت النبي ﷺ، فأخبرته فقال: اجعَله في مسجدنا، وأَجْرُه لك؟

قالوا: اللّهم نعم.

قال عثمان: أَنشُدُكُم بالله الذي لا إله إلا هو، أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: من يبتاعُ بئرَ رومَة، غفرَ اللهُ له؟

فابتَعْتُها بكذا وكذا. فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: قد ابتعتها بكذا وكذا. قال: اجعَلها سقاية للمسلمين وأَجْرُها لك؟

قالوا: اللهم نعم!

قال عثمان: أَنشدُكم بالله الذي لا إله إلا هو، أتعلمونَ أن رسول الله ﷺ نظرَ في وجوه القوم، فقال: من يجهِّزُ هؤلاء غفرَ الله له؟ ـ يعني: جيشَ العُسْرَة ـ فجهَّزْتُهم، حتى لم يفقدوا عقالاً ولا خُطاماً!

قالوا: اللهم نعم !

قال عثمان: اللَّهم اشهد. اللَّهم اشهد. اللَّهم اشهد[١] !

الرسول يخبر عن استشهاد عثمان وصاحبيه

٢ ـ روى الترمذيُّ عن أبي عبد الرحمن السُّلَمي قال: «لما حُصِرَ عثمان رضي الله عنه، أشرف عليهم فوقَ داره، فقال: أُذكِّرُكم بالله، هل تعلمون أن «حِراءَ» حين انتفض [أي: اهتز] قال له رسول الله ﷺ: أُثبتْ حراء ! فليس عليك إلا نبيٌّ أو صِدّيق أو شهيد ؟

قالوا: نعم..»[٢].

٣ ـ روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ارتجَّ جبلُ أُحُد [اهتز] وعليه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان، فقال النبي ﷺ: «أُسكنْ أُحد! فما عليك إلا نبي وصِديق وشهيدان»[٣].

الرسول يخبر عثمان عن محنته

٤ ـ روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: كنت معِ رسول الله ﷺ في حائطٍ من حيطان المدينة [بستان من بساتينها]، فأمرني رسول الله ﷺ بحفظِ باب الحائط، فجاء رجل يستأذن. فقلت: مَنْ هذا ؟

قال: أبو بكر.

فقال رسول الله ﷺ: ائذن له وبشِّره بالجنة.

ثم جاء عمر. فقال رسول الله ﷺ: ائذن له وبشِّره بالجنة.

ثم جاء عثمان. فقال رسول الله ﷺ: ائذن له، وبشِّره بالجنة على بَلوى تصيبه !

---

(١) رواه النسائي في كتاب الجهاد. باب فضل من جهَّز غازياً. انظر جامع الأصول لابن الأثير ٨: ٦٣٧ ـ ٦٣٨.

(٢) رواه الترمذي في كتاب المناقب. باب مناقب عثمان. انظر جامع الأصول ٧: ٦٤٠.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الفضائل. ومسلم في كتاب الفضائل.

فدخل عثمان وهو يقول: اللهم صبراً، الله المستعان ! ![1]

الرسول يأمر عثمان بعدم التنازل عن الخلافة

٥ ـ روى الترمذي وأحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنتُ عند النبي ﷺ.

فقال: ياعائشة، لو كان عندنا مَنْ يحدثُنا !

قلت: يارسول الله ألا أبعثُ إلى أبي بكر ؟

فسكت. ثم قال: لو كان عندنا من يحدثُنا !

قلت: ألا أبعثُ إلى عمر ؟

فسكت.

ثم دعا وصيفاً بين يديه، فسارَّه، فذهب.

فإذا عثمان يستأذن. فأَذِن له. فدخل.

فناجاه النبي ﷺ طويلاً.

ثم قال له: ياعثمان، إن الله عز وجل مُقَمِّصُك قَميصاً [يعني به الخلافة] فإذا أرادك المنافقون على أن تخلعه، فلا تخلَعْه لهم ولا كرامة.

قالَها له مرتين أو ثلاثاً[2].

قال النعمان بن بشير الأنصاري الراوي عن عائشة: ياأمَّ المؤمنين، أين كان هذا الحديثُ عنك ؟

قالت له: نسيتُه والله، وما ذكرْتُه !

فلما علمَ معاويةُ بالحديث، طلب من عائشة أن تكتُبَه له، فكتبته وأرسلَته له إلى الشام[3].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الفضائل ومسلم في كتاب الفضائل.

(٢) أخرجه الترمذي في مناقب عثمان. وأحمد في المسند. انظر صفة الصفوة ١: ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٧: ٢٠٨.

وهذا سبب عدم استقالة عثمان حتى قتل

٦ ـ روى الترمذي عن أبي سهلة قال: سمعتُ عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول يومَ الدار: إن رسول الله ﷺ عَهِدَ إلي عَهداً، فأنا ممتثلٌ له، وصابرٌ عليه إن شاء الله.

فصبرَ حتى قُتلَ رحمه الله شهيداً[١].

الرسول يخبر عن قتل عثمان مظلوماً

٧ ـ روى الترمذي وأحمد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: ذكرَ رسول الله ﷺ الفتنة، فقال: يُقْتَلُ فيها هذا المقنَّعُ يومئذٍ مظلوماً.

قال ابن عمر: فنظرتُ إلى المقنَّع، فإذا هو عثمان بن عفان[٢].

الرسول يخبر أن عثمان على الهدىٰ

٨ ـ روى الترمذي عن أبي الأشعثِ الصنعاني قال: قامَ خطباءٌ بالشام بعد مقتل عثمان، وفيهم رجال من أصحاب رسول الله ﷺ.

فقام آخرهم رجل، يُقال له مُرَّةُ بن كَعْب. فقال: لولا حديثٌ سمعْتُه من رسول الله ﷺ ماقمت.

ذكر رسول الله ﷺ الفتن، فقَرَّبها، فمرَّ رجلٌ مقنَّعٌ في ثوب. فقال رسول الله ﷺ: هذا يومئذٍ على الهدى.

فقمتُ إليه، فإذا هو عثمان بن عفان.

فأقبَلتُ عليه بوجهه، ثم قلت: يارسولَ الله، تعني هذا؟

قال: نعم[٣]!!!

كان عثمان في الفتنة يعرف حقائق الأمور

تدلُّنا هذه الأحاديث الصحيحةُ أن رسول الله ﷺ أخبرَ عثمان بما سيجري له، وأنَّه على الهدى وطلب منه أن يَصبرَ على البلاء، وأن لا يتنازل عن الخلافة لأنه سيموتُ شهيداً.

ولقد كان عثمانُ أيام الفتنة والمحنة، يعلمُ ما سيجري له، وما ستنتهي

---

(١) رواه الترمذي في كتاب المناقب. باب مناقب عثمان.

(٢) رواه الترمذي في مناقب عثمان. وأحمد في مسند ابن عمر.

(٣) رواه الترمذي في مناقب عثمان.

إليه الفتنة، لِما سمعَه من رسول الله ﷺ.

كان عثمانُ يوقنُ أن الخوارجَ السبئيّين أصحابُ فتنة، وأنهم على باطل، وأنهم لن يتوقّفوا ولن يسكتوا، وأنهم سينجَحونَ في قتْلِه.

وما سننتهي إليه

ولعلَّ هذا ما يُفَسِّر لنا سِرَّ إصرارِ عثمان على عدم التنازل عن الخلافة، فهي قميصٌ قمَّصه الله له، وألبَسه إياه، ولا يجوزُ أن يخلعه، ولو طلب المنافقون السبئيّون خلعَه؛ لأنهم على باطل. هذا ما أوصاه به رسول الله ﷺ، وما أشار عليه به عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

ولعلَّ هذا ما يفسِّر لنا أيضاً سرَّ إصرارِ عثمان على عدم القتال في المدينة، وأَمْرَه الجازم الصارمَ للصحابةِ وأبنائِهم بإلقاءِ السلاح، والعودة إلى منازلهم!

رضي الله عن عثمان وأرضاه، كيف صبرَ واحتسب، واستعانَ بالله، واستسلمَ لقَدَرِ الله، وكان يراقبُ مصرعَه، وينتظرُ استشهاده، وآثرَ أن يَفدي الأمة به، وأن لا يُسفَكَ بسببه دم!!

ابن عمر يوضح للمصري بعض الشبهات حول عثمان

٩ - روى البخاري والترمذي عن عثمانَ بن عبد الله بن موهب، قال: جاءَ رجلٌ من أهل مصر، يريدُ حجَّ البيت، فرأى قوماً جلوساً.

فقال: مَن هؤلاء القومُ؟

قالوا: هؤلاء قريش!

قال: فمن الشيخُ منهم؟

قالوا: عبدُ الله بن عمر.

قال: ياابن عمر: إني سائلُك عن شيء، فحدِّثني، هل تعلمُ أن عثمانَ فرَّ يومَ أُحُد؟

قال ابن عمر: نعم!

قال: هل تعلمُ أنه تغيَّب عن بدر ولم يَشهَدْها؟

قال ابن عمر: نعم!

قال: هل تعلمُ أنه تغيَّب عن بيعة الرضوان ولم يشهدها!

قال ابن عمر: نعم!

قال الرجل: اللهُ أكبر!

قال ابنُ عمر: تعالَ أُبيِّنْ لك.

أمَّا فرارُه يوم أُحُد، فأشْهَدُ أن الله عفا عنه وغفر له. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وأما تغيُّبُه عن بدر، فإنه كان تحتَه رقية بنت رسول الله ﷺ، وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: إن لكَ أجرَ رجلٍ ممن شهدَ بدراً وسهْمَه.

وأما تغيُّبه عن بيعة الرضوان، فلو كان أحدٌ أعزَّ ببطنِ مكة من عثمان لبعثه، بعثَ رسول الله ﷺ عثمان، وكانت بيعةُ الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: هذه يدُ عثمان. فضربَ بها على يده، وقال: هذه لعثمان!!

ثم قال ابن عمر للرجل المصري: اِذهبْ بها الآن معك[1] !!

حذيفة بن اليمان يعلق على استشهاد عثمان

١٠ ـ لحذيفةَ بن اليمان رضي الله عنه كلامٌ عجيب، يعلِّقُ به على قتلِ عثمان رضي الله عنه.

روى زيدُ بن وهب عن حذيفة رضي الله عنه قال: أول الفتن قتل عثمان وآخر الفتن خروج الدجال، والذي نفسي بيده، لا يموت رجلٌ وفي قلبه مثقال حبة من حبِّ قتل عثمان إلا تبع الدَّجال إن أدركه، وإن لم يدركه آمن به في قبره!

---

(١) رواه البخاري في الفضائل. والترمذي في مناقب عثمان.

وروى محمد بن سيرين عن حذيفة رضي الله عنه قال: اللهم إن كان قتلُ عثمان بن عفان خيراً، فليس لي فيه نصيب، وإن كان قتلُه شراً، فأنا منه بريء، والله لئن كان قتْلُه خيراً، ليحلِبُنّه لَبَناً، وإن كان قتلُه شراً، لَيَمتَصُّنَّ به دماً.

وروى أبو عبد الله الحراني أن حذيفة رضي الله عنه، لما مرضَ مرضه الذي ماتَ فيه، كان في بيته وعنده رجلٌ من إخوانه، وهو يكلمُ امرأته ويناجيها، ففتح عينيه وقال لهما: ما الأمر ؟

قالا: خيرٌ !

قال: شيءٌ تُسِرَّانه دوني ليس خيراً.

قال الرجل: لقد قتل عثمان.

قال حذيفة: إنا لله، وإنا إليه راجعون. اللهم إني كنتُ من هذا الأمر بمعزل، فإن كان قتلُه خيراً، فهو لمن حضَرَه، وأنا منه بريء، وإن كانَ قتْلُه شراً، فهو لمن حضره، وأنا منه بريء. اليوم تغيَّرَت القلوب ياعثمان، الحمدُ لله الذي سبق بي الفتن، قادَتَها وعُلوجَهَا[1].

ابن المسيب يعلل سر انحراف ابن أبي حذيفة

١١ ـ قال يحيى بن سعيد وعبد الله بن سعيد بن ثابت: سأل سائلٌ سعيدَ بن المسيب عن محمد بن أبي حذيفة بن عتبة [وكان ربيبَ عثمان، ابن زوجته، يتيماً في حجره]: ما دعاهُ إلى الخروج على عثمان ؟

فقال سعيد بن المسيب: كان يتيماً في حِجْر عثمان، فكان عثمان والي أيتامِ أهلِ بيته، ومُحْتَمِلَ كَلِّهم ونفقاتِهم، فلما ولي عثمان الخلافة، طلبَ منه ربيبُه محمداً أنْ يولِّيه عملاً !

فقال له عثمان: يابُني، لو كنت رضاً وصالحاً وأهلاً للعمل لاستَعْمَلْتُك وولَّيتك عملاً، ولكنك لست أهلاً لذلك !!

---

(١) انظر أقوال حذيفة هذه في البداية والنهاية ٤: ١٩٢.

قال له محمد: إذن ائذن لي لأخرجَ بحثاً عن عمل يقوتُني.

قال له عثمان: اذهبْ حيثُ شئت.

وجهَّزه عثمانُ من عنده، وأعطاه، فذهبَ محمد بن أبي حذيفة إلى مصر، وهو حاقدٌ على عثمان، لأنه لم يولِّه ولايةً، وهناك التفَّ حوله السبئيّون، واستمالوه إليهم![1]

ابن المسيب يعلل تأثر عمار بالشبهات

١٢ ـ وسُئِلَ سعيدُ بن المسيب عن سببِ وقوفِ عمار بن ياسر رضي الله عنه ضدَّ عثمان، وتأثُرِه بدعاية السبئيّين [مع أنه لم يكن سبئياً مثلَهم رضي الله عنه].

فقال: كان بين عمار وبين عباس بن عتبة بن أبي لهب كلام، فضَرَبهما عثمان، فأورثَ ذلك بين آل عمار وآل عتبة شرّاً، وأورثَ ذلك تغيُّراً من عمار على عثمان.

ولم يُفصِّل سعيدُ بن المسيب السببَ الذي ضُربَ فيه ومن أجله عمار[2].

سالم بن عبد الله يعلل تأثر محمد بن أبي بكر بالشبهات

١٣ ـ وسألَ مُبَشِّر سالمَ بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم عن محمد بن أبي بكر الصديق: ما دَعاه إلى الوقوفِ ضدَّ عثمان؟

قال سالم: الغضبُ والطمعُ!

قال مبشر: ما الغضبُ وما الطمع؟

قال سالم: كان محمد بن أبي بكر من الإسلام بالمكان الذي هو به، فهو ابنُ أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وغَرَّهُ أقوام فطَمِع، وكانت له دالة.

فلزِمَه حق، فأخذَه عثمان بالحق، وضرَبه على ظهره، ولم يُدْهِن!

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٩٩.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ٣٩٩.

فاجتمع في نفس محمد هذا وهذا، ووقفَ ضدَّ عثمان، وصار مُذَمَّماً بعد أن كان محمداً[1].

ابـن كثير يعلـل عدم قتال الصحابة للسبئيين

١٤ ـ ونختتمُ هذه الأقوال بالتساؤلِ الذي أثاره الإمامُ المؤرخُ ابنُ كثير رحمه الله، والأجوبةِ الرائعة التي سجَّلها.

قال: إن قالَ قائل: كيفَ قُتِلَ عثمان بالمدينة؟ وفيها مجموعةٌ من كبار الصحابة؟ ولماذا لم يمنعوا قتله؟

والجواب من وجوه:

ما كان الصحابة يتـوقعـون قتـل عثمان

أَحدها: أنه لم يكنْ أحدٌ من هؤلاءِ الصحابة يظنُّ أنَّ الأمر سوفَ ينتهي بالخوارج إلى قتل عثمان، فإنهم لم يعلنوا هدَفَهم بقتله، بل لعلَّ معظَمهم ما كان في أولِ الأمرِ يريدُ قتلَه.

لقد طلبوا منه إحدى ثلاث: إما أن يعزلَ نفسه، أو أن يُسلمَ إليهم مروان بن الحكم، أو يقتلوه!

ولقد كان معظمُ الصحابة يرجون أن يسلمَ مروان، أو أن يعزلَ نفسَه، وبذلك يستريح من هذه المحنة.

وماكان الصحابة يظنُّون أن يقع القتل، ولا أن يجترىءَ عليه القوم إلى هذا الحد، ويقوموا بقتله!

الصحـابـة قـاتلـوا دونه لكنه أمرهم بالكف عن القتال

ثانيها: أن الصحابة دافعوا عن عثمان، ونصَروه، ومانعوا دونه أشدَّ الممانعة، بل قاتل بعضُهم دونَه.

ولكن لما تطورت المحنة، أمر عثمانُ الصحابةَ بكفِّ أيديهم، وأقسمَ عليهم بالعودةِ إلى منازلهم، ونفَّذوا أمر عثمان على كره منهم، لأنهم يعلمون أن تنفيذ أمر الأمير عبادةٌ وطاعة، وأنَّ مخالفته معصية.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٤٠٠.

ثالثها: أن هؤلاء الخوارج السبئيّين اختاروا وقتاً مناسباً لهم لاحتلال المدينة، وهو خروج كثير من أهل المدينة للحج، ولم يبقَ بها إلا قليلٌ من أهلها، القادرين على حمل السلاح.

أهل المدينة قلائل أمام السبئيين

ولما علم الخوارجُ بتوجُّه الجيوش من مصر والشام والكوفة والبصرة لنجدةِ عثمان، وبقربِ عودة حُجّاج أهل المدينة إليها، عجَّلوا بقتلِ عثمان، قبلَ وصولِ النجدات.

رابعها: كان عدد الخوارج السبئيّين كثيراً بالقياس إلى أهل المدينة المقاتلين، حيث كانوا ثلاثة آلاف مقاتل، ولعلَّه لم يكن في المدينة هذا العددُ من أهلها المقاتلين، لأن الناس كانوا في الثغور والأمصار والبلدان المفتوحة.

ومع هذا كان كثيرٌ من الصحابة قد اعتزلوا الفتنة، ولَزموا بيوتهم، ومَن كان يأتي للصلاة في المسجد منهم، كان لا يأتي إلا ومعه السيف.

كثير منهم اعتزلوا الفتنة

ولو أرادَ هؤلاء الصحابةُ صرفَ الخوارجِ عن دار عثمان، فربما لم يستطيعوا ذلك.

ثم إن كبار الصحابة ـ كعلي وطلحة والزبير ـ قد بعَثوا أولادهم إلى عثمان، ليكونوا معه، مُدافعين عنه في الدار، وقامَ هؤلاء الأبناءُ بواجبهم خير قيام، وقاموا بمقاتلةِ الخوارج، ولم يتوقَّفوا عن القتال إلا بعد ما كلَّفهم عثمان وأقسم عليهم بذلك!

أبناء الصحابة دافعوا عن عثمان

أما ما يذكره بعضُ الناس من أنَّ بعضَ الصحابة ـ كعلي وطلحة والزبير ـ أسلمَ عثمان وخذلَه، ورَضي بقتله، فهذا باطل.

لم يصح عن أحدٍ من الصحابة أنه رضيَ بقتل عثمان. بل إنَّ كلَّ صحابي كرهَ قتله، ومقَتَه، وسبَّ من فعلَه.

لم يرض صحابي بقتل عثمان

ولكنَّ بعضهم كان يودُّ لو أن عثمان خلعَ نفسه، كعمار بن ياسر[1].

رضيَ الله عن شهيد الدار عثمان بن عفان وأرضاه، ورضي الله عن جميعِ أصحابِ رسول الله ﷺ.

* * *

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٤ : ١٩٧ ـ ١٩٨. بتصرف في الصياغة واختصار. لكن هذا مضمون ما قاله ابن كثير.

القبسة الخامسة

علي بن أبي طالب رضي الله عنه

بين الاستخلاف والاستشهاد

تمكن الخوارج السبئيون من قتْلِ الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وكان ذلك قبل غروب الشمس يوم الجمعة الثامن عشر من شهر ذي الحجة، سنة خمس وثلاثين.

السبئيون يحتلون المدينة

وكان أمير السبئيين في المدينة هو «الغافِقِيَّ بن حَرْب العَكّي» بينما كان شيطانهم الحقيقي «عبد الله بن وهب بن سبأ» معهم.

وكان «الغافقي بن حرب» هو الحاكم الفعليَّ للمدينة، في أيام حصار عثمان رضي الله عنه، والأيامِ التي تلت استشهاده.

أي أن المدينة كانت في هذه الأيام تحت حكمِ وسيطرة الخوارج السبئيّين.

وغير متفقين على الخليفة الجديد

ولم يكن السبئيّون متفقين فيما بينهم ـ قبل قتل عثمان ـ على الخليفة، الذي سيأتي بعده، بل كانوا مختلفين على الخليفة الجديد.

فنحن نعلم أن السبئيّين ثلاثُ فِرَق: من مصر والكوفة والبصرة، وهوى سبئيي مصر مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهوى سبئيي الكوفة مع الزبير بن العوام رضي الله عنه، وهوى سبئيي البصرة مع طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

لـم يكـن السبئيّـون متفقيـن إلا علـى قتـلِ عثمـان، وإفسـادِ حيـاة

المسلمين، وإحداثِ الفُرقة بينهم، ولهذا لم يبحثوا أمْرَ الخليفة بعد عثمان.

والمسلمون بدون خليفة، وهذه أولُ مرة تحصل، ومضى على قتل خليفتهم ودفنِه عدةُ أيام، فماذا سيفعل قادة السبئيين؟ وكيف سيتصرف شياطينهم كعبد الله بن سبأ والغافقيِّ بن حرب والأشتر النخعي، وحكيمِ بن جَبَلَة؟ لابد من تصرُّفٍ يحلّون به المشكلة.

كبار الصحابة يرفضون دعوة السبئيين للبيعة

استمرَّ قادةُ السبئيين خمسةَ أيام، وهم يتصلون بكبار الصحابة ويطلبون من الواحد منهم أن يكونَ خليفة ليبايعوه.

وكان الصحابةُ الكرام يرفضون كلامَ السبئيين، ويردّونهم، بل كانوا يلعنونهم لإقدامهم على سفك دم عثمان!!.

وقد بقي على قيد الحياة خمسةٌ من الصحابة العشرة المبشرين بالجنة، وهم: علي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، رضي الله عنهم بينما توفي الخمسة الآخرون وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وأبو عبيدة عامر بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم.

علي وطلحة والزبير يرفضون مبايعة السبئيين لهم

كان السبئيون المصريون يأتون عليَّ بن أبي طالب ـ لأن هواهم معه ـ ويطلبون منه الرضى لهم بمبايعته أميراً للمؤمنين، فيرفض ذلك، ويتبرأ منهم ويلعنهم.

وكان السبئيّون الكوفيون يأتون الزبير، ويطلبون منه مبايعتَه أميرًا للمؤمنين، فيرفض ذلك، ويتبرأُ منهم، ويلعنهم.

وكان السبئون البصريون يأتون طلحة ويطلبون منه ذلك، فيرفضه ويتبرأ منهم ويلعنهم.

حاوَلوا ذلك عدةَ مرات مع هؤلاء الصحابة الثلاثة، ولكنهم أصروا على الرفض.

فاتفقتْ كلمةُ طوائفِ السبئيّين الثلاثة، على تجاوُزِ علي وطلحة والزبير، وعدم انتخاب أي واحد منهم، والذهابِ إلى الصحابي الرابعِ المبشَّرِ بالجنة، سعدِ بن أبي وقاص، رضي الله عنه.

السبئيون يذهبون إلى سعد بن أبي وقاص للخلافة

وكان سعد، وسعيد بن زيد، قد اعتزلا الفتنة، وأقامَ كلٌّ منهم في أرض له بمنطقة «العَقيق» ـ القريبة من المدينة ـ

قال السبئيّون لسعد: إنك خالُ رسول الله ﷺ، وأنت أحدُ العشرة المبشرين بالجنة، وقد توفي رسولُ الله ﷺ وهو عنك راضٍ، وقد جعلك عمرُ رضي الله عنه في أهل الشورى، ونحن مجتمعون عليك، مُجْمِعون على مبايعتك أميرًا للمؤمنين، فقم لنبايعك.

وسعد يرفض دعوتهم

فردَّ عليهم سعدٌ عَرْضَهم قائلاً: أنا وابنُ عمر قد خرجْنا منها، عندما اجتمع أهل الشورى، وبايَعوا عثمان، ولا حاجةَ لي فيها أبدًا.

ثم تمثَّل سعدٌ بقول الشاعر:

لا تَخْلِطَـنَّ خبيثـاتٍ بطَيِّبَـةٍ ... وَاخْلَع ثِيابَكَ مِنْها وَانْجُ عَرْيانا

وعبد الله بن عمر يرفض دعوتهم

ولما سمعوا رفْضَ سعد، توجَّهوا إلى عبد الله بن عمر، وقالوا له: أنت ابن عمر بن الخطاب، فقم بهذا الأمر.

فردَّ عليهم قائلاً: إن لهذا الأمر انتقاماً، ووالله لن أتعرضَ له.

فوجىء السبئيّون برفض الصحابة الخمسة قبولَ الخلافة، والقعودَ للبيعة، تحتَ سيوف السبئيّين، وفي ظل احتلالهم للمدينة، ولم تُجدِ معهم محاولاتهم ـ التي استمرت خمسة أيام ـ شيئاً!!

وقعوا في حيرة من أمرهم، لا يدرون ماذا يفعلون.

رد علي على دعوة بعض الصحابة لمبايعته

وأتى بعضُ المسلمين ـ من غير السبئيّين ـ إلى عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وطلبوا مبايعتَه أميرًا للمؤمنين، فرفض، وطالَبَ بجعْلها شورى، وقال لهم: إن عمر رجلٌ مبارك، وقد جعلها شورى، وعلى الناس أن يجتمعوا ويتشاوروا، ليختاروا أمير المؤمنين.

وقال بعضُ المسلمين: إنْ رجعَ الناسُ إلى بلدانهم، ولم يتم اختيارُ الخليفة، لم نأمن اختلافَ الناس وفساد الأمة، ولا بد من المسارعة باختيارِ الخليفة.

استمرتْ محاولاتُ السبئيّين لاختيار الخليفة خمسة أيام بدون نتيجة، من السبت إلى الأربعاء[1].

جمع السبئيين لأهل المدينة

وفي اليوم السادس، وهو يومُ الخميس، الرابعُ والعشرون من ذي الحجة، قام السبئيّون بجمعِ أهل المدينة ـ كرهًا ـ في المسجد.

ولم يكن مع المجتمعين طلحةُ والزبير وسعد، لأنهم خرجوا إلى أراضيهم خارجَ المدينة.

وبعدما جمعوهم قالوا لهم: يا أهلَ المدينة: أنتم أهلُ الشورى، وأنتم أهلُ الحل والعقد في الأمة، وبرضاكم تنعقدُ الإمامة، وأَمْرُكم نافذٌ في الأمة، فاختاروا منكم رجلاً، وبايعوه أميرًا للمؤمنين، ونحن نتابعُكم ونوافقكم على مَنْ تختارون!

ويمهلونهم يومين لاختيار الخليفة

ثم هدَّدوا أهلَ المدينة قائلين: لقد أجَّلْناكم يومين لتختاروا الخليفة، والله لئن لم تختاروا الخليفةَ فيهما، لنقتلَنَّ عليًا وطلحة والزبير، وأُناسًا كثيرين منكم!![2].

فخاف أهلُ المدينة أن ينفذَ الخوارجُ السبئيّون تهديدَهم، وهم قومٌ قتَلَة، أَقدموا على قتل أمير المؤمنين عثمان، فما الذي يمنعُهم من تنفيذِ تهديدِهم؟

جو اختيار علي للخلافة

في هذا الجوِّ المكروب، وفي هذا الوضع الذي احتلَّ فيه السبئيّون

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٤٣٢ ـ ٤٣٣.
(٢) تاريخ الطبري ٤: ٤٣٣ ـ ٤٣٤.

المدينة، وألزموا أهلَها باختيار أميرِ المؤمنين، توجَّهَ أهلُ المدينة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

إن الجوَّ جوُّ إكراهٍ ورعب، من قِبَلِ هؤلاء القتلة الخوارج، وإن الموتَ ينتظرُ أهلَ المدينة، إنْ لم يختاروا الخليفة خلال مدة الإنذار !!

الحوار بين علي وأهل المدينة

جاءَ أهلُ المدينة إلى عليّ بن أبي طالب، وقالوا له: تعالَ نبايعْك!! ألا ترى مانزلَ بالإسلام ؟ أَلا ترى إلى ما ابتُلينا به ؟أَلا ترى هؤلاء القوم ؟

فردّ عليهم عليّ قائلاً: دَعوني، والتَمِسوا غيري، فإنّا مستقبلون أمرًا، له وُجوه، وله أَلوان، لا تقومُ له القلوب، ولا تثبتُ عليه العقول !!

قالوا له: نَنشُدُكَ اللهَ أنْ توافق على أنْ نبايعك، وأنْ تقومَ بهذا الأمر، أَلا ترى ما نرى ! أَلا ترى الإسلام ! أَلا ترى الفتنة ! ألا تخافُ الله!!!

علي يرضى بمبايعته من يختارون

اضطرّ عليّ رضي الله عنه أمامَ إلحاح كبار الصحابة إلى التراجع، والقبولِ بما طلبوه منه.

قال لهم: اِعلموا أني إنْ أجبتُكم إلى ما تطلبون، ورضيتُ بيعتكم، فسوفَ أحملُكم على ما أَرى، وأركبُ بكم ما أعلم. وإنْ تركتُموني واخترتُم غيري، فهذا أفضلُ عندي، وإنما أنا كواحدٍ منكم، إلا أنني أَسمعُكم وأَطوعُكم لمن ولَّيتُموه أمْرَكم !

لقاء الجمعة في المسجد لمبايعة علي

ثم افترقوا، واتفقوا على الالتقاءِ في الغد، وهو يومُ الجمعة، الذي ينتهي به إنذارُ السبئيّين لهم.

علم السبئيونَ بتوجُّه أهلِ المدينة إلى مبايعةِ علي، وبموعد اللقاءِ في المسجد يوم الجمعة.

فرحَ السبئيّون المصريون ـ وفيهم رأسُ الفتنة عبدُ الله بن سبأ ـ وهم الذين قتلوا عثمان ـ لأن هواهم كان مع علي، واعتبروا اختيارَه أميرًا للمؤمنين انتصارًا لهم، على فِرَقِ السبئيّين الآخرين.

فرح سبئيي مصر وغضب سبئيي الكوفة والبصرة

وبينما كان هؤلاء فرحين، كان سبئيو الكوفةِ غاضبين على الزبير، لأنه لم يوافقْ على الاستخلاف، كذلك كان سبئيو البصرة غاضبين على طلحة، لنفس السبب.

واعتبرَ كلُّ فريق نفسَه مخفقًا مهزومًا، لأنه لم يتمكنْ من استخلافِ مَنْ يهوى ويريد.

وبذلك صارَ سبئيو البصرة والكوفة أَتباعًا لسبئيي مصر، وحشوةً فيهم !!

ولكنهم كانوا حريصين على إنفاذ البيعةِ للخليفة الجديد، وإنهاءِ هذه المشكلة !

إحضار طلحة والزبير لمبايعة علي

قال السبئيّون: لابدّ أنْ تتمّ البيعةُ لعلي، لأن أهلَ المدينة يريدونه، ولا بدّ أنْ يبايعَ له الجميع، بمن فيهم طلحةُ والزبير.

كان الزبيرُ بن العوام رضي الله عنه خارجَ المدينة، فأَرسلوا إليه سبئيًا بصريًا، ليأتي به، ليحضرَ بيعة عليّ يومَ الجمعة، فذهب إليه زعيُم سبئيي البصرة حكيمُ بن جبلة في جماعة، فجاؤوا به، يَحُدّونه بالسيف، مُكْرَهًا، ليحضرَ اللقاء.

وكان طلحةُ بن عبيد الله رضي الله عنه خارج المدينة، فأرسلوا إليه سبئيًا كوفيًا، ليحضرَ بيعةَ عليّ يومَ الجمعة، فذهب إليه زعيمُ سبئيي الكوفة الأشترُ النخعي في جماعة، فجاؤوا به، يَحُدّونه بالسيف، مُكْرَهًا، ليحضرَ اللقاء.

لقاء الجمعة ٢٥ ذو الحجة في المسجد النبوي

وفي يوم الجمعة، الخامسِ والعشرين من ذي الحجة، سنة خمس وثلاثين، اجتمعَ الصحابة في المسجد، وكانوا تحت حراسةِ وسلطانِ السبئيّين، الذين كانوا يَقفون على رؤوسهم بالسيوف !!

وجاء عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وصعدَ المنبر، وقال: يا أيها الناس، إنّ هذا أمرُكم، ليس لأحدٍ فيه حق، إلا مَن أَمرتم وبايعتم.

علي يحيل أمر الخلافة لأهل الحل والعقد

وقد افترَقْنا بالأمس على أمر. فإن شئْتُم قعدتُ لكم، وبايعْتُموني، وأَمضينا ما اتفقْنا عليه بالأمس، وإنْ لم ترَوْا ذلك، فاختاروا مَن تشاؤون، ولا أجدُ في قلبي شيئًا على أحد، وسأبايعُه معكم !!

قال له الصحابة: نحنُ على مافارقْناك عليه بالأمس، وقد رضينا بك أميرًا للمؤمنين. ابسطْ يدك نبايعْك.

فقعدَ عليّ رضي الله عنه للبيعة، وأَقدمَ عليه الصحابة يبايعونه.

مبايعة جميع الصحابة في المدينة لعلي

وجاءَ الصحابةُ الذين اعتزلوا الفتنة، كسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد، ومحمد بن مسلمة، وغيرهم ـ رضوان الله عليهم ـ وبايَعوا عليًا رضي الله عنه.

وبذلك تمت البيعةُ لعلي، من الصحابة جميعًا، لم يتخلّفْ عن بيعتِه واحد منهم، وبعد ذلك بايعهُ باقي الناس، ومنهم قوات السبئيّين التي تحتلُّ المدينة.

وقال له بعضُ الصحابة لما بايعوه: نبايعُ على إقامةِ كتاب الله، في القريبِ والبعيد، والعزيزِ والذليل، فبايَعَهم على ذلك[1].

خطبة علي بعد البيعة

وبعدما بايعه الناس، قامَ وخطبَ في الناس، وكان مما قاله: «إن اللهَ عز وجل أنزلَ كتابًا هاديًا، بيّنَ فيه الخيرَ والشر، فخُذوا بالخير، ودَعوا الشر. وعليكم بالفرائض، أدّوها إلى الله سبحانه، يؤدِّكم إلى الجنة.

وإن الله حَرَّم حُرَمًا غيرَ مجهولة، وفضَّلَ حرمةَ المسلم على الحُرَمِ كلِّها، وشدَّ المسلمين بالإخلاصِ والتوحيد.

والمسلمُ من سلم المسلمون مِن لسانه ويده إلا بالحق، ولا يحلُّ أذى المسلم، إلا بما أَوجبه الله عليه.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٤٣٤ ـ ٤٣٥.

بادِروا أمْرَ العامة، وخاصّةُ أحدكم الموت، فإن الناسَ أمامَكم، وخلْفكم الساعةُ تَحْدوكم، فتخفَّفوا، تلْحَقوا، وإنما ينتظرُ الناسُ أُخراهم.

اتقوا الله عبادَ الله، في عبادِه وبلادِه، وإنكم مسؤولون عن كلِّ شيء، حتى عن البقاعِ والبهائم.

وأَطيعوا اللهَ عز وجل ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخيرَ فخُذوا به، وإذا رأيتم الشرّ فدَعوه.

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١) [الأنفال: ٤١]».

بيعة علي صحيحة وفق الأصول الشرعية

وبهذا تمت البيعةُ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكانت بيعةً صحيحةً على الأصول الإسلامية، ومِن قِبَلِ أهلِ الشورى والحلِّ والعقدِ من المسلمين، ولم يتخلّفْ عن بيعته أحدٌ من أهل المدينة.

ولم يَشُبْ بيعةَ عليّ سيطرةُ السبئيّين على المدينة، ولا التحاقُهم بجيشه فيما بعد، لأنه لا بدَّ من بيعةِ أميرٍ للمؤمنين، ليجمعَ كلمةَ المسلمين، ويُديرَ شؤونَهم، وبعد ذلك يتفرغُ لمحاسبةِ ومحاكمةِ ومعاقبة الذين قاموا بالإفسادِ، وقتلِ عثمان رضي الله عنه.

وما دام الذين اختاروه ورضوا به وبايَعوه هم أصحابُ الأمر، وأهلُ الحلِّ والعقد والشورى من الصحابة، فقد كان خليفةً بصورةٍ شرعيةٍ سليمة.

علي لم يطلب الخلافة ولم يسعَ إليها

ونرى أنَّ إقدامَ عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه على الاستخلاف، كان بعد طلبٍ وإلحاحٍ من كبار الصحابة وصالحي المسلمين، وكان بعدَ

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٤٣٦.

رفضٍ منه وتمنُّع، ولكنه في النهاية نزلَ على ماأَرادوا ! فلم يَطلب الخلافة، ولم يُردها، ولم يَسع إِليها، ولم يتآمرْ على عثمان رضي الله عنه، لتصلَ الخلافةُ إليه، كما يزعمُ الكاذبون الوضّاعون من كَتَبَةِ التاريخ !!

قبوله لها حرص على مصلحة الأمة وتضحية من أجلها

ونرى أن قبولَ عليّ رضي الله عنه بالاستخلاف، حرصٌ منه على إنقاذِ المسلمين، وجمعِ كلمتهم، وحلّ مشكلتِهم، وهو يعلمُ أن خلافتَه غُرْمٌ وليست غُنْمًا، ومجاهدةٌ وليست مكسبًا، ومكابدةٌ وتعب، وليست مصالحَ أو منافع !

لقد كان عليٌّ بقبولِه الخلافة، يعلمُ ما هو مُقْدم عليه، مدركٌ لخطورته، متصورٌ لتبعاتِه، وهو راضٍ بالسير في هذا الطريق الصعب الشائك، والتضحيةِ بكل شيء لمصلحة الأمة.

كان بإمكانِ علي رضي الله عنه أن ينفضَ يديه من الأمر، وأنْ يُؤْثرَ الاعتزال ـ كما فعلَ صحابةٌ كرام أجلاء رضي الله عنهم ـ وبذلك يختارُ الراحةَ والسلامةَ والنجاة بنفسه، ولو فعلَها ما كان آثمًا ولا مقصرًا.

ولكن مَنْ للأمة ؟ ومَنْ لجمعِ كلمتها ؟ ومَنْ لتدبيرِ أمورها ؟

لقد اختارَ عليٌّ رضي الله عنه بقبولِه الخلافة، الحلَّ الأصعب، والخيارَ الأشد، إيثارًا لمصلحةِ الأمة على مصلحته الشخصية، وبذلك كانتْ خلافتُه تضحيةً عظيمة منه، رضي الله عنه !!!.

ولما تمت البيعة لعلي، قال له السبئيّون:

شعر السبئيين وانضمامهم لعلي

خُذْها إِلَيْكَ وَاحْذَرَنْ أَبا الحَسَنْ ... إِنّا نُمِرُّ الأَمْرَ إِمْرارَ الرَّسَنْ
صَوْلَةَ آسادٍ كَأَسْدادِ السُّفُنْ ... بِمَشْرِفِيّاتٍ كَغُدْرانِ اللَّبَنْ
ونَطْعَنُ المُلْكَ بلَيْنٍ كَالشَّطَنْ ... حَتّى يَمُرَّنَّ على غَيْرِ عَنَنْ

وبهذا أَعلنوا انضمامَهم إلى جيشه، وأنهم جندٌ له، سامعون مطيعون، يقاتِلون معه مَن خالفَه وخرجَ عليه.

وهم بذلك يريدونَ مصلحتَهم، حتى لا ينتبهَ المسلمون لهم، ولا يقدروا على محاسبتهم ومعاقبتِهم على قتل عثمان.

وجودهم في جيشه أساس مشكلته

وهذا هو أساسُ مشكلةِ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، التي أَدت إلى مخالفةِ معاوية، ثم طلحة والزبير، ثم وقوعِ الحروب بعد ذلك. وقد ردّ عليّ على كلام السبئيّين السابق بقوله:

إِنّـي عَجَـزْتُ عَجْـزَةً لا أَعْتَـذِرْ سَـوْفَ أَكِيـسُ بَعْـدَهـا وَ أَسْتَمِـرّ
أَرْفَـعُ مِـنْ ذَيْلِـيَ مـا كُنْـتُ أَجُـرّ وَأَجْمَـعُ الأَمْـرَ الشَّتيـتَ المُنْتَشِـرْ
إِنْ لَمْ يشُاغِبْني العَجولُ المُنْتَصِرْ أَوْ يَتْـرُكـونـي وَالسِّـلاحُ يُبْتَـدَرْ[1]

وفي الفترةِ ما بين قتلِ عثمان واستخلافِ علي رضي الله عنهما، خرجَ النعمانُ بن بشير الأنصاري رضي الله عنه من المدينةِ إلى معاوية في الشام، وأخذَ معه قميصَ عثمان الذي قُتل وهو عليه، وكان مُضَمّخًا بالدم، كما أخذَ معه أصابعَ نائلة زوجةِ عثمان، التي قُطعتْ وهي تدافعُ عنه.

قميص عثمان وأصابع زوجته في الشام

وعلقَ معاويةُ رضي الله عنه قميصَ عثمان وأصابعَ نائلة في المسجد، وكان المسلمون في دمشق يأتون ويتأثّرون ويبكون خليفتَهم الشهيد!

وكانوا يتعاهَدون على الثأرِ لعثمان، والانتقامِ من الخوارج السبئيّين الذين قتلُوه.

ومن الصحابةِ الذين كانوا يحثّون بدمشق على الانتقامِ من قتلة عثمان: عبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وأبو أمامة الباهلي. رضي الله عنهم[2].

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٤٣٧.
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٧:٢٢٨.

وبعد ما بويعَ عليّ رضي الله عنه، دخلَ عليه طلحةُ والزبير وبعضُ الصحابة الآخرين، وقالوا له: عندما بايعْناك اشترطْنا إقامةَ الحدود، وهؤلاء القومُ الخوارج، قد اشتركوا في دمِ عثمان رضي الله عنه، ونريدُ منك إقامةَ الحدّ عليهم.

طلحة والزبير يطلبان من علي معاقبة القتلة

فردّ عليهم عليّ: يا إخوتي، إني لا أَجهلُ ما تعلمون، ولكن كيفَ أصنعُ بهؤلاء القومِ القتلة، وهم يسيطرونَ على المدينة، ويَملكونَنا ونحن لا نملكهم، ولا نقدرُ على مواجهتِهم أو الإنكارِ عليهم، فكيفَ يمكنُ أنْ نحاسبَهم أو نعاقبَهم ؟ ولا نملكُ القوةَ لمواجهتهم ؟ ثم إنه قد ثارَ معهم عبيدُكم، وانضمَّ إليهم أعرابُكم، وهم بينكم يسومونكم ما شاؤوا، ويفعلونَ بكم ما أَرادَوا !

رد علي عليهما وحجته في التأجيل

فهل تَجدون مجالاً لتنفيذِ ما تُريدون ؟ وهل تَرون عندنا قدرةً الآن على محاسبتهم ومعاقبتهم؟.

ثم قال عليّ لطلحةَ والزبير ومَن معهما: واللهِ لا أَرى إلاّ ما ترونَ إنْ شاء الله، وأنا معكم في ما تقولون، ولكنَّ أَمْرَ هؤلاءِ الخوارجِ أمرُ جاهلية، ولهم قوة، ومعهم أَعْوان، ولهم مددٌ يأتيهم من البلدان ! ونحنُ تحتَ قوتهم !!

فلو أَخذتُ برأيكم، وحركْتُ هذا الأمر، وعجلتُ بإقامةِ الحدِّ عليهم، لاَنقسم الناسُ ثلاثَ فرق: فرقةٌ ترى ما ترَوْن، وتشيرُ بالإسراعِ في معاقبتهم وإقامةِ الحد عليهم.

علي يصنف الناس ويطلب إمهاله

وفرقةٌ لا ترى ما ترون، بل هي مع هؤلاء الخوارج، ستنتصرُ لهم.

وفرقةٌ ترى التأنّي، وعدمَ الإسراع بمعاقبتهم، وتطالبُ بالانتظار حتى يهدأَ الناس، وتعودَ القلوب إلى أماكنها، وتزولَ هذه الغاشية، وعند ذلك تُؤخَذُ الحقوق، وتُقام الحدود.

فاهدؤوا عنّي، وأَمهلوني حتى تهدأَ الأمور، وبعد ذلك عودوا، لنُقيمَ الحدودَ على هؤلاء[1].

الإسراع في معاقبة القتلى أو تأجيله

وانقسمَ الصحابةُ في المدينة إلى قسمين: قسمٌ يرى رأيَ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ويقولون: إننا لا نقدرُ الآن على الانتصار من هؤلاءِ الأشرارِ قتلةِ عثمان، ولذلك علينا أنْ نؤجّلَ عقوبتَهم، وإقامةَ الحدود عليهم، حتى نتقوّى عليهم.

والقسمُ الآخر يرى الإسراعَ في إقامة الحدود عليهم، وعدمَ تأخيرِ ذلك أو تأجيلهِ، مهما كانت النتائج.

وكان طلحةُ والزبير رضي الله عنهما مع القسم الثاني.

رفض أمر علي بمغادرة الأعراب المدينة

وأمامَ إلحاحِ أصحابِ الرأي الثاني من الصحابة على علي رضي الله عنه، بالإسراعِ في إقامة الحدودِ على قتلة عثمان، خرجَ عليّ في اليوم الثالثِ من خلافته على الناس، وقال لهم: أَخرِجوا عنكم الأعراب، الذين تجمّعوا في المدينة.

وأمَرَ الأعرابَ القادمين من البادية إلى المدينة عند مقتل عثمان بالعودةِ إلى أماكنهم. وقال لهم: أيُها الأعراب، الحقوا بمياهكم.

رفضَ الخوارجُ السبئيّون هذا الأمر من عليّ أمير المؤمنين، واعتبروه خطوةً منه، ليفرّقَ عنهم الغوغاء والرعاع، ليتفرغَ لهم، ويقتصَّ فيهم ـ وهو كذلك! ـ

وحثّوا الأعرابَ على عدمِ الانصراف، وحرّضوهم على العصيان، فاستَجابوا لهم.

علي يُري الصحابة عجزهم أمام السبئيين

ولما رأى عليّ عدمَ استجابة السبئيين والأعرابِ له، دخلَ بيتَه متأثرًا، ودخلَ عليه بعد ذلك طلحةُ والزبير وبعضُ أصحاب الرسول الله ﷺ.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٤٣٧.

فقال لهم: أرأيتمُ ؟ دونكم ثأركمُ فخُذوا به، واقتلوا هؤلاء ! فقالوا: لا نَقْدر !

فقال:

وَلَوْ أَنَّ قَوْمي طاوَعَتْني سَرَاتُهُمْ   أَمَرْتُهُم أَمْراً يُديخُ الأعادِيا

طلحة والزبير يطلبان الذهاب لإحضار الجنود

ثم قال له طلحة: يا أمير المؤمنين، دعني أذهب إلى البصرة لآتيك منها بالجيش والجنود والخيل مدداً لك، لتتقوّى بهم على هؤلاء الخوارج العصاة المحتلين للمدينة.

وقال له الزبير: يا أمير المؤمنين دعني أذهب إلى الكوفة، لآتيك منها بالجيش والجنود مدداً لك.

فقال لهما علي: أَمْهلاني حتى أَنظرَ وأفكِّرَ فيما تقولان[1] !

فعتبا عليه لطَلَبه الإمهال، وكانا يريدانِ منه الإذنَ لهما، ليذْهَبا إلى البصرةِ والكوفة، ويأتيا بالجنود، ليتخلّصا من قبضةِ السبئيّين، ويُسرعا بإقامة الحد عليهم !

بداية الخلاف بين علي وبين طلحة والزبير

وكان هذا الموقف، والحوارُ بينهما وبين عليّ ـ رضي الله عنه ـ بدايةَ الخلاف في وجهات النظر بينهما وبينه، فهما يريدانِ الإسراعَ في معاقبةِ القتلة، وهو يريدُ التأني حتى تهدأ الأُمور.

ثم تتابعت الأحداث، وتفاقمت الخلافات، التي أشغلتْ عليًا عن هذه المهمة، بحيثُ لم يتفرغ لها طيلةَ خلافته رضي الله عنه.

وفي الأيامِ الأولى من خلافة علي، دخل عليه المغيرةُ بن شعبة رضي الله عنه ناصحًا.

المغيرة بن شعبة ينصح علياً

وقال له: يا أمير المؤمنين، إنَّ لك عَلَيّ حقَّ الطاعة والنصيحة؛ لا تتعجَّلْ بعزْلِ الولاةِ الذين جعلهم عثمانُ على الأمصار. أَقْرِرْ معاويةَ

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٤٣٧ ـ ٤٣٨.

على الشام ولا تستبدلْه، وأَقرِرْ ابنَ عامر على البصرة ولا تستبدله، وأَقررْ باقي الولاة على بلدانهم، وبعد أنْ تأتيكَ طاعتُهم وبيعتهم لك، هم وجنودُهم، إمّا أنْ تبقيَهم وإمّا أنْ تستبدلهم!

وكان رأيُ المغيرةِ صائبًا وجيّدًا.

فقال له عليّ: دعْني حتى أنظرَ وأفكّر!

ثم يتراجع عاتباً عليه

فعتبَ المغيرةُ على عليّ، لأنه لم يقبلْ رأيَه فورًا، ولم يأخذْ به مباشرة، وخرجَ من عنده متأثرًا.

ودخلَ عليه في اليوم التالي، ولم يكن ناصحًا في هذه المرة، ولذلك أَلغى رأيه بالأمس. وقال له: أَرى أنْ تسرعَ بعزْلِ معاوية وابن عامر وباقي الولاة، وتطالِبهمْ بالبيعة لك، لتعرفَ مَنْ معك، ومَنَ ليس معك، وتعرفَ المطيعَ منهم لك، وغيرَ المطيع.

ولما خرجَ المغيرةُ من عند عليّ قال: لقدْ نصحتُه والله بالأمس، فلما لم يقبل نصيحتي غششته اليوم[1].

وخرجَ المغيرةُ من المدينة إلى مكة غاضبًا، ثم خرجَ إلى الطائف واعتزلَ الفتنةَ كلَّها، ولم يكن مع أيِّ طرفٍ من أطرافها: لامع علي، ولا مع طلحة والزبير، ولا مع معاوية، رضي الله عن الصحابة أجمعين.

ابن عباس يوجه رأي المغيرة

ودخلَ عبدُ الله بن عباس على عليّ بعد ما خرجَ المغيرةُ من عنده، فسألَه عن ماقاله المغيرة.

قال عليّ: جاءني أمس بكذا وكذا، وجاءني اليوم بكذا وكذا!

قال ابنُ عباس: أما أمس فقد نصحك، وأما اليوم فقد غشَّك!!

وصدقَ ابنُ عباس فيما قال، بل هذا هو ما صرحَ به المغيرة.

قال عليّ لابن عباس: ماذا ترى أنت؟

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٤٣٨.

قال ابنُ عباس ناصحًا: كان الرأيُ أن تخرجَ من المدينة، عندما قُتلَ عثمان، أو قبلَ قتْله، وأنْ تذهبَ إلى بيتك في مكة، وتغلقَ عليك بابك.

رأي ابن عباس في أفعال علي

وعندما يضطربُ المسلمون فيما بينهم، لن يجدوا غيرَك، وسيأتون إليك راجين أنْ تتولّى الخلافة.

أمّا الآن، وبعدما جرى ماجرى، بعد قتل عثمان رضي الله عنه، فإنَّ بعضَ بني أمية سيتهمونك في قتْل عثمان، ويزعمون أن لك يدًا في الأمر، وينشرونَ هذا بين الناس.

وسيطالبُ هؤلاء بما يطالبُ به الآن فريقٌ من أهل المدينة ـ كطلحة والزبير ـ من الإسراعِ بمعاقبةِ قَتَلَة عثمان، وأنت لا تقدرُ على تنفيذ مايريدون.

ابن عباس يشير بإبقاء ولاة عثمان

وأَرى يا أمير المؤمنين، أنْ تقِرَّ ولاةَ عثمان على أعمالهم، وأنْ تقرَّ معاوية بالذات على الشام، وإن لم تفعلْ فإنني أخشى أن لا يُطيعوك، وأنْ يَخرجوا عليك، وأن يتهموك بأمر عثمان.

ردَّ عليّ ما أشارَ به ابنُ عباس وهو نفسُ رأيِ المغيرة بن شعبة السابق ـ وقال: لا بدّ من تغييرِ الولاة، وتعيينِ ولاةٍ جدد.

علي يعزل كل ولاة عثمان وانقسم الناس

وغيّرَ عليّ جميعَ الولاة، وعيَّنَ ولاة آخرين على الأمصار[1].

وذهبَ الولاةُ الجدد إلى أماكن عملهم، فمنهم مَنْ تمكنَ من عمله، واستتبَّ الأمر له، ومنهم من مُنعَ من الوصول إلى عمله.

وانقسمَ المسلمون في البلدان، فمنهم مَنْ أعطى البيعةَ لعلي، ودخلَ في طاعته، ومنهم مَن أعلنَ عدم الدخولِ في طاعته حتى يعاقبَ قتلةَ عثمان، ومنهم مَن وقفَ ينتظر ماستسفرُ عنه الأمور.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٤٣٨ـ٤٣٩.

وكان معاويةُ ممن أعلنَ مخالفتَه، حتى يُقيم الحدَّ على قتلةِ عثمان[١].

طلحـة والـزبير يفارقان علياً

ولما رأى طلحةُ والزبير بطء عليّ في معاقبة قتلة عثمان، عتبا عليه ولم يَرَيا رأْيَه، ولم يَقبلا وجهةَ نظره، ثم بَدا لهما أنْ يفارقاه، فاستأذَنا منه في الذهاب إلى العمرة، فأذنَ لهما.

وغادر طلحةُ والزبير رضي الله عنهما المدينة، قاصدَيْن مكة، لأداء العمرة، وهناك قابَلا أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، التي كانت ما تزال في مكة، منذ أداء مناسكِ الحج[٢].

وجهة نظر علي في قتال معاوية بالشام

ولما أعلن معاويةُ في الشام مخالفتَه لما ذهب إليه علي، وعدمَ مبايعتِه له حتى يقتصَّ من قتلة عثمان، رأى عليّ أنه لا يجوزُ لمعاويةَ وجندِه ذلك، فمبايعةُ أميرِ المؤمنين واجبة، ولابدّ للأمة من أنْ تسمعَ له وتُطيع، ولا يجوزُ شقُّ عصا الطاعة.

وبما أن معاويةَ وأهلَ الشام فعلوها مجتهدين، فوجهةُ نظرهم مرفوضةٌ عند علي، ولذلك لا بدَّ مِن إعادتهم لطاعةِ أمير المؤمنين، وإزالةِ عصيانهم له.

جهزَ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه جيشًا لقتال أهلِ الشام، لخروجهم عليه وعدم طاعتِهم له، وطلبَ مِن ولاتِه في البصرة والكوفة ومصر تجهيزَ الناس لقتال أهل الشام.

ابنـه الحسـن يشير عليه بعدم قتـال معاوية

ودخلَ عليه ابنهُ الحسن ـ رضي الله عنهما ـ ودعاه إلى التأنّي وعدمِ الإقدامِ على قتالِ أهل الشام، والرفقِ بهم، فسيدخلون في طاعته فيما بعد، عندما يزول الإشكال، فرفض علي كلامه، كما رفضَ كلامَ آخرين

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في تاريخ الطبري ٤: ٤٤٢ ـ ٤٤٤.
(٢) تاريخ الطبري ٤: ٤٤٤.

أشاروا عليه بمثل ما أشار به ابنه الحسن، كزيادِ بن حنظلة التميمي[1].

وقبلَ أنْ يتوجّه علي لقتالِ أهل الشام، وَصَلَتْه الأخبارُ المزعجةُ من مكة، باجتماعِ طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم على مطالبةِ علي بالإسراع بمعاقَبة القتلة، الذين هم الآن في جيشه.

وجهة نظر طلحة والزبير وعائشة في الخروج على علي

لقد أَخذوا عليه بُطْأه وتأخيرَه في إقامةِ الحد، وتنفيذ هذا الواجب، ولم يَقبلوا حجتَه واجتهاده ووجهةَ نظره في ذلك.

فأدّاهم اجتهادُهم إلى مطالبةِ علي بالإسراع بذلك، وحثِّ الناس على مطالبته بذلك، وجمْعِ الناس وحشدِهم وتهييجِهم لذلك، ليضغطوا على علي، ويطالبوه بتنفيذِ حكم الله في القتلة، وصارتْ عائشةُ رضي الله عنها تخطبُ في المسلمين، وتحثُّهم على المطالبة بمعاقبة القتلة.

اجتمع الناسُ في مكة على طلحة والزبير وعائشة، واتفقوا جميعاً على مطالبةِ علي بذلك، واستقرَّ رأيهم على الخروج إلى البصرة لهذه الغاية.

عائشة على جملها مع طلحة والزبير للبصرة

أَعَدّوا لعائشةَ الجمل، لتركبه إلى البصرة، واسمه «عَسْكَر»، كان قد اشتراه يَعْلى بنُ أُمَيّة رضي الله عنه من اليمن، ولم توافقْ باقي أمهاتِ المؤمنين رضي الله عنهن على الخروج مع عائشة إلى البصرة، وسارع طلحةُ والزبير وعائشة ومَنْ معهم إلى البصرة.

وكانت عائشةُ رضي الله عنها تقول: إنَّ عثمان قُتل مظلومًا، والأمرُ لا يستقيم ما دام أن الأمرَ والسلطةَ لهؤلاء الغوغاء والخوارج، فاطْلُبوا بدم عثمان، واقتَصّوا من قتلته، تعزّوا الإسلام.

لم يرفضوا خلافة علي ولكن طالبوه بإقامة الحد

وكان هدفُ طلحةَ والزبيروعائشة المحدّد هو: المطالبة بدم عثمان، ومطالبةَ علي بمحاكمةِ ومعاقبة القتلة، السبئيّين، والانتقامِ منهم لجريمتهم.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٤٤٤-٤٤٥.

ولم يكونوا رافضين إِمْرَةَ علي، ولا ناقضين لبيعتِهم له، ولا مطالبين بعزْله وخلْعه، ولا خارجين عليه.

ولكنهم كانوا غيرَ راضين منه، لتأخُّره في معاقبةِ الخوارجِ القتلة، ورِضاه أنْ يكونوا معه في جيشه !![1]

علي يعتبر فعلهم خروجاً عليه

لم يرضَ عليّ مِن طلحةَ والزبير وعائشة هذا التصرف، كما لم يَرْضَهُ من معاوية والشاميين من قبل، واعتبرَه عصيانًا لأميرِ المؤمنين، وخُروجًا عليه، وتفريقًا لكلمة المسلمين.

ورأى أنه لا بدَّ من إزالة هذا العصيانِ والتمرد، وقتالِ هؤلاء الصحابة حتى يعودوا إلى الطاعةِ والجماعة، وبعد ذلك يتفرغ لمعاقبةِ قتلةِ عثمان.

وأَمامَ خروجِ طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة، رأى عليّ نفسَه مضطرًا لتأخير قتالِ المخالفين له في الشام، والبدءِ بقتال جيش طلحة والزبير لإعادتهم إلى الطاعة.

ويتوجه لقتالهم

ندبَ عليٌّ عبدَ الله بن عمر رضي الله عنهم إلى الخروج معه، لقتال الخارجين عن الطاعة، فرفضَ ابنُ عمر ذلك، وقال له: إنما أنا رجلٌ من أهل المدينة، لا أفارقهم، فإنْ يقعدوا أَقعدْ، وإنْ يخرجوا أخرج.

ابن عمر ومعظم الصحابة لا يرون القتال مع علي ولا ضده

وندبَ عليّ الصحابةَ إلى الخروج معه وأمرهم أن يُتْبِعوا نُصْرَتَهم له لطاعتِهم ومبايعتِهم السابقة، ولم يرضَ طاعتَهم حتى يقوموا معه وَيَنْصُروه، ويقاتِلوا معه الذين خالفوه، وأَعَدّوا الجيوشَ لقتاله !

لكنَّ معظمَ الصحابة لم يروْا الخروجَ معه لقتالِ إخوانِه المخالفين له في النظر والاجتهاد، كطلحة والزبير ومعاوية، ولم يروْا قتالَ المسلمين بعضِهم لبعض، واعتبَروا هذه الأحداثَ المتابعةَ بين علي وبين مخالفِيه،

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٤٤٦ ـ ٤٥٤.

من الفتن، التي لايجوزُ الخوضُ فيها ومن ثمّ اعتزلوا هذه الفتن، ولم يشاركوا فيها.

قال الشعبي: واللهِ الذي لا إله إلا هو ماخرجَ مع علي في الفتنة إلا ستةُ صحابةٍ بدريين مالهم سابع، أو سبعةٌ مالَهم ثامن[1].

الصحابة ثلاثة فرق ومعظمهم مع القعود

وقد وقعَ المسلمون في حيرة، هل يقاتلون مع عليٍّ صاحبِ الأمر، ويُعيدون المخالفين له إلى الطاعة؟ أمْ يُقاتلون قَتَلَةَ عثمان السبئيّين المجرمين، المنضمين لجيشِ علي، وهم بذلك يقاتلون عليًا أَميرَ المؤمنين؟ أم يعتزلون الفريقيْن، ولا يشاركون في هذه الفتنة العمياء؟

انقسمَ الصحابةُ إلى ثلاث فرق، وإن كانت الأغلبيةُ منهم هم الذين أخذوا بالخيارِ الثالث، فاعتزلوا الفتنة.

توجَّه علي بجيشه من المدينة إلى البصرة، لإعادة المخالفين له فيها إلى طاعته، وتحرَّكَ معه في جيشه كلُّ الخوارج السبئيّين الذين كانوا في المدينة، وعلى رأسهم شيطانهم الأكبر عبد الله بن سبأ.

عبد الله بن سلام ينصح علياً بعدم الخروج

وقبلَ خروج علي من المدينة قال له عبد الله بن سلام رضي الله عنه: ياأمير المؤمنين: لا تَخرج من المدينة، فوالله لئن خرجت منها لن ترجعَ إليها، ولن يعود لها سلطانُ المسلمين أبداً.

فرفضَ علي الأخذَ بمشورة ابن سلام[2].

الحسن بن علي يعاتب أباه

عسكرَ علي بجيشه في «الرَّبَذَة» تمهيداً للسير إلى البصرة، وهناك دخلَ عليه ابنه الحسن، فقال له: ياأبتِ قد أمرتُك فعصيتني، وأنت الآن خارجٌ إلى العراق، وستقتل غداً بأرضٍ مضيعةٍ لا نّاصر لك!!

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٤٤٧.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ٤٥٥.

فقال له علي: ماالذي أمرتني به فعصيتُك ؟

قال الحسن: حين أُحيطَ بعثمان أمرتُك أن تخرجَ من المدينة، حتى لا يُقتل عثمان وأنت بها، حتى لاتُتهم به، ثم أمرتُك يوم قُتل عثمان أن لا تَقبل البيعة حتى تأتيك وفودُ كلٍّ الأمصار والبلدان، ثم أَمرتُك حين خرجَ عليك طلحة والزبير أنْ تجلس في بيتك، حتى يصطلحوا، فإنْ كان فسادٌ بين المسلمين كان على يدَيْ غيرِك !!

وعلي يعرض له وجهة نظره

فردَّ عليه عليّ قائلاً: أما حين أُحيطَ بعثمان، فقد أُحيط بنا كما أُحيط به، وأما البيعة فإن الأمْرَ أمْرُ أهل المدينة ، وكرهْنا أنْ يضيعَ هذا الأمر، ويكونَ المسلمون بدون إمام. وأما خروجُ طلحة والزبير، فكيف أفعلُ بما قد لزمني، ألستُ مطالَبًا بإخضاعِ المسلمين وإعادةِ الخارجين ؟ أَوَمَنْ تريدني ؟ أتريد أن أكون مثلَ الضبعِ التي يُحاط بها، ثم يُحَلَّ عرقوبها ثم تُخْرَجَ وتُصاد ؟.

وإذا لم أقم بواجبي، فيما لزمني من إمرة المؤمنين فمن يقوم به[1].

حَيرة طارق بن شهاب: ماذا يفعل في الفتنة

ومرَّ على علي وهو بالرَّبَذَة طارق بن شهاب، فلما رأى الجيش قال: ما هذا ؟ قالوا: هذا أميرُ المؤمنين !

قال: ماله ؟

قالوا: خرجَ عليه طلحةُ والزبير، فهو يريد أن يعيدَهما إلى الطاعة !

قال: إنا لله وإنا إليه راجعون ! هل آتي عليًا فأقاتلَ معه هذيْن الرجلين وأمَّ المؤمنين ؟ أم أخالفُ عليًا ولا أقاتلُ معه ؟ والله إن هذا لشديد، وإن هذا لشديد[1] !!!.

وهي حيرة معظم المسلمين

وكلامُ طارق بن شهاب وحيرتُه، هو ما كان يجدُه ويحسُّه ويشعرُ به معظمُ المسلمين في البلدان، من الصحابة والتابعين ! هل يقاتلون مع

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٤٥٦.

علي ؟ أو يقاتلون ضدَّ علي ؟ أو يَقْعُدون عن نصرة علي ؟ كلُّها أمور أَحلاها مُرّ !!

وقبيلَ وصولِ جيش طلحة والزبير البصرة، مَرَّ بهم «مَليحُ بن عوف السلمي» فقال للزبير: يا أبا عبد الله ما هذا ؟

قال الزبير: عَدَوْا على أمير المؤمنين عثمان، فقتلوه، بدون ثأر ولا عُذر.

قال: مَن هم الذين قتلوه ؟

الزبير يبين هدفهم لمليح السلمي

قال الزبير: هم الغوغاء من الأمصار، ونزّاعُ القبائل، ومَن أيّدهم وظاهَرهم من الأعراب والعبيد.

قال: وأنتم ماذا تريدون ؟

قال الزبير: نُنهضُ الناس، ونحثُّهم على القيام بهذا الأمر، ليطالبوا بدم عثمان، لئلا يُبْطَل دمُه ويضيع، فإن في إِبطاله توهين سلطان الله بيننا، وإذا لم يُفطم الناسُ عن أمثال هذا، لم يبقَ إِمامٌ للمسلمين إلا قتلَه هذا الصنفُ من الناس.

قال مليح: والله إنّ تركَ دمِ عثمان لشديد، لكنكم لا تَدرون إلى أين ستسيرُ الأمور !!![1].

طلحة والزبير على مشارف البصرة

ولما وصلَ جيشُ طلحة والزبير إلى مشارف البصرة، كان والي البصرة عثمانُ بن حنيف، فأرسل عثمانُ الصحابيَّ عَمرانَ بن حصين رضي الله عنه ليستطلعَ الخبر.

سأل عمرانُ بن حصين عائشةَ عن سبب قدومها مع هذا الجيش.

عائشة توضح الأمر لعمران بن الحصين

فقالت عائشة: إن الغوغاءَ من أهل الأمصار ونُزّاع القبائل، غزَوْا حرمَ رسولِ الله ﷺ، وأَحدثوا فيه الأحداث الخطيرة، وآوَوا فيه المُحْدِثين

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٤٦١.

والخارجين، واستوجَبوا بذلك لعنةَ الله ولعنةَ رسوله ﷺ، وقَتلوا إِمامَ المسلمين بدون حق، فاستحلّوا بذلك الدمَ الحرام، ونهبوا المال الحرام، وأحلّوا البلدَ الحرام، والشهر الحرام، ومزَّقوا الأعراضَ والجلود، وأَقاموا بين أهل المدينة، وأهلُ المدينة كارهون لمقامهم، رافضون لهم، متضرِّرون منهم، لكنهم غيرُ قادرين على مواجهتهم وإخراجِهم، فخرجْتُ في المسلمين لأُخبرَهم بما يفعله هؤلاء القوم، وبما ينبغي لهم القيامُ به في إصلاح الأمر، قال تعالى: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

فنحن ننهضُ في الإصلاح، وننفذُ أمرَ الله وأمرَ رسول الله ﷺ، على الصغيرِ والكبير، والذكر والأنثى. إننا نأمرُكم بمعروفٍ ونحضُّكم عليه، أو ننهاكم عن منكر ونحثكم على تغييره.

عمران بن الحصين يناقش طلحة والزبير

ولما سمع عمرانُ حجةَ عائشة توجَّه إلى طلحة، فقال له: ما الذي جاءَ بك إلى البصرة؟

قال طلحة: المطالبةُ بدم عثمان.

قال: ألم تبايع عليًا؟

قال طلحة: نعم، بايعْتُه والسيف على عُنُقي، وأنا لا أنقضُ بيعتي له، ولا أقاتلُه إن لم يَحلْ بيننا وبين قتلةِ عثمان، فنحن لا نريدُ إلا الاقتصاصَ من قتلة عثمان!

ثم أتى عمرانُ الزبير، فسأله بما سأل عنه طلحة، وأجابه الزبيرُ بنفس ما أجاب به طلحة، رضي الله عنهم.

عمران ينصح عثمان بن حنيف بالقعود

وعادَ عمرانُ بن حصين إلى الوالي عثمان بن حنيف، وقدَّمَ له تقريرَه، عن هدف طلحة والزبير وعائشة، ثم قال له: والله لتعرِكَنَّكُمُ الحرُب عَرْكًا طويلاً، ثم لا يُساوي مَنْ بقيَ منكم بعد الحرب شيئًا كثيراً!!

قال له عثمان: أَشِرْ عَلَيّ يا عمران.

قال: إني قاعدٌ فاقعد!

قال ابنُ حنيف: بل أمنعُهم وأقاتلهُم حتى يأتي أميرُ المؤمنين.

انقسام أهل البصرة ولقاء بينهم في المربد

ووصلَ جيشُ طلحةَ والزبير إلى «المَرْبَد» بجانبِ البصرة، وخرجَ لهم عثمانُ بن حنيف ليمنعهم من دخول البصرة. وتكلمَ القادمون، وأخبروا عن أهدافهم: تكلم طلحة، وتكلمَ الزبير، وتكلمتْ عائشة.

واختلف المسلمون، فمنهم مَنْ أيّدوا طلحة ومَنْ معه، وانضموا إليهم، ومنهم مَن لم يؤيِّدهم، وبقيَ مع عثمان بن حنيف، ومنهم مَنْ قعدَ في بيته[1] !!.

الفريقان متقابلان

اجتمعَ مؤيدو طلحة والزبير، واجتمع مؤيّدو عثمان بن حنيف وعسكر كل فريق مقابل الآخر، وبين الفريقين «فم السكة» ولم يقع بينهما اشتباك.

لم يُرْضِ هذا السبئيين قَتَلَة عثمان الذين في البصرة، بقيادة حكيم بن جبلة.

السبئيون ينشبون القتال بين الفريقين

فأقبل حكيم ومن معه على خيولهم، وأنشبوا القتال بين الفريقين عند فم السكة وصار حكيمٌ يشتم أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها ويسبّها، فنهاه أحد المسلمين عن ذلك فقتلَه، ونهتْه امرأةٌ مسلمة عن ذلك فقتلها.

ونشبت المعركةُ بين الفريقين بفعلِ السبئيّين من الصباح حتى الظهر، وسقط من الفريقيْن قتلى وجرحى.

ثم سعى بعضُ الحكماء بوقْفِ القتال، والصلحِ المؤقّتِ بينهما، فتصالحَ الفريقان على أنْ يبقى كلٌّ منهما في موقعه، وأن لا يتحرشَ بالفريق الآخر.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٤٦١ ـ ٤٦٤.

مهمة كعب بن سور في المدينة

واتفقوا على أنْ يوفِدوا «كَعْبَ بنَ سُور» إلى المدينة، ليسألَ عن بيعةِ طلحةَ والزبير لعلي، وعن أوضاعِ أهلِ المدينة، فإنْ بايَعا عن رضى خَرَجا من البصرة، وإنْ بايَعا مكرهَيْن بَقيا في البصرة، وخرجَ منها عثمان بن حنيف.

وصلَ القاضي كعبُ بن سور المدينة، فاجتمعَ الناسُ عليه، فقال: يا أهلَ المدينة إني رسولُ أهلِ البصرة إليكم، هل أُكرهَ طلحةُ والزبير على البيعة أم بايَعا طائعيْن؟.

سكتَ الناس، ولم يُجبْ إلا أسامةُ بن زيد رضي الله عنه، حيث قال: لم يُبايِعا إلا وهما كارهان، حيث أَكرهوهم على البيعة!!

ووقعَ خلافٌ بين أهل المدينة، بسببِ كلامِ أسامة[1].

ولما علمَ عليّ بما جرى في المدينة ـ وكان في طريقِه إلى البصرة ـ قال: إنهما لم يُكْرَها في فُرْقةٍ وخلاف، ولقد أُكرها على جماعةٍ وفَضْل، بهدفِ جمعِ كلمةِ المسلمين، فإن كانا يريدان نقضَ البيعة فلا عذرَ لهما، وإن كانا يريدان شيئًا آخرَ ننظرُ فيه. ![2]

طرد عثمان بن حنيف من البصرة

ثم وقعت مناوشاتٌ بين الفريقين: جيش طلحة وجيش عثمان بن حنيف، وألقى جيش طلحة والزبير القبض على والي البصرة عثمان بن حنيف، ثم أخرجوه إلى عليّ.

وبعد طردِ عثمان بن حنيف من البصرة، بقي فيها الخوارج السبئيون، الذين شاركوا في قتل عثمان.

خرج حكيمُ بن جبلة زعيمُ سبئيي البصرة، ومعه ثلاثُمئة ممن خرجوا

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٤٦٦ـ ٤٦٨.
(٢) تاريخ الطبري ٤: ٤٦٨.

إلى عثمان، ومَن وافقهم من الأعراب والرعاع، وتوجَّهوا لقتال طلحة والزبير.

المعركة مع سبئيي البصرة

التقى الفريقان عند «دارِ الرزق» في الزابوقة بالبصرة.

وقالت عائشة: لا تقتُلوا إلا مَنْ قاتلكم.

ونادى منادي طلحة والزبير: مَن لم يكن من قتلة عثمان فليكفُفْ عنا، فإننا لا نُريدُ إلا أن نقتلَ قتلةَ عثمان.

ولما تواجه الجيشان، قال طلحةُ والزبير: الحمدُ لله الذي جمعَ لنا ثأرنا من قتلةِ عثمان في البصرة، اللهمَّ أَقِد منهم واقتُلْهم اليوم، ولا تُبْقِ منهم أحدًا.

مقتل كل سبئيي البصرة إلا واحداً

ووقعت معركةٌ شديدة، انتهت بقتلِ المجرمِ السبئي «حكيم بن جبلة» ومن معه، ولم ينجُ منهم إلا رجلٌ واحد، كان قد شاركَ في حصار عثمان، وهو «حُرْقوصُ بنُ زُهَيْر السَّعْدي»، حيث هربَ من البصرة إلى قبيلته بني سعد، واحتمى بها.

ولما أرسلَ طلحةُ والزبيرُ إلى بني سعد، ليُسْلِموا حرقوصَ لقتْله، بسببِ جنايته ضدَّ عثمان، حَمَتْه قبيلتُه عصبيةً، ولم تُسْلمه للقصاص.

تطهير البصرة من السبئيين

وبعد هزيمةِ سبئيي البصرة أمامَ طلحة والزبير، نادى المنادي في البصرة: مَن كان فيكم في قبائلكم أحدٌ ممن غزا المدينة، وشاركَ في حصار عثمان وقتْلِه، فأتونا به.

فصارَ أهلُ البصرة يأتون بهؤلاء الخوارج السبئيّين، كما يُؤتى بالكلاب، فقُتِلوا جميعاً، وما نجامنهم أحد، إلا حُرقوص.

وبذلك طُهرت البصرة من السبئيين، وحقّقَ كلٌّ من طلحة والزبير وعائشة ومن معهم هدفهم الجزئي، في الاقتصاص من قتلة عثمان وقتْلهم[1].

---

(١) تاريخ الطبري ٤ : ٤٧٠ـ٤٧٢.

علي يبين في الربذة خطته في التعامل مع المخالفين له

ولما كان عليّ مع جيشه في الرَّبَذَة بيَّن خطتَه في التعامل مع المخالفين له. حيث سأله أحد الجنود: ماذا تريدُ يا أميرَ المؤمنين؟

قال: نريدُ وننوي الإصلاح، إنْ قَبِلوا ذلك منا واستجابوا لنا.

قال له: فإنْ لم يُجيبونا إلى ذلك؟

قال علي: نتركُهم مع عُذرِهم واجتهادِهم، ونُعطيهم الحقَّ الذي لهم، ونصبرُ عليهم.

قال: فإنْ لم يرضوا بذلك منا؟

قال علي: نتركُهم ما تركونا.

قال: فإنْ لم يتركونا؟

قال علي: امتنعْنا منهم، ودافَعْنا عن أنفسنا[١].

وسار عليّ بجيشه من الرَّبَذَة، باتجاه البصرة، ومَرَّ على «فَيْد»، ثم على «الثَّعْلَبِيَة»، ثم على «ذي قار».

موفدا علي إلى أهل الكوفة

وبعثَ من ذي قار محمدَ بن أبي بكر ومحمدَ بن جعفر بن أبي طالب إلى الكوفة، ليستنفِرا أهلَها، في الخروجِ إلى المخالفين له. ثم أردفَهم بالأشتر النخعي.

والي الكوفة أبو موسى الأشعري مع عدم القتال

وكان أميرُ الكوفة هو أبا موسى الأشعري رضي الله عنه. وكان أبو موسى من أَنصارِ اعتزالِ الفتنة بين المسلمين، ولذلك نصحَ أهل الكوفة بالقعود.

ولما حاوره رسولا عليّ، قال لهما: إذا كان لا بدّ من القتال، فلا

(١) تاريخ الطبري ٤: ٤٧٩.

نقاتلُ مع علي، إلاّ بعدما يقتصُّ من قتلةِ عثمان، ويقيمُ الحدّ عليهم[1]!!.

رجعَ رسولا عليّ من الكوفة بدون نتيجة، فأرسلَ عليّ بدَلهما ابنَه الحسن وعمارَ بن ياسر، لإنهاضِ أهل الكوفة.

عمار والحسن يحاوران أبا موسى

وجاءَ الحسنُ يحاورُ أبا موسى.

قال له: يا أبا موسى: لِمَ تثبطُ الناسَ عنا؟ فوالله ما أردْنا إلا الإصلاح، ولا يُخافُ أميرُ المؤمنين على شيء.

قال أبو موسى: صدقْتَ بأبيْ أنت وأمي، ولكنَّ المستشار مؤتمن، وقد سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنها ستكونُ فتنة، القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الراكب»، وقد جعَلَنا الله عز وجل إخوانًا، وحرَّمَ علينا أموالنا ودماءنا، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [النساء: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ [النساء: ٩٣].

خطبة أبي موسى في أهل الكوفة

ثم وقفَ أبو موسى الأشعريُّ خطيبًا في أهل الكوفة، وكان مما قاله لهم: إنَّ أصحابَ النبي ﷺ، الذين صحبوه في المواطن، أعلمُ بالله وبرسوله ممن لم يصحَبْه، وإنَّ لكم عليَّ حقًا، وأنا مؤدّيه لكم، لقد كان الرأيُ ألا تستخفُّوا بسلطانِ الله، وأنْ لا تجترِئوا على الله، وأنْ تأخذوا مَنْ قَدِمَ عليكم من المدينة، فتردّوهم إليها، حتى يجتمعوا على الإمام، وأهلُ المدينة أعلمُ بمن يصلحُ للإمامة منكم، فلا تتكلَّفوا أنتم الدخولَ في هذا.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٤٨١-٤٨٢.

أبو موسى ينصح بعدم القتال في الفتنة

أيها الناس: أَطيعوني، تكونوا جُرثومةً من جراثيم العرب [الجرثومة هي الأصل: تكونوا أصلَ سلامٍ وأمانٍ بين باقي البلدان] يأوي إليكم المظلوم، ويأمنُ فيكم الخائف، وإنّا أصحابَ محمد ﷺ أعلمُ بما سمعنا، إنَّ الفتنةَ إذا أقبلتْ كانت مشتبهةً غيرَ واضحة، وإذا أَدبرتْ أصبحتْ واضحةً بيِّنة.

وإنَّ هذه الفتنةَ باقرةٌ كداء البطن، تجري بها ريحُ الشمال والجنوب والصَّبا والدَّبور، وتسكنُ أحيانًا، ولا يدري أَحد من أينَ تهبّ، تذرُ الحليمَ حيران.

أَغْمِدوا السيوف، وانْصِلوا الأسنة، واقْطَعوا الأوتار، وآووا المظلوم والمضطهد، حتى يلتئمَ هذا الأمر، وتنجلي هذه الفتنة.

استنْصِحوني ولا تستغشّوني، وأَطيعوني يسلمْ لكم دينُكم ودنياكم، ويَشقى بحَرِّ الفتنة مَنْ أَوقَدَها أَو زادَ في اشتعالِها ![1]

القعقاع بن عمرو يرى الخروج مع علي

وقامَ القعقاعُ بن عمرو التميمي فقال: إنَّ الحقَّ ما قالَ الأمير أبو موسى، لو أنَّ له سبيلاً، ولكن لا بدَّ للناس من أمير، ينظمُ الناس، ويردعُ الظالم، ويعزُّ المظلوم، وأميرُ المؤمنين الآن هو علي، وقد أنصفَ مخالِفيه في الدعوة، وهو يدعو إلى الإصلاح، فانفِروا إليه وانصُروه ![2]

الأشتر النخعي يحتل قصر الإمارة وأبو موسى يرحل غاضباً

وتركَ الأشترُ النخعي أبا موسى يخطبُ في مسجد الكوفة، وذهبَ واحتلَّ قصر الإمارة، وجاءَ غلمانُ أبي موسى يخبرونه بطرْدِ الأشترِ لهم، ولما خاطبه أبو موسى وأنكرَ عليه فعلَه، قال له الأشتر: أُخرجْ من قصرنا.

وثارَ معظمُ أهل الكوفة مع الأشتر، فتركَهم أبو موسىٰ، وخرجَ من الكوفة.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٤٨٣ ـ ٤٨٤.
(٢) تاريخ الطبري ٤: ٤٨٣.

خروج تسعة آلاف من الكوفة مع علي

واستنْهَضوا أهلَ الكوفة للخروج مع علي، فخرجَ تسعةُ آلاف، وساروا إلى معسكرِ علي، الذي كان في «ذي قار».

وكان ممن خرجَ إلى نصرةِ علي من وجوه الكوفة: القعقاعُ بن عمرو التميمي، وعديُّ بن حاتم الطائي.

ولما التحقوا بجيشِ علي في ذي قار، أرادَ عليّ أن يقومَ بآخرِ محاولةٍ منه للصلح مع طلحةَ والزبيرِ وعائشة في البصرة، وقد كان حريصاً على الإصلاح، وعدمِ نشوب القتال أو سفكِ الدماء، وإعادةِ مخالفيه إلى طاعته، والاتفاقِ معهم.

علي يرسل القعقاع بن عمرو للصلح مع أهل البصرة

أرسلَ عليٌّ المجاهدَ القعقاعَ بن عمرو التميمي رضي الله عنهما، في مهمةِ الصلح إلى طلحة والزبير، وقال: القَ هذيْنِ الرجليْن، فادْعُهما إلى الألفةِ والجماعة، وعظِّمْ عليهما الاختلافَ والفرقة.

ذهبَ القعقاعُ إلى البصرة، فبدأَ بعائشة رضي الله عنها، وقال لها: ما أَقدمكِ يا أُماه إلى البصرة؟

قالت له: يا بني: من أجلِ الإصلاحِ بين الناس.

فطلبَ القعقاعُ منها أن تبعثَ إلى طلحة والزبير ليحضرا، ويكلِّمَهما في حضرتها، وعلى مسمعٍ منها.

محاورة القعقاع لطلحة والزبير

ولما حضرا سألَهما عن سبب حضورِهما، فقالا ـ كما قالت عائشة ـ من أجل الإصلاح بين الناس.

فقال لهما: أَخبِراني ما وجهُ هذا الإصلاح؟ فوالله لئن عرَفْناه لنصلِحَنَّ معكم، ولئن أَنكرناه لانصلح!

قالا له: قتلةُ عثمان رضي الله عنه، ولا بد أن يُقتلوا، فإنْ تُركوا بدون قصاص، كان هذا تركًا للقرآن، وتعطيلاً لأحكامه، وإن اقتُصَّ منهم كان هذا إحياءً للقرآن!

قال القعقاع: لقد كان في البصرة ستُّمئةٍ من قتلَة عثمان، وأنتم

قتلتموهم إلا رجلاً واحدًا، وهو حُرقوص بن زهير السعدي، فلما هربَ منكم احتمى بقومه من بني سعد، ولما أردتم أَخذه منهم وقتْلَه، منعكُم قومُه من ذلك، وغضبَ له ستةُ آلاف رجل، واعتزلوكم، ووقفوا أمامكم وقفةَ رجلٍ واحد.

حجـة القعقـاع المقنعة في تـأجيل المعاقبة

فإنْ تركتم حرقوصًا ولم تقْتُلوه، كنتم تاركين لما تَقولون وتُنادون به الآن، وتُطالبون علياً به.

وإنْ قاتلتمُ بني سعد من أجلِ حرقوص، وغلَبوكم وهزموكم وأُديلوا عليكم، فقد وقعْتُم في المحذور، وقوَّيْتُموهم، وأصابكم ما تكرهون، وأنتم بمطالبتكم بحرقوص أَغضبْتُم ربيعة ومضر، من هذه البلاد، حيث اجتمعوا على حربكم وخذلانكم، نصرةً لبني سعد.

وهذا ما حصلَ مع علي، ووجودِ قَتَلةِ عثمان في جيشه!

تأثرتْ أمُّ المؤمنين ومَن معها بمنطق القعقاع، وحجتِه المقبولة.

فقالت له: فماذا تقول أنت يا قعقاع؟

الحل عنده التأني والتسكين ثـم القصاص

قال: «أقول: هذا أمْرٌ دواؤه التسكين، ولابدَّ من التأني في الاقتصاصِ من قتلة عثمان، فإذا انتهت الخلافات، واجتمعت كلمةُ الأمة على أميرِ المؤمنين، تفرَّغَ لقتلةِ عثمان.

وإنْ أنتم بايعتُم علياً واتفقتم معه، كان هذا علامةَ خير، وتباشيرَ رحمة، وقدرةً على الأخذِ بثأر عثمان. وإن أنتم أبيتُم ذلك، وأصررْتم على المكابرة والقتال، كان هذا علامةَ شر، وذهابًا لهذا المُلْك.

فآثِروا العافية تُرْزَقوها، وكونوا مفاتيحَ خيرٍ كما كنتم أولاً، ولا تُعَرِّضونا للبلاء، فتتعرَّضوا له، فيصرَعَنا الله وإياكم.

وايمُ الله إني لأقولُ هذا وأدعوكم إليه، وإني لخائفٌ أن لا يتم، حتى يأخذَ اللهُ حاجتَه من هذه الأمة، التي قلَّ متاعُها، ونزلَ بها ما نزل، فإنَّ ما

نزل بها أمرٌ عظيم، وليس كقتْلِ الرجل الرجل، ولا قتْلِ النفرِ الرجل، ولا قتْلِ القبيلةِ القبيلة !!»

القعقاع يقنع طلحة والزبير وعائشة

اقتنعوا بكلام القعقاعِ المقنعِ الصادقِ المخلص، ووافقوا على دعوته إلى الصلح، وقالوا له: قد أحسنتَ وأصبتَ المقالة، فارجع. فإنْ قَدِمَ علي، وهو على مثلِ رأيك، صلحَ هذا الأمرُ إن شاء الله.

فرح علي بنجاح القعقاع وخطبته في «ذي قار»

عاد القعقاعُ إلى علي في «ذي قار»، وقد نجح في مهمته، وأخبر عليًا بما جرى معه، فأُعجب عليّ بذلك، وأوشكَ القومُ على الصلح، كرهه مَن كرهه، ورضيه مَن رضيه [1].

وبعد ذلك وقفَ عليّ خطيبًا في جيشه، وذكرَ في خطبته الجاهليةَ وشقاءَها، والإسلام وسعادتَه، وإنعامَ الله وفضلَه على هذه الأمة، بجمعها على أبي بكر وعمر.

ثم قال في خطبته: ثم حدثَ من قتْل عثمان، وجنى على الأمة أَقوامٌ طلبوا هذه الدنيا، وحسدوا الأمة لما أفاء الله عليها من الفضيلة، وأَرادوا رَدَّ الأشياء على أدبارها، واللهُ بالغُ أَمره.

علي يذهب للبصرة للصلح

ثم قال: أَلا إني راحلٌ غدًا إلى البصرة، للإصلاح مع طلحة والزبير، فارْتَحلوا، ألا لا يرتحِلَنَّ غدًا معي أحد، ممّنْ أعان على عثمان، بأي شيء، ولْيغْنِ السفهاءُ عني أنفسهم.

وبهذا أوشكَ عليّ وطلحةُ والزبير أن يصطلحوا، وأوشكت كلمة المسلمين في البصرة والكوفة أن تجتمع.

فرح المسلمين بذلك وتآمر السبئيين

ولكن هل يسكتُ السبئيّون الذين في جيش علي على الصلح ؟ وهل يَقبلون أنْ تجتمعَ كلمةُ المسلمين ؟ وهم يعلمون أنهم هم الخاسرون من ذلك، وأن الصلحَ سيكون على حسابهم، وأن الأمةَ ستجتمعُ عليهم،

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٤٩٣ ـ ٤٩٤.

وها هو علي قد بدأ ذلك: حيثُ نهى أنْ يتبعَه أحدٌ منهم، ممن أعانَ على قتلِ عثمان، فكيف يفعل بهم إذا تفرغ لهم؟.

اجتماع سري لشياطين السبئيين بزعامة ابن سبأ

اجتمع قادة هؤلاء الخوارج السبئيين ليتدارسوا الأمر، ولم يكن بينهم صحابيٌّ واحدٌ ولله الحمد [1].

وكان من الحاضرين من قادة السبئيّين: عبدُ الله بن سبأ ـ ابن السوداء ـ والأشترُ النخعي، وعلباء بن الهيثم، وشريح بن أوفى.

قالوا: ماذا ترون؟ هذا والله عليّ، وهو أعلمُ بكتاب الله ممن يطلبُ قتلةَ عثمان، وأَقربُ إلى العملِ به، وقد قال ما سمعتم عنكم، وسيجمعُ عليكم الناسَ غدًا، والقومُ كلُّهم يريدونكم أنتم، فماذا ستفعلون بهم، وعددُكم قليل، وهم عددُهم كثير، لستم ناجين منهم.

الأشتر يرى قتل علي ورد ابن سبأ

قال الأشتر النخعي: أما طلحةُ والزبير فقد عرفْنا أمرهما من قبل، وأمّا رأيُ عليّ فينا فلم نعرفه إلا اليوم، إنّ رأيهم فينا جميعًا واحد، فإن يصطلحوا مع علي فإنما يصطلحون على دمائنا!

هلمَّ فلنثبْ على علي ولنقتُلْه، ونُلحقْه بعثمان، فتعودَ الفتنةُ والفرقةُ من جديد، وينشغل بها المسلمون عنا!!

رفضَ شيطانُهم الأكبر عبدُ الله بن سبأ، ما قاله الأشتر من قتْلِهم لعلي، وقال له: بئسَ الرأيُ ما رأيتَ يا أشتر. أنتم يا قتلةَ عثمان مع علي في ذي قار ألفان وخمسمئة، أو نحو ذلك، بعد أنْ قَتَلَ منكم طلحةُ والزبير في البصرة حوالي ستمئة.

ولو أخذْنا برأي الأشتر وقتلْنا عليًا، فإن القومَ هنا سوف يقتلوننا، فها هو القعقاعُ بن عمرو ومعه خمسة آلاف، وهم كلُّهم شوق لقتالكم وقتلكم، ولا طاقةَ لكم بهم.

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٢٣٩.

ابن الهيثم يرى اعتزال الناس ورد ابن سبأ

فقال علباءُ بن الهيثم: دَعوهم، وانصرِفوا عنهم، واذهَبوا إلى بلد منيع من البلدان، وتحصَّنوا به، حتى يأتيكم من تتقَوُّون به !!

فردَّ عليه شيطانهم ابن سبأ، وقال: بئسَ ماقلتَ ورأيت، لقد ودَّ القومُ أنْ تكونوا منفصلين وحدَكم، بعيدين عن الناسِ الأبرياء، ليهجُموا عليكم ويقتلوكم، ولو انفصَلْتُم عن الناس لسهلَ عليهم القضاءُ عليكم.

وأخيرًا قدَّمَ شيطانُهم ابنُ سبأ رأيَه الخبيث، الذي أجمعوا عليه.

قال لهم: يا قوم إنَّ عزَّكم في مخالطةِ الناس، والذوبانِ فيهم، فصانِعوهم وداروهم وتحمَّلوهم لتفتنوهم.

ابن سبأ يشير بإنشاب القتال مع الجيشين ليختلفا

ثم أمرهم ابنُ سبأ بأمره اللعين، الذي يقضي على الصلح، ويوجِدُ النزاع والفرقة، وقال لهم: إذا الْتقى علي مع طلحة والزبير، وتقابل الجيشان ليصطلحا، فاندسّوا أنتم في الجيشين، وأَنْشِبوا القتال بينهما، واقضوا على محاولات الصلح، ولا تَدَعوهم يتفرغون للنظر أو التفكير أو الإصلاح، ولا تمكِّنوهم من الاجتماع أو الاتفاق، ومَنْ أنتم في جيشهِ ـ وهو علي ـ فسيضطرُّ إلى السكوت عنكم، لحاجته إليكم، ويشغلُ الله طلحةَ والزبير عنكم، ويأتيهم ما يكرهون !!

اتفاق السبئيين على إفساد الصلح

فاتفق الخوارج السبئيّون على رأي شيطانهم ابن سبأ، وعَقَدوا العزم على تنفيذه، عندما يلتقي الجيشان.

ثم عادوا وتفرقوا بين الناس، ولا يشعرُ بهم أحد، ولا بما اجتمعوا له، واتفقوا عليه[1].

وصل علي بطليعة من جيشه إلى مشارف البصرة، وعسكرَ له طلحة والزبير، وتقابل الجيشان، وكان علي ينتظرُ وصولَ باقي المدد من المناطق والقبائل.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٤٩٣ ـ ٤٩٤. والبداية والنهاية لابن كثير ٧: ٢٣٩.

ما قاله الزبير عن جيش علي

أتى أبو الجرباء ـ أحدُ قادة جيش البصرة ـ إلى الزبير وقال له: أرى أنْ تبعثَ الآنَ ألفَ فارس إلى علي، ليفاجئوه، قبل أنْ يجتمعَ عليه أصحابُه.

فقال له الزبير: إننا نعرف أُمورَ الحرب، ونعرفُ أن هذا هو الرأي، لكنَّ هؤلاء هم إخوانُنا، وأهلُ دعوتنا، لكن هذا الخلافَ أمْرٌ قد حدث، وليس فيه نصٌّ يقطعُ العذر يومَ القيامة.

ثم إننا قد اتفقْنا مع القعقاع وافِدِ علي على أمر، وأنا أرجو أنْ يتمَّ الصلح معه، فاتقوا الله واصبروا.

اعتراف الزبير بالحَيرة وعدم وضوح الرؤيا

وأشارَ آخرُ على الزبير بمفاجأةِ علي بالهجوم، فردّ عليه قائلاً: إنهم إخوانُنا، وهذا أمرٌ ملتبسٌ بيننا وبينهم، ولا والله ما أخذَ أصحابُ محمد ﷺ ـ منذ بعثهُ الله نبيًا ـ طريقًا، إلا وهم يعلمون أين مواقعُ أقدامهم، حتى جاء هذا الحدث وقُتِل عثمان، ووالله إنهم لا يدرون أمقبلون هم أم مدبرون.

وإن الشيء يحسنُ عندنا اليوم، ويقبحُ عند إخواننا، فإذا كان الغدُ قبحَ الشيءُ نفسه عندنا وحَسُن عندهم، وإننا نحتجُّ عليهم بالحجة، فلا يرونَها حجة، فإذا كان الغدُ احتجّوا بها علينا.

وإننا نرجو الصلحَ مع إخواننا، إنْ أجابونا إليه، وإنْ رفضوه اضطُررنا لقتالهم، لأنَّ آخرَ الدواء الكيّ[١].

الصحابة حائرون في التعامل مع الفتنة

بهذا الاعترافِ الجريء من الزبير بن العوام رضي الله عنه، تعرفُ مقدارَ حيرة الصحابة، إزاء الفتنة التي وقعت، والتي اختلفوا في فهمِها وتوجيهها والتعاملِ معها، وأدّى اختلافُهم إلى اقتتالِهم وحربهم وسفكِ دمائهم فيما بينهم، فتحارَبوا وهم مُكرهون مُضطرون، بل تحاربوا وتقاتلوا وهم تائهون حائرون، ويسجلُ حيرتَهم وقلقَهم هذا الكلامُ

(١) تاريخ الطبري ٤: ٤٩٥.

الكاشفُ للزبير رضي الله عنه، وعن باقي أصحاب رسول الله ﷺ .

هذا في جانب جيشِ طلحةَ والزبير، أما في جانبِ جيش علي، فإن الصورةَ لم تتغير.

علي يوضح خطته في التعامل مع جيش البصرة

جاءَ أحدُ جنودِ علي ـ وهو الأَعْوَرُ بنُ بنَان المِنْقَري ـ فسأل عليًا عن إقدامِه على جيش البصرة، وخطتِه في التعامل معهم.

قال له علي: نقدمُ عليهم على أساسِ الإصلاح، وإطفاءِ نار الفتنة، لعل الله يجمعُ شملَ الأمة بنا، ويضعُ عنها الحرب.

حوار كاشف بين علي وبين الأعور المنقري

قال له الأعور: فإن لم يجيبونا إلى الصلح ؟

قال له علي: نتركُهم ما تركونا ! ولا نبدؤُهم بقتال.

قال الأعور: فإن لم يتركونا ؟ وقاتَلونا ؟

قال علي: دفَعْناهم عن أنفسنا.

قال الأعور: وهل يحقُّ لهم أنْ يدفعونا عن أنفسهم كما يحقُّ لنا ؟

قال علي: نعم.

وحوار آخر بين علي وبين الدألاني

وقام أبو سلامة الدَّألاني فسأل علياً: أَترى لهؤلاء القوم حجةً فيما طلبوا من دم عثمان، إنْ أرادوا بذلك وجهَ الله ؟

قال علي: نعم !

قال الدألاني: فهل ترى لك حجةً في تأخيرِك معاقبةَ قتلةِ عثمان ؟

قال علي: نعم !

قال: فما حالُنا وحالُهم، إن ابتُلينا بهم غدًا، وتقاتَلْنا، وقتلوا منا وقتلنا منهم ؟

قال علي: إني لأرجو أن لا يُقتلَ أحدٌ منا أو منهم، وقد نقّى قلبَه لله، إلا أدخله الله الجنة !!!.

ثم وقف علي خطيبًا في جيشه فقال: أيها القوم: املكوا أنفسكم،

وكفّوا عن هؤلاء الناس أيديكم وألسنتكم، فإنهم إخوانكم، واصبروا على ما يأتيكم منهم، وإياكم أنْ يسبقِونا غدًا عند الله، فإن المخصومَ يومَ القيامة هو المخصومُ اليوم الذي قامت عليه الحجة[(١)].

نظـرة منصفـة موضوعية من كل فريق للآخر

هذه هي الأخلاق الإسلامية التي كانت تسودُ بين الجيشيْن المسلميْن، المختلفيْن المتنازعيْن المتقاتلين، وهذا هو شرفُ الخصومة، وأدبُ الخلاف، وهذه هي نظرةُ كلّ فريقٍ للفريق الآخر.

وبهذه الجملِ الكاشفة يقدِّمُ علي أساسَ نظرته إلى طلحة والزبير ومَن معهما، وأنهم لهم حجةٌ وعذرٌ عند الله، وأنهم في الجنة إنْ قُتلوا على يديه !!

وكان مع علي حوالي عشرين ألفًا، بينما كان مع طلحة والزبير حوالي ثلاثين ألفًا.

المواجهة بين الفريقين

وكانت المواجهةُ بين الفريقين في شهر جمادى الثانية سنة ست وثلاثين، بعد ستة أشهر من خلافة علي[(٢)].

موفدا علي لجيش البصرة

ولما توافق الفريقان، والتقى الجمعان بعثَ علي إلى طلحة والزبير، كلاً من حكيم بن سلامة ومالك بن حبيب، وقالا لهم: إن كنتم مازلتمُ على ما فارقتُم عليه القعقاعَ بن عمرو من قَبول الصلح، فكفّوا أيديكم عنا، ودَعونا ننزل، حتى ننظرَ نحن وإياكم في حلٍّ هذه المشكلة.

فقالوا: نحن مازلْنا على ما اتفقنا عليه مع القعقاع، ونحن حريصون على الإصلاح بين الناس.

الأحنف بن قيس يعتزل الفريقين في عشرة آلاف

وكان الأحنفُ بن قيس التميمي في عشرة آلاف من بني تميم، قد رأى اعتزالَ القتال، لاقتال طلحة و الزبير، ولا قتال علي.

وكان الأحنفُ يمرُّ بمعاناةٍ نفسية شديدة، عبَّرَ عنها بقوله: إنَّ خذلاني

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٤٩٥ـ٤٩٦.
(٢) البداية والنهاية ٧: ٢٤٠.

هؤلاء، ومعهم أمُّ المؤمنين عائشة، وحواريُّ رسولِ الله ﷺ الزبير، لشديد، كما أنّ قتالي رجلاً بايعْتُه، وهو ابنُ عم رسول الله ﷺ، لشديدٌ أيضًا.

ولما أرسلَ إليه الزبير ليلتحق بجيشهم، ردَّ عليه الأحنفُ بأن يختارَ إحدى خصال ثلاث:

إمّا أنْ تفتحوا لي الجسر، فألحقَ بأرض العجم، وأجاهدَ هناك مع قومي، حتى يقضيَ اللهُ من أمره ماقضى!.

وإمّا أنْ أذهبَ إلى مكة، فأُجاورَ هناك في الحرم، حتى يقضيَ الله من أمره ما قضى.

وإمّا أنْ أعتزلكم وأعتزلَ عليًا، وأكونَ قريبًا منكم، أراقبُ ما يجري بينكما، حتى يقضيَ الله من أمره ماقضى!

فاعتزل الأحنف الجيشين، ولم يشترك في المعركة التي نشبت فيما بعد، فلما ظفرَ علي بخصومه التحقَ مع علي فيما بعد[1].

عمران بن الحصين ينادي باعتزال الفتنة

وكان رأيُ الصحابي عمران بن الحصين اعتزالَ الجيشيْن، فأرسل رسولَه ينادي، ويقول: إنّ أَبا نُجَيْد عمرانَ بن الحصين صاحبَ رسول الله ﷺ، يُقرئكم السلام، ويَدعوكم إلى عدمِ الاقتتال. ويقول لكم: والله لأنْ أكونَ في رأس جبل، مع غنمِ ضأنٍ ومعز، أجزُّ أصوافها، وأشربُ ألبانها، أحبُّ إليّ من أَن أرميَ بسهمي إلى أحد هذيْن الجيشيْن، فأُصيبَ به أحدَ المسلمين![2].

كعب بن سور ينصح باعتزال الفتنة

وكان كعبُ بن سور قاضي البصرة يرى اعتزالِ القتال.

فقال لزعيم قومه الأزد ـ وكان مع طلحة والزبير ـ: أَطِعْني، ولا تشهد

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٤٩٨.
(٢) تاريخ الطبري ٤: ٥٠٣.

القتال، واعتزل المعركةَ بقومك، وإني أخافُ أن لا يتحقّقَ الصلح، ودعْ عنك الفريقيْن، وهما أَخَوان، فإن اصطلحا فهذا ما نريدُه، وإن اقتتلا، كنا حكامًا عليهم غدًا.

فرفضَ أن يستجيبَ له.

وفي يوم الخميس، الخامسِ عشر من شهر جمادى الثانية نزلَ الجيشان عند موقع قصر عبيد الله بن زياد، في «الزّابوقَة» بجانبِ قرية الأرزاق، وكانوا لا يشكّون في الصلح.

زيارات متبادلة بين الجيشين

وصارت القبائلُ من الجيشين يلتقون ويجتمعون ويتزاورون، مُضَرَ إلى مضر، وربيعةُ إلى ربيعة، واليمنُ إلى اليمن، وهم لا يشكّون في الصلح، ولا يتكلّمون إلا بالصلح.

وبعثَ عليّ من طرفه عبدَ الله بن عباس إلى طلحة والزبير، فكلمهم وصارحهم، وبعَثوا من طرفهم محمدَ بن طلحة بن عبيد الله ـ المعروفَ باسم محمد السّجّاد لعبادته وتقواه ـ إلى علي، فكلَّمه وصارحه. والقومُ في رضى وسرور وانسجام واطمئنان.

التقاء علي مع طلحة والزبير

وخرج عليّ من معسكره، وخرج طلحةُ والزبير من معسكرهما، وتوافقوا والتقوا، واجتمعوا ثلاثتُهم طويلاً، وتكلَّموا فيما اختلفوا فيه، وتصارحوا فيما بينهم، فلم يجدوا أمرًا هو أفضلَ من الصلح، ووضْعِ الحرب، وعدمِ القتال، وأزالوا الخلافات بينهم، واتفقوا على إجراءِ الصلح، وانسحابِ الجيشين، وإنهاءِ الخلاف.

وعاد كلٌّ إلى معسكره في المساء على هذه النية.

وأرسلَ عليّ إلى رؤساء جيشه يخبرُهم بما اتفقوا عليه من الصلح، وأرسل طلحةُ والزبير إلى رؤساء جيشهما، يخبرانهم بما اتفقوا عليه من الصلح[1]

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٥٠٥ ـ ٥٠٦.

وباتَ المسلمون في الجيشيْن على الصلح، وباتوا في خير ليلة، لم يبيتوا بمثلِها، لِما هم فيه من العافيةِ والاتفاق والاطمئنان، ولإزالةِ الخلاف والفتنة والقتال بينهم.

فـرح المسلمين بالصلح وغيظ السبئيين

أما شياطينُ الخوارج السبئيّين ـ وكانوا حوالي ألفيْن في جيش علي ـ فقد باتوا بشرٍّ ليلة باتوها قط، وكلهم غيظٌ لقرب الصلحِ بين الجيشيْن، وقد أشرفوا على الهلاك، حِقدًا وحسدًا على المسلمين.

خطة السبئيين في القضاء على الصلح

الْتقى قادتهم، من أمثال عبدِ الله بن سبأ، والأشتر النخعي، وشريح بن أوفى، وجعلوا يتشاورون ليلتَهم كلَّها..

واتفقوا على إِفسادِ خطة الصلح بين الجيشين، والقضاءِ على فرصة الاتفاق، وإبقاءِ الفتنة والخلاف بين المسلمين، بل والعملِ على نشوب القتالِ الشرس بينهم.

أما تنفيذُ هذا الكيد الشيطاني، فهو بأَنْ ينْدَسَّ أفرادٌ من هؤلاء بين الجيشيْن، ويتفرَّقوا بين القبائل، وذلك في الليل، دون أَنْ يدري بهم أحد.

السبئيون يتفقون على الإيقاع بالجيشين

وعند الفجر، وقبلَ ظهورِ النور وطلوع الشمس، يرمي كلٌّ منهم الجيشَ الآخر، ويضعون فيهم السلاح، ويهجمون عليهم بالسيوف، فيظنُّ كلُّ فريق، أنَّ خصمَه هو الذي نقض الاتفاق، ورفض الصلح، وأَنشبَ القتال!!

إنها خطةٌ شيطانية كيديةٌ سبئية، قضتْ على جهود الصلح بين المسلمين، وعمقت الفرقةَ والخلافَ بينهم.

وينجحون في إنشاب القتال

وعند الفجر، تسللَ السبئيّون مع الغَلَس إلى مواقع الجيشين، انسلّوا إليها انسلالاً تحت جنح الظلام، دون أنْ يشعرَ بهم أحد، وخرجَ مُضَرِيُّهُم إلى قومه من مُضرَ، ورَبَعِيُّهُم إلى قومه من رَبيعة، ويمَانِيُّهُم إلى قومه من أهل اليمن، ووضعوا فيهم السلاح، وهجموا عليهم بالسيوف.

وثارَ كلُّ فريق إلى الفريق الآخر، على أنه هو الذي نقض العهد، وبدأ القتال.

فوجىءَ طلحةُ والزبير بالقتال عند الفجر، فقالا: ما هذا؟

قال القوم: لقد هاجمَنَا جيشُ علي عند الفجر!

فغضبَ طلحةُ والزبير، وقالا: إنَّ عليًا لن يتوقفَ حتى يسفكَ الدماء، ويستحلَّ الحرمة، وإنه لا يريدُ الصلح!!

السبئيون يكذبون على علي

أما عند علي، فقد وضعَ السبئيّون رجلاً قريبًا منه، حتى إذا سأل عن ما يجري، كذبَ عليه السبئي، وأخبره بما يريدون، وأخفى عنه الحقيقة!!، ولعل هذا هو الأشتر النخعي، زعيمُ سبئيي الكوفة، ومن كبار قادة جيش علي.

فوجىءَ علي بنشوب القتال. فقال: ما هذا؟

أجابَه السبئي قائلاً: لقد هاجَمَنا جيشُ طلحةَ والزبير عند الفجر! وفوجِئْنا بهم، لكننا ردَدْناهم.

ووقعت معركة الجمل

فقال علي: إن طلحةَ والزبير لن يتوقَّفا حتى يسفكا الدماء، ويستحلاّ الحرمة، وهما لا يُريدان الصلح.

وزاد السبئيّون في الجيشيْن من جهودِهم في إِنشاب القتال، ومهاجمةِ الفريق الآخر، وإغراءِ كل فريقٍ بخصمه، وتهييجه على قتالِه.

ونشبت المعركةُ عنيفةً قاسية، حاميةً شرسة، وهي معركة «الجمل».

لماذا سميت معركة الجمل

وسميت معركةَ «الجمل» لأنَّ أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، كانت في المعركة، وسطَ جيش البصرة، تركبُ الجملَ «عسكر» الذي قدَّمه لها «يَعْلى بْنُ أمية» في مكة، حيث اشتراه من اليمن، وخرجت على هذا الجملِ من مكة إلى البصرة، ثم ركبتْه أثناءَ المعركة.

وكانت المعركةُ يوم الجمعة في السادس عشر من جمادى الثانية، سنة ست وثلاثين، في منطقة «الزابوقة» قربَ البصرة.

وبهذا نجحَ الخوارجُ السبئيّون في خطتهم ، في إفساد الصلح، وفي تفريق الأمة، وفي سفك دماء المسلمين.

حزنَ عليٌّ لما جرى، ونادى مناديه: كُفّوا عن القتال أيها الناس، ولم يسمعْ نداءَه أحد، فالكل كان مشغولاً بقتال خصمه[1].

الجولة الأولى من معركة الجمل

كانت معركة الجمل على جولتين: الجولة الأولى: كان قائدا جيش البصرة فيها طلحةَ والزبير، واستمرتْ من الفجر حتى قبيلَ الظهر، وكانت عنيفةً شديدة قاسية، قُتل فيها خلقٌ كثير جدًا، من الجيشيْن.

ونادى عليّ في جيشه، كما نادى طلحةُ والزبير في جيشهما: لا تقتلوا مُدْبِرًا، ولا تُجْهِزوا على جريح، ولا تَلْحَقوا خارجًا من المعركة تاركًا لها.

كعب بن سور ينصح عائشة بالخروج للصلح

وأقبلَ كعبُ بن سُور الأزدي ـ قاضي البصرة، وكان يرى اعتزالَ القتال وعدمَ سفك دماء المسلمين ـ حتى أتى أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وكانت في بيتها لم تشهد القتال.

فقال لها: أَدْرِكِي القوم، فقد أَبوا إلا القتال، والمعركةُ بينهم شديدة، لعلَّ الله يصلحُ بك، ولعلَّ القوم إذا رأَوك يميلون للصلح، ويتوقَّفون عن القتال.

فأعدّوا لها جملَها «عسكر»، ووضَعوا الأدراع على هودجها، حتى لا تصلَها السهامُ والنبال، وركبتْ جملها، ودخلتْ ميدانَ المعركة، بنيةِ الإصلاح بين الفريقين[2].

وتبارزَ الزبيرُ وعمار بن ياسر رضي الله عنهما، فقال الزبير: أَتقتُلُني يا أبا اليقظان !

---

(١) تاريخ الطبري ٤ : ٥٠٦ ـ ٥٠٧.

(٢) تاريخ الطبري ٤ : ٥٠٧.

قال له عمار: لا يا أبا عبد الله !!

وعادَ كلٌّ إلى جيشه.

وطلبَ عليٌّ الزبيرَ ليكلمه، أثناء اشتداد المعركة في جولتِها الأولى، فخرجَ له من بين الصفوف، وتوافَقا على فرسيهما.

مقابلة علي للزبير أثناء المعركة وتذكيره بقول الرسول

وقال علي للزبير: لقد جمعْتُما خيلاً ورجالاً للقتال، فهل أعددْتُما عذرًا عند الله يوم القيامة ؟

يا زبير: أَنْشُدُك الله: أسمعتَ رسولَ الله ﷺ يقول: لتقاتِلَنّه وأنتَ له ظالم ؟

فتذكَّرَ الزبيرُ ما سمعه من رسول الله ﷺ ، عن قتاله لعلي، وأنه سيكون ظالمًا لعلي في هذا القتال، وتراجعَ الزبير.

وقال له: نعم. والله ما ذكرتُه إلاّ الآن، ووالله لو تذكرْتُه لما سرتُ إليك مسيري هذا، ووالله لا أقاتلك بعد الآن !!![1].

الزبير يتراجع ويترك المعركة

وانصرفَ الزبير، وتركَ المعركة، وانصاعَ للحق ورجعَ إليه، وأيقن أنه ظالمٌ لعلي في هذا القتال، وأنَّ الحقَّ مع علي.

ركبَ الزبيرُ فرسه، وغادر الجيشين، والمعركةُ بينهما ما زالت شديدة، ومَرَّ بوادٍ يسمّى «وادي السباع»، وكان معه غلام له، ولما رآه أحد الأشقياء ـ وهو «عَمْرو بنُ جرموز» ـ منصرفًا وحيدًا، لحقَ به.

ونام الزبيرُ تحت ظل شجرة، وهو آمِنٌ مطمئن، وهو في راحةٍ نفسية لأنه تركَ قتال علي.

عمرو بن جرموز يقتل الزبير وهو نائم

وهجم عليه ابنُ جرموز الشقيُّ وهو نائم، فقتَلَه غيلة وغدرًا، واحتزَّ رأسه، ثم أخذَ سيفه وفرسه وخاتمه.

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٢٤١ ـ ٢٤٢.

وقامَ غلامُ الزبير بالصلاةِ عليه، ثم دفنه في ذلك المكان المجهول في وادي السباع.

وأتى القاتلُ «عمرُو بن جرموز» وهو فرحٌ إلى عليّ بن أبي طالب، ليزفَّ له البشرى، بقتْلِ خصمه الزبير، وينال منه الجائزة !!.

علي يلعن ابن جرموز ويبشره بالنار

ولما سمعَ علي بقتلِ الزبير بكى، ثم ترحَّمَ عليه وترضَّى عنه، ثم أخذَ سيف الزبير، وقال: إنَّ هذا السيفَ طالما فرَّجَ الكربَ عن رسول الله ﷺ.

ثم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «بَشِّرْ قاتِلَ ابنِ صفية بالنار».

والزبيرُ هو ابن صفيةَ بنتِ عبد المطلب، عمةِ رسول الله ﷺ، ثم شتمَ عليٌّ ابنَ جرموز ولعنه وطرده.

وبقي عمرو بن جرموز حياً في العراق، حتى قامَ عبد الله بن الزبير، وادَّعى الخلافة، وولّى أخاه «مصعبَ بن الزبير» على العراق.

فخافَ ابن جرموز أنْ يأخذه مصعب، ويقتلَه ثأرًا لأبيه.

فقال مصعبُ بن الزبير: مُروه فلْيخرج، فهو آمِن، ولن أقتلَه قِصاصًا، ووالله إنه لأحقرُ عندي من أنْ أجعله عَدْلاً ومساويًا للزبير، فأقتلَه به !! وأتركُ عقابَه ليوم القيامة[1].

جرح طلحة ثم وفاته في البصرة

أما طلحةُ بن عبيد الله رضي الله عنه القائدُ الثاني لجيش البصرة، فقد كان يصولُ في ميدان المعركة، وبينما كان على ظهر فرسه، إذ جاءه سهم «غَرْب» لا يُعرفُ مَنْ رماه، فأصابه إصابةً مباشرة، ونزفَ دمُه بغزارة.

فقالوا له: يا أبا محمد، إنك لجريح، فاذهب وادخل البيوت لتعالَجَ فيها.

فقال طلحة لغلامه: احملْني، وابحثْ لي عن مكان مناسب. فأُدخل البصرة، ووُضعَ في دارٍ فيها ليعالج، ولكنَّ جرحه مازال ينزف، حتى

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

توفي في البيت، ثم دُفن في البصرة، رضي الله عنه.

انتهاء الجولة الأولى بموت طلحة والزبير

وبخروجِ الزبيرِ من ميدان المعركة، نادمًا على القتال، وبموت طلحة - رضي الله عنهما - وسقوطِ آلاف القتلى والجرحى من الجانبيْن، تكون قد انتهت الجولةُ الأولى من معركة الجمل، وكانت الغلبةُ فيها لجيش علي، على جيش البصرة.

وكان علي يراقبُ سيرَ المعركة، ويرى كثرةَ القتلى والجرحى في الجانبيْن، فيتألمَ ويحزن.

علي يصارح ابنه الحسن بحزنه

أقبلَ عليٌّ على ابنه الحسن، وضمَّه إلى صدره، وصار يبكي ويقول له: يا بُني، ليتَ أباك مات قبلَ هذا اليوم بعشرين عامًا!!.

فقال الحسن: يا أَبتِ لقد كنتُ نهيتُك عن هذا!!!.

فقال علي: ما كنتُ أظنُّ أن الأمرَ سيصل إلى هذا الحد!، وما طعمُ الحياة بعد هذا؟ وأيُّ خيرٍ يُرجى بعدَ هذا؟[1].

الجولة الثانية من معركة الجمل

وبعدما انتصفَ النهار بدأت الجولةُ الثانية من معركة الجمل، بعد غيابِ قائديْ جيشِ البصرة طلحة والزبير رضي الله عنهما.

تجمعَ جيشُ البصرة في الجولة الثانية من المعركة حولَ عائشة وهي تركبُ الجمل، ولهذا سُميتْ معركةَ الجمل - فكأنها هي القائدةُ للمعركة في هذه الجولة.

وكانت عائشةُ حريصةً على إنهاءِ المعركة، وعلى الإصلاح، وكان السبئيّون في جيش علي - بل في مقدمةِ الجيش، مواجهين لجيش البصرة - حريصين على المعركةِ والقتال، وعلى عدمِ إتاحة الفرصة للصلح وإنهاء المعركة.

وكانوا يقتلون كلَّ مَنْ يواجهونه من جيش البصرة، ولا سيما وأنهم

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٢٤١.

كانوا في طليعةِ جيش علي، مواجهين لجيش البصرة.

عائشة تدعو كعب بن سور لحمل المصحف والدعوة إليه

تقدم قاضي البصرة كعبُ بن سور يقود جملَ عائشة، وكان حريصًا على إنهاءِ القتالِ وإحلالِ الصلح.

فقالت له عائشة: يا كعب اترك الجمل، واحملْ مصحفًا، وتقدَّمْ إليهم بكتابِ الله، وادْعُهم إلى الصلح، والعملِ بما فيه، فلعلَّ الله أن يُصلحَ بك، ويُنهيَ القتال.

فحملَ كعبُ بن سور المصحف، وتقدمَ أمامَ جيش البصرة، ونادى جيشَ علي قائلاً: يا قوم: أنا كعبُ بن سور، قاضي البصرة، أدعوكم إلى كتابِ الله والعملِ بما فيه، والصلحِ على أساسه.

السبئيون يقتلون كعب بن سور

وخشي السبئيّون في مقدمة جيشِ علي أن تنجحَ محاولةُ كعب، فرشقوه بنبالهم رشقةَ رجلٍ واحد، فلقي وجهَ الله، ومات والمصحف في يده، رضي الله عنه!

وأصابتْ سهامُ السبئيين ونبالُهم جملَ عائشة وهودجها، فصارت تُنادي، وتقول: يا بَني: اللهَ، اللهَ، أُذكروا الله، ويومَ الحساب، وكفّوا عن القتال.

والسبئيّون لا يستجيبون لها، وهم مستمرون في ضرب جيشِ البصرة.

وكان علي من الخلفِ يأمُرُ بالكفِّ عن القتال، وعدمِ الهجوم على البصريين، لكن السبئيّين في مقدمة جيشه لا يستجيبون له، ويأبون إلا إقدامًا وهُجومًا وقتالاً!!.

عائشة تدعو على قتلة عثمان

ولما رأت عائشةُ عدم استجابتهم لدعوتها، ومقتلَ كعبِ بن سور أمامها. قالت: أيها الناس: الْعَنوا قتلةَ عثمان وأشياعَهم!!.

وصارت عائشةُ تدعو على قتلةِ عثمان، وتلعنُهم، وضجَّ أهل البصرة بالدعاء على قتلة عثمان وأشياعهم، ولعنهم!.

وسمعَ عليٌّ الدعاء عاليًا في جيش البصرة، فقال: ما هذا؟

قالوا: عائشةُ تدعو على قتلة عثمان، والناسُ يدعون معها.

وعلي يدعو عليهم

قال علي: ادْعُوا معي على قتلة عثمان، وأشياعِهم والْعَنوهم.

وضجَّ جيش علي بلعنِ قتلة عثمان، والدعاء عليهم [1].

وبهذا التقى الجيشان - رغم نشوبِ القتال بينهما - على هذا الهدفِ المشترك، وهو الدعاءُ على قتلة عثمان.

الجيشان يكرهان قتلةَ عثمان السبئيّين، لكن لا يعرفان كيفيةَ القضاءِ عليهم والتخلصِ منهم، لأنهم فرضوا أنفسهم على علي، وكانوا في مقدمةِ جيشه، ولم يسمحْ له تسارعُ الأحداث وخروجُ المخالفين عليه، بالتخلص منهم !!.

السبئيون يريدون قتل عائشة وجملها

وجَّه السبئيّون جهودَهم لعقرِ الجمل وقتلِ عائشة أم المؤمنين، فسارعَ جيشُ البصرة لحمايةِ عائشة وجملِها، وقاتَلوا أمام الجمل، وكان لا يأخذُ أحدٌ بخطام الجمل إلا قُتل، حيث كانت المعركةُ أمامَ الجمل في غاية الشدة والقوةِ والعنف والسخونة.

المعركة عنيفة حول الجمل

استمرت المعركةُ حول جمل عائشة ساعاتٍ عديدة، وكانت سِجالاً بين الفريقيْن، وكانوا بين كَرٍّ وفَرّ، فتارةً تكونُ الغلبة لجيش علي، وتارة تميلُ الكفةُ لجانب جيش البصرة.

وقُطّعتْ في المعركة حول الجمل الأطرافُ - الأيدي والأرجل - من الجانبيْن، ولم تُرَ الأطرافُ من الأيدي والأرجل في أيِّ معركةٍ قبلها ولا بعدها، أكثرَ قطعاً منها في هذه المعركة.

قادَ خطامَ الجمل عبدُ الرحمن بن عَتّاب بنِ أُسَيْد - إمامُ جيش عائشة في الصلاة - فقُتل. ثم قاده الأسودُ بن أبي البُخْتَري فقُتِل.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٥١٣.

ثم تقدمَ لقود الجمل عبدُ الله بن الزبير رضي الله عنه، فقالت له عائشة: مَنْ أنت ؟

قال: عبدُ الله بن الزبير !

وهو ابن أُختها أسماء، فخافتْ أنْ يُقتل، فقالت: واثكْلَ أسماء !!.

وهجمَ على ابنِ الزبير الأشترُ النخعي ـ واسمه مالِكُ بن الحارث ـ وكان قائدَ السبئيين، ومن كبار قادة جيش علي.

اعتراك ابن الزبير والأشتر النخعي

اقتتلَ الأشترُ وابنُ الزبير قتالاً شديدًا، وكلاهما بطلٌ مقاتلٌ شجاع !، وضربَ الأشترُ ابن الزبير على رأسه فجرحه جرحاً شديداً، وضرب ابن الزبير الأشتر ضربةً بالغة، ثم تصارَعا صراعًا قويًا، وسقطا على الأرض يعتركان، وكان ابنُ الزبير حريصًا على قتْلِ الأشتر، لأنه قائدُ السبئيّين، ومن كبار قتلةِ عثمان.

وبينما كانا يعتركان، ولم يُجْهِزْ أحدٌ على الآخر، نادى ابنُ الزبير في جيش البصرة بأعلى صوته، قائلاً:

اقْتُلونـي وَمـالِكـا وَاقْتُلـوا مـالِكـا معـي

اقتلوني ومالكاً

وسمعَ الناسُ كلامَ ابن الزبير، ولكن لم يَعرفوا مَنْ هو مالك، الذي يأمرهم ابنُ الزبير بقتله، فما كانوا يعرفونه إلا باسم «الأشتر»، ولو قال ابن الزبير: اقتلوا الأشتر، لما نجا الأشترُ منهم.

وفرَّقَ الناسُ بين ابن الزبير والأشتر، ولم يُقتلْ واحد منهما !![1].

مقتل محمد بن طلحة أمام الجمل

وتقدمَ محمدُ بن طلحة بن عبيد الله ـ المعروفُ باسم محمد السجاد لعبادته وتقواه ـ وأَخذَ بزمام الجمل.

وقال لعائشة: مُريني يا أُمّاه.

قالت له: آمركَ أنْ تكون كخيرِ ابنَيْ آدم !.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٥١٩. والبداية والنهاية لابن كثير ٧: ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

فكان محمد بن طلحة إذا تقدمَ له أحد ليقتله، يقول له: نَشَدْتُك الله والرحم أنْ تكفَّ عني، ثم يتلو عليه قولَه تعالى في سورة الشورى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

ولكنَّ السبئيّين ومَنْ معهم من الغوغاءِ والأعراب، لا يعرفون هذه المناشدة، فهجمَ عليه أَحدهم برمحه، وطعنَه فقتلَه.

وقاتله يزهو بجريمته

وقال هذا القاتلُ في قتله لمحمد السجاد:

وَأَشْعَثَ قَوَّامٍ بِآياتِ رَبِّهِ ... قَليلِ الأَذى فيما تَرى العَيْنُ مُسْلِمِ
شَكَكْتُ لَهُ بِالرُّمْحِ جَيْبَ قَميصِهِ ... فَخَرَّ صَريعًا لِلْيَدَيْنِ وَ لِلْفَمِ
يُذَكِّرُني «حم» وَ الرُّمْحُ شاجِرٌ ... فَهَلاّ تَلا «حم» قَبْلَ التَّقَدُّمِ
عَلى غَيْرِ شَيْء، غَيْرَ أَنْ لَيْسَ تابِعًا ... عَلِيًّا، وَمَنْ لا يَتْبَعِ الحَقَّ يَنْدَمِ[1]

وقُتلَ حول الجمل آلافٌ من جيش البصرة، وقُتلَ سبعون رجلاً من قريش وحْدَها، كلٌّ منهم كان يتقدمُ ويمسكُ بزمام الجمل.

هودج عائشة كالقنفذ من النبال

ونَشبت النبالُ في الجمل، وفي هودجِ عائشة ـ وهي داخلَه ـ وتعلَّقت النبالُ في الهودج، فصار كالقُنفذ من كثرةِ النبال.

وكان القعقاعُ بن عمرو التميمي في جيشِ علي، يتألَّمُ لما يرى من كثرةِ القتلى والجرحى أمام الجمل، ومَن حوله.

فقال: لا يزالُ القتالُ قائمًا، مادام هذا الجمل واقفًا، وإذا أَردنا إِنهاءَ القتال فلا بدَّ من عقرِ الجمل !.

ثم إنَّ القعقاعَ خشي أنْ تُصابَ أمُّ المؤمنين عائشة أو تقُتل !.

القعقاع يأمر بعقر الجمل وينقذ عائشة

وكان يمسكُ بزمام الجمل «زُفَرُ بنُ الحارث» من جيش البصرة. فطلبَ منه القعقاعُ العملَ على إنهاء المعركة، وذلك بعقرِ الجمل.

ضربَ زُفَرُ بن الحارث الجملَ على قوائمه، فعقره، وسقطَ على

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٥٢٦.

الأرض وسُمعَ للجمل عَجيج، ما سُمعَ أشدُّ ولا أنفذُ منه.

وتقدمَ القعقاعُ وزفرُ من هودج عائشة، فأنزَلاه عن ظهر الجمل، ووضعاه جانباً.

ولما رأى جيش البصرة مصرع الجمل، ولّوا عن المعركة وتركوا ميدانها وعادوا إلى البصرة.

وكان إنهاءُ المعركة عند حلول الليل.

ضحايا معركة الجمل

وبذلك تكونُ معركةُ الجمل قد استمرتْ يومًا كاملاً، هو يوم الخميس العاشر من جمادى الثانية سنة ست وثلاثين[1].

وأسفرتْ معركةُ الجمل عن سقوطِ عشرة آلاف قتيل، خمسةُ آلاف من جيش البصرة، وخمسةُ آلاف من جيش علي. أما الجرحى في الجانبين فكانوا أضعافَ هذا العدد[2].

وكان في مقدمة القَتْلى: الزبير بن العوام، وطلحةُ بن عبيد الله، ومحمد بن طلحة، وكعب بن سور، رضي الله عنهم.

عائشة في البصرة ثم إلى مكة

أُخرجتْ عائشةُ أم المؤمنين من الهودج، معزَّزَةً مكرَّمة، وجاءَها أخوها محمد بن أبي بكر ـ من كبار قادة جيش علي ـ ثم أتاها عليٌّ نفسُه، فسلَّمَ عليها، ثم قال لها: يا أماه: يغفرُ الله لنا ولكم!.

فردتْ عليه عائشة قائلة: نعم يا بني، يغفرُ الله لنا ولكم!!.

ولما كان آخر الليل، أخذها أخوها محمد بن أبي بكر، وأنزلها في دار عبدِ الله بن خلف الخزاعي في البصرة، وبعد أيام جَهَّزها عليٌّ في موكبٍ كريم، وأَعادها معززةً مكرمة إلى مكة، رضي الله عنها![3].

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٥٣٣ ـ ٥٣٤.
(٢) تاريخ الطبري ٤: ٥٣٩. والبداية والنهاية ٧: ٢٤٥.
(٣) تاريخ الطبري ٤: ٥٣٤.

حوار إيماني بين عائشة والقعقاع

وبينما كانت عائشةُ في هودجها في أرض المعركة، مَرَّ بها القعقاعُ بن عمرو التميمي رضي الله عنه، فقالت له: يا قعقاع: سمعتُ أثناءَ المعركة أحدَ جيش الكوفة يخاطبني قائلاً:

يـا أُمَّنـا أَعَـقَّ أُمٍّ نَعْلَـمُ وَالأُمُّ تَغْـذو وَلَـدًا وَ تَـرْحَـمُ
أَلا تَـرَيْـنَ كَـمْ شُجـاعٍ يُكْلَـمُ وَتُخْتَلَـى مِنْـهُ يَـدٌ وَمِعْصَـمُ

وقد آلمني وأبكاني يا قعقاع.

فقال لها القعقاع: كذبَ والله، وإنك لأَبَرُّ أمٍّ نعلم، ولقد حاولْتِ الإصلاح، ولكنهم لم يطيعوك !.

فقالت له: والله يا بني، لوددتُ أني قد مِتُّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة !.

عائشة وعلي يتحسران للقعقاع

وخرجَ القعقاع إلى علي ـ وكان في جيشه ـ فأخبره بما سمع، فقال له علي: والله، لوددتُ أني مِتُّ قبلَ هذا اليوم بعشرين سنة !!.

فكان قولُ كلٍّ من عائشة وعلي واحداً، وألمُهما واحدًا، لما جرى في المعركة !.

وسألتْ عائشةُ عن بعض الرجال الذين كانوا في جيشها، فقيل لها: لقد قُتلوا. فقالت: يرحمهم الله !.

ثم سألتْ عن رجال كانوا في جيش علي، فقيل: قُتلوا. فقالت: يرحمهم الله.

عائشة تترحم على قتلى الجيشين

فلما استغربَ قومُ البصرة مِن ترحُّمِها على خصومها، قالت كما قال علي: إني لأرجو أنْ يكونَ أيُّ واحد قُتل من الجيشين، وقد نقّى قلبَه، من أهل الجنة ![1].

وأقامَ عليٌّ في أرض المعركة ثلاثةَ أيام، ورأى قتلى جيش البصرة،

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٥٣٧.

وحزنَ لهم وترحَّم عليهم، ورأى بين القتلى كعبَ بن سور قاضي البصرة، وغيرَه من وجوهها وفضلائها، فقال: كيفَ زعموا أنه لم يخرج لنا من البصرة إلا الغوغاءُ والسفهاء ؟.

وعلي يصلي على قتلى الجيشين

وصلّى عليّ صلاةَ الجنازة على قتلى الجيشيْن. ثم أَمر بجمعِ ما خلَّفه أهلُ البصرة في ساحة المعركة من سلاحٍ ومتاع، وأَمر بإرساله إلَى مسجدِ البصرة، وكلُّ مَنْ تعرَّف على شيء له، يأتي ويأخذُه.

أي أنه لم يأخذ ما تركه خصومُه فيئًا وغنائم لجيشه، ولم يقسِّمْه بينهم، وإنما أعاده إلى أصحابه.

وغضب السبئيّون من هذا التصرف، وأرادوا تقسيمَ أموال طلحة والزبير ـ وكانت بالملايين ـ وتقسيمَ باقي ما خلفه البصريون وراءهم.

مبايعة أهل البصرة لعلي

فردَّ عليهم علي قائلاً: أيكم يحبُّ أنْ تصيرَ أمُّ المؤمنين عائشة في سهمه ؟ وأنْ يجعلَها أَمَةً وجاريةً عنده ؟[1].

ثم دخلَ عليّ البصرة، وبايعَ له أهلُها جميعًا، وعيَّنَ عبدَ الله بن عباس رضي الله عنهما واليًا عليها.

وكلَّمه أحدهم فيما جرى بينه وبين طلحة والزبير، فقال علي رضي الله عنه: لا تقولوا إلاّ خيرًا، وإنّي لأرجو أنْ أكونَ أنا وعثمان وطلحة والزبير ممن قال الله عنهم يوم القيامة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[2] [الحجر: ٤٧].

علي يجعل الكوفة عاصمة له

وبعدما أقامَ عليٌّ أيامًا في البصرة، واستقامتْ أوضاعُها، توجَّه إلى الكوفة، ودخلَها يوم الإثنين الثاني عشر من شهر رجب سنة ست وثلاثين، وجعلَها عاصمةً لخلافته، التي لم تستمر طويلاً.

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٢٤٥.
(٢) البداية والنهاية ٧: ٢٤٩.

وبعث علي الصحابيَّ جريرَ بن عبدِ الله البَجَلِيّ إلى معاويةَ في الشام، وطلب منه مبايعتَه، وطاعته، والدخولَ فيما دخل فيه الناس.

علي يدعو معاوية للدخول في الطاعة

واستشارَ معاويةُ أهل الشام، فاتفقوا على أنهم لا يبايعونه إلا بعدَ أن يقتلَ هو قتلةَ عثمان، الذين معه في جيشه، أو أنْ يُسَلِّمَ إلى معاوية هؤلاء القتلة فيقتلَهم، لأنه وليُّ دم عثمان[1].

إنَّ معاويةَ رضي الله عنه ومَنْ معه مِن أهل الشام، مجتهدون معذورون في مطالبتهم بإقامة الحدِّ على قتلة عثمان، وقتْلِهم قصاصًا، ومعاويةُ هو وليُّ دم عثمان، لأنه قريبُه، من بني أمية، ولهم وجهةُ نظرٍ في تعليقِهم بيعةَ علي أمير المؤمنين، حتى يقتصَّ من قتلةِ عثمان!.

وجهة نظر علي ومعاوية

وعندما ننظرُ في موقف عليٍّ في الطرف الآخر، فإننا نجده مجتهدًا معذورًا في تأخيرِه الاقتصاص من قتلة عثمان، حتى تهدأَ الأمور، وتستقرَّ الأوضاع، ويبايعَ له كلُّ المسلمين!.

لا ينكرُ أحدٌ أنه كان في جيش علي أكثرُ من ألفيْن مِن قتلةِ عثمان، وأنَّ بعضَهم كان من كبار قادته كالأشتر النخعي، وأنَّ عليًا كان يكرههم، ويتحينُ الفرصةَ المناسبةَ للتخلصِ منهم، والقضاءِ عليهم، وكان حريصًا على إقامةِ الحدِّ عليهم، عندما تهدأُ الأمور.

الخروج على علي أخر معاقبته للقتلة

إنَّ المطالبين بالإسراع في إقامةِ الحدِّ على قتلة عثمان، قد أَشْغَلوا عليًا، حيث اضطرَّ للتوجُّه إليهم، وتأخيرِ محاسبةِ القتلة، وإنَّ شغبَهم عليه، ثم حدوثَ المعارك بينه وبينهم، في الجمل، ثم في صفّين، قد أخَّرَ محاكمته للقتلة.

ولو أنَّ المطالبين بذلك الحق، لم يخرجوا على عليّ في البصرة ثم في الشام ـ وهم معذورون مجتهدون، ولهم وجهةُ نظرٍ مسموعةٌ على الأقل ـ

---

(1) البداية والنهاية ٧: ٢٥٤.

لتفرَّغَ عليٌّ لمحاسبة القتلة، وتخلَّصَ منهم !.

مشكلة علي وجود القتلة في جيشه

إنَّ تأخيرَ محاكمةِ علي لقتلةِ عثمان كان باجتهادٍ، ولضرورة، وإنَّ وجودَ القتلة في جيشه كان لضرورة !!.

وهذا كان قدرُ علي، وهذه هي المشكلةُ الخطيرةُ التي عصفتْ بخلافته وقضتْ عليها، ثم انتهت باستشهاده رحمه الله.

هذا ما قدَّره الله على هذه الأمة، وكان قدرُ الله واقعًا نافذًا[1].

علي يتوجه لإخضاع الشام

توجَّه علي رضي الله عنه من الكوفة إلى الشام، لإخضاعِ معاويةَ ومَن معه، واستعدَّ معاويةُ للقائه ومقاتلته.

ولو لم يتحركْ عليٌّ للشام لما قصد له معاوية، ولا وجَّه جيشًا لقتاله.
ولكن كيفَ يسكتُ عليٌّ أميرُ المؤمنين عن مخالفةٍ وعدم مبايعة ؟.

إنه يراها عصيانًا وتمردًا وخروجًا على الخليفة !.

جيش علي وجيش معاوية

كان عددُ جيش علي مئةً وعشرين ألفًا، وكان عددُ جيش معاوية تسعين ألفًا.

وكان من قادةِ جيش علي: الأشتر النخعي، وقيس بن سعد بن عبادة، وعمار بن ياسر، وعبد الله بن عباس.

وكان من قادة جيش معاوية: عمرو بن العاص، وعمرو بن سفيان السلمي ـ أبو الأعور ـ والنعمان بن بشير الأنصاري، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد.

والتقى الجيشان في «صفّين» على نهر الفرات، وكانت معركةُ صفين الأليمة المحزنة، التي استمرتْ أسابيع، وسقطَ فيها عشرات الآلاف من القتلى من الجيشين.

---

(١) انظر العواصم من القواصم لابن العربي: ١٦٢ ـ ١٧٢ مع هوامش محب الدين الخطيب.

معركة صفين في جولتها الأولى ثم الهدنة

بدأ القتالُ بين الجيشيْن في شهر ذي الحجة سنة ست وثلاثين، وكان القتالُ مناوشاتٍ ومبارزات بينهما، واستمرَّ القتالُ بينهما طيلة شهر ذي الحجة، وربما كانوا يقتتلون في اليوم الواحد مرتيْن[١].

ولما دخلَ شهرُ محرم من سنة سبع وثلاثين تحاجزَ الجيشان، وتوقَّفا عن القتال طيلةَ الشهر، رجاءَ أن يقعَ بينهما مهادنة وموادعة، تنتهي إلى الصلح، وإنهاءِ المشكلة، وحقنِ الدماء.

عدي بن حاتم موفد علي إلى معاوية

وفي شهر محرم بعثَ علي وفدًا منه إلى معاويةَ المعسكرِ بجيشه في صفين، وكان الوفدُ برئاسة عَدِيٍّ بن حاتم الطائي رضي الله عنه.

ودعا عديٌّ بن حاتم معاوية إلى مبايعة علي، ليجمعَ الله الكلمة، ويحقنَ الدماء، ويصلحَ ذات البين.

وردّ معاويةُ على دعوة عدي بقوله: نحن لا نَرُدُ على علي، ولا ننازعُه الأمر، ولا نتهمُه بقتْل عثمان، ولكنه آوى القتلة، وكلُّ ما نريده منه هو أنْ يُسلم لنا القتلةَ لنقتلَهم، وبعد ذلك نبايعُه أميراً للمؤمنين، ونجيبُه إِلى الطاعة[٢].

إن منطقَ معاويةَ واضح، ووجهةُ نظره ظاهرة، ولكن عليًا عاجزٌ في مثل تلك الأجواء، عن تنفيذ ما يطلبه معاوية، لما سبق أنْ قلنا.

ولم تنجحْ مهمةُ عدي بن حاتم عند معاوية.

حبيب بن مسلمة موفد معاوية إلى علي

ثم بعثَ معاويةُ من طرفه وفدًا إلى علي لمحاولة إقناعه بتسليمِ قتلةِ عثمان، وإنهاءِ القتال، وكان الوفدُ برئاسة حَبيبِ بن مَسْلَمَة الفِهْري، ولكنه لم يخرج بنتيجة[٣].

ومضى شهرُ المحرم، ولم تنجح جهود الصلح بين الفريقين، ودخل

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٢٥٦ ـ ٢٥٨.

(٢) البداية والنهاية ٧: ٢٥٨.

(٣) البداية والنهاية ٧: ٢٥٦ـ٢٥٨.

شهرُ صفر، وكان لا بدَّ من الجولةِ الثانيةِ العنيفة الشرسة القاسية من معركة صفين.

الحرب الطاحنة في صفين

بدأت الحربُ الطاحنةُ يومَ الأربعاء الأولَ من شهر صفر، واستمرتْ حتى يوم الجمعة العاشرِ من صفر.

كانت المعركةُ في صفين عشرةَ أيامٍ كاملة، شديدةً طاحنة، زحف فيها الجيشان، وتداخَلا، والتحما، وسقطَ فيها عشراتُ الآلاف من القتلى، وأَضعافُهم من الجرحى !!.

القتال عشرة أيام شديدة

وكانت أعنفَ ما تكون يومَ الخميس التاسع من صفر، وليلةَ الجمعة العاشر من صفر، التي سميت «ليلةَ الهَرير»، لأنه كان لا يُسمعُ للمقاتلين من الجيشيْن فيها صوتٌ ولا كلام، إلا هريرٌ وهمهمة، من التعبِ والإعياء، والاستبسالِ والاستقتال.

تقاتَلوا في هذه الليلة بالرماحِ حتى تقصَّفت، وبالنبالِ حتى فنيت، وبالسيوفِ حتى تحطمتْ [1]. . .

وفي عصرِ الجمعة العاشرِ من صفر، رفع أهلُ الشام المصاحف على الرماح، ودخلتْ مرحلةٌ جديدة من الصراع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما.

مقتل عمار بن ياسر في صفين

وفي معركة صفين قُتل عمارُ بن ياسر رضي الله عنه، وكان مع علي ضدَّ أهل الشام.

قال عبدُ الله بن سلمة: رأيتُ عمارًا يوم صفين، شيخًا كبيرًا طويلاً، أخذَ الحربةَ بيده، ويده تَرْعد، وهو يقول: والذي نفسي بيده، لقد قاتلتُ بهذه الراية مع رسول الله ﷺ ثلاثَ مرات، وهذه الرابعة ! ووالله لو

---

(١) انظر في وصف أيام معركة صفين العشرة: البداية والنهاية ٧: ٢٦٢ ـ ٢٧٣.

ضربونا، حتى يبلغوا بنا هُجَر - في البحرين - لما شككتُ أننا على الحق وأنهم على الباطل.

وقد سأل قيسُ بن عباد عمارَ بن ياسر في المعركة، فقال له: أرأيتَ قتالَكم مع علي، هل كان رأيًا رأيتُموه، فإنَّ الرأيَ يخطىء ويصيب، أو هو عهدٌ عَهِدَه إليكم رسولُ الله ﷺ؟.

فقال عمار: لم يعهد إلينا رسول الله ﷺ شيئًا لم يعهده إلى الناس كافة[1].

فعمارٌ يعترفُ بأن قتالَهم مع علي كان عن رأي واجتهاد، والرأيُ والاجتهاد قد يخطىء، وقد يصيب.

وقد أخبرَ رسولُ الله ﷺ أن الفئةَ الباغية تقتلُ عمارًا رضي الله عنه.

تقتل عماراً الفئة الباغية

فقد روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال لعمار: «تقتلكَ الفئة الباغية».

وقد روى أبو عبد الرحمن السلمي مقتل عمار، قال: كنا مع علي بصفين... ورأيتُ عمارًا، لا يسير في وادٍ من أودية صفين، إلا اتبعه من كان هناك من صحابة رسول الله ﷺ.

ورأيت عماراً جاء إلى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص - ابن أخي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه - وهو صاحبُ راية علي في صفين.

فقال عمارٌ لهاشم: يا هاشم تقدَّمْ! الجنةُ تحت ظلال السيوف، وقد فُتحت الجنة، وتزينت الحورُ العين.

اليَوْمَ أَلْقَى الأَحِبَّه ... مُحَمَّدًا وَصَحْبَهْ

فحمل هاشم وعمار حملة قوية، واخترقا الجيش، فقُتِلا رحمهما الله.

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٢٦٧ - ٢٦٨.

وجاء قاتلُ عمار ـ وهو ابْن جَوى السَّكْسَكي ـ إلى عمرو بن العاص، فقال له: أنا قتلت عمارًا .

فقال له عمرو: أما والله ما ظفرَتْ يداك، وقد أسخطْتَ ربَّك !![1].

قال أبو عبد الرحمن السلمي: بعدما قُتل عمار، ودخلَ الليل، قلت: لأَدخلَنَّ الليلةَ إلى معسكر الشاميين، لأرى وقعَ مقتل عمار عليهم.

أربعة من قادة جيش الشام يتدارسون مقتل عمار

فدخلتُ معسكرهم، فإذا أنا بأربعةٍ يتسامرون ويتحدثون:

معاوية، وأبو الأعور السلمي، وعمرو بن العاص، وابنه عبد الله بن عمرو ـ وهو خير الأربعة ـ فأَدخلتُ فرسي بينهم، لأكونَ قريبًا منهم، فأسمعَ ما يقولون، ولا يفوتُني منه شيء.

فقال عبدُ الله بن عمرو: قتلتُم هذا الرجل في يومكم هذا، وقد قال فيه رسولُ الله ﷺ ما قال ؟

قال له أبوه عمرو: وماذا قال ؟

عبد الله بن عمرو يروي لهم حديث الرسول عن مقتل عمار

قال عبدُ الله بن عمرو: لما بنى المسلمون مسجدَ رسولِ الله ﷺ، كان الناسُ ينقلون حجرًا حجرًا، ولَبِنَة لبنة، وكان عمارٌ ينقل حجريْن حجرين، ولبنتين لبنتين.

فأتاه رسولُ الله ﷺ فقال: ويحك يا عمار، تقتلكَ الفئةُ الباغية !!.

فأقبل عمرو على معاوية. فقال له: ألا تسمعُ ما يقول عبد الله ؟

وأَخبر معاوية بالحديث فقال معاوية: نعم، تقتلُ عماراً الفئة الباغية. هل نحن قتلْنا عماراً ؟ إنما قتلَه الذين أخرجوه وجاؤوا به !!!.

فصارَ أهلُ الشام يقولون: إنما قتلَ عمارًا مَن جاءَ به وأَخرجه !![2].

وهذا الحديثُ الصحيحُ عن مقتل عمار على يد الفئة الباغية، من

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٢٦٨ ـ ٢٦٩.

(٢) البداية والنهاية ٧: ٢٧٠ ـ ٢٧١.

دلائلِ نبوة محمد ﷺ، حيث أخبرَ الرسولُ عليه الصلاة والسلام عن مقتل عمار، وتحققَ ما أخبر عنه بعد سبع وثلاثين سنة !.

جيش الشام بغاة على علي

كما أن هذا الحديثَ الصحيحَ يدلُّ على أنّ عليًا أقربُ إلى الحق من معاوية، رضي الله عنهما، وأنَّ أهلَ الشام هم الفئةُ الباغية، الذين بغوا على علي، وخرجوا عليه، رغمَ أن أهلَ الحل والعقد من الصحابة بايعوه أميراً للمؤمنين، فكانت بيعتُه وخلافتُه شرعية، ولما رفض أهل الشام بيعتَه وخرجوا عليه، وقاتلوه ـ وهم مجتهدون متأولون معذورون ـ كانوا فئةً باغيةً على أمير المؤمنين.

أما تأويلُ معاوية رضي الله عنه، بأنَّ الذين قتلوا عمارًا هم جيشُ علي لأنهم أَخرجوه إلى صفين، فهو تأويلٌ بعيد، وغيرُ مقبول منه !!.

الغلبة لجيش علي في صفين

في الساعاتِ الأخيرةِ من معركة صفين كانت الغلبةُ لجيش علي، حيث اخترقوا صفوفَ جيشِ معاوية، وكادَ أهلُ الشام ينهزمون.

وفي هذه الساعات تقدمَ عمرو بن العاص إلى معاوية رضي الله عنهما، وقال له: إني قد رأيتُ أمرًا لا يزيدُنا إلا اجتماعًا، ولا يزيدُهم إلا فرقة، أَرى أن نرفعَ المصاحف، وندعوهم إلى الاحتكام إليها، فإن استجابوا لنا انتهى القتال، وإن اختلفوا فيما بينهم، بين موافقٍ ورافض، فشلوا وذهبَ ريحُهم !.

خطوة عمرو بن العاص في رفع المصاحف

قال أبو وائل ـ شقيقُ بن سلمة الأسدي التابعي ـ: كنا بصفين، فلما استمَرَّ القتل واشتدَّ وكثرَ بأهل الشام، اعتصموا بتل. فقال عمرو بن العاص لمعاوية: أَرسِلْ إلى علي بمصحف، فادْعُه إلى كتابِ الله، فإنه لن يأبى عليك !.

فجاءَ رجلٌ بالمصحف، وقال: بيننا وبينكم كتابُ الله، نتحاكمُ إليه !

ثم تلا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣].

فقال علي: أَنا أولى بذلك منكم. بيننا وبينكم كتابُ الله.

فعند ذلك خرجَ عليه الخوارج، وجاؤوه وسيوفُهم على عواتقهم، ورفضوا دعوةَ أهلِ الشام الاحتكامَ إلى القرآن، وقالوا: لا بدَّ أنْ نسيرَ إليهم بسيوفنا، حتى يحكمَ اللهُ بيننا وبينهم.

انقسام في جيش علي ودعوة سهل ابن حنيف

فوقفَ سهلُ بن حنيف الأنصاري رضي الله عنه، فقال: يا أيها الناس، اتَّهموا الرأي على الدين، ولقد رأيتُني يومَ الحديبية، لو أقدرُ لرددتُ على رسول الله ﷺ أمره.

ثم بيَّنَ سهلُ بن حنيف الحيرةَ الشديدةَ التي يعيشها المسلمون منذُ وفاةِ عثمان، فقال: ووالله ما حمَلْنا سيوفَنا على عواتِقِنا منذ أسلمنا، إلا ويقودُنا إلى أمرٍ نعرفُه، غيرَ أمرِنا هذا، فإنا لا نسدُّ منه فتحاً ولا فتْقاً، إلا انفتحَ لنا غيرُه، ولا ندري كيف نتصرفُ فيه !!![1].

ورغبَ الشاميون والعراقيون في التحكيمِ والصلح، لعل هذا يقودُ إلى حقن دماءِ المسلمين، وإنهاءِ الخلافات بينهم.

ولم يخرجْ عن هذه الرغبة إلا الخوارج، الذين تضاعفت مشكلتُهم مع علي فيما بعد.

وبهذه الدعوةِ إلى الاحتكام للقرآن، تكون قد انتهت معركةُ صفين.

ضحايا معركة صفين سبعون ألف قتيل

وكان انتهاؤُها يومَ الجمعة، العاشرِ من شهر صفر، سنة سبع وثلاثين.

وكان قتلى المسلمين في صفين سبعين ألفًا.

عدد قتلى جيش معاوية خمسةٌ وأربعون ألف قتيل !!.

وعدد قتلى جيش علي خمسةٌ وعشرون ألف قتيل !![2].

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٢٦٨ و ٢٧٣.

(٢) البداية والنهاية ٧: ٢٧٥.

هذا غيرُ عدد الجرحى والمصابين.

ونعلمُ أن هذا عددٌ كبير، ورقمٌ مرتفع، وهذا يشيرُ إلى عمق المأساة التي أصابت المسلمين في تلك الأيام!!.

وقد أخبرَ رسولُ الله ﷺ عن هذه المعركة، قبل وقوعها بسنوات عديدة.

الرسول يخبر عن معركة صفين

فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «لا تقومُ الساعة، حتى تقتتلَ فئتان عظيمتان، مقتلةً عظيمة، دعواهما واحدة»![1].

لقد كانت الفئتان في صفين عظيمتيْن، فجيشُ علي مئة وعشرون ألفًا، وجيش معاوية تسعون ألفًا، ومجموعُ الجيشين مئتان وعشرةُ آلاف، قُتل منهم سبعون ألفًا!، أي قُتل ثلثُ المسلمين في صفين!!، وهي مقتلةٌ عظيمة!.

ودعوى الفئتيْن واحدة، وهي الانتصارُ للحق والدفاعُ عنه، بالاجتهاد والتأويل!.

اتفاق الفريقين على التحكيم

بعد رفع المصاحف، وانتهاءِ حرب صفين، إلى ما انتهتْ إليه، وبعد مكاتباتٍ ومراجعات بين جيش علي وجيش معاوية. اتفقَ الفريقان على التحكيم.

وذلك بأنْ يختارَ علي حَكَمًا من جهته، ويختارَ معاويةُ حَكَمًا من جهته.

ثم يلتقي الرجلان الحَكَمان، ويتناقشان في حلِّ المشكلة، وبعد ذلك يتفقان على ما فيه مصلحةُ المسلمين، ويُصدران حكْمَهما المناسب، وحكْمُهما ملزمٌ للفريقين.

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٢٧٥.

اختارَ معاويةُ من طرفه عمرو بن العاص رضي الله عنه حَكَمًا، ولم تكن مشكلةٌ في جيش معاوية، فهم متَّبعون سامعون مطيعون له، وهذه مزيةٌ ملحوظةٌ في أهل الشام !!

عمرو بن العاص من طرف معاوية

إنما المشكلةُ في جيش علي، ومعظمه من الأعراب والرعاع والغوغاء، والكوفةُ مركزُ الفوضى والتمرد في تلك الفترة.

أرادَ علي اختيارَ عبد الله بن عباس حَكَمًا، ممثلاً له ونائبًا عنه، ولكن أهلَ الكوفة شَغَبوا على علي ورفضوا ذلك، وقالوا: عبدُ الله بن عباس بنُ عمك، وقد غمسْتَه معك في الفتنة.

نُريدك أنْ تجعلَ أبا موسى الأشعري - عبدَ الله بن قيس - رضي الله عنه حَكَمًا، فقد كان يَنهى الناسَ عن الفتنة والقتال، وقد اعتزلَ الأحداثَ كلها، وأقام في أرضٍ له بالحجاز، وهو يصلحُ أن يكون حكَمًا !!.

إكراه علي على إيفاد أبي موسى الأشعري

قال علي: إذا لم تقبلوا بابن عباس حكَمًا، فاجعلوا الأشتر حكَمًا !.

قالوا: وهل سعَّرَ الحربَ وأفسدَ الأمْرَ إلا الأشتر !!.

وأصرَّ أهلُ الكوفة على أبي موسى الأشعري، وكان علي لا يريدُ جْعلَه حكَمًا، ليس طعْنًا فيه، فهو صحابي جليل، ولكنه لا يرى رأيَه في الفتنة، ولم يتابعْه في الأحداث، ولم يقتنعْ بحجتِه ولا بوجهةِ نظره، فكيف يكون مندوبًا عنه، أو ممثلًا له ؟؟.

لكن عليًا أُكره على أبي موسى الأشعري، وكان جيشُه يغلبونه على رأيه، ويتحكَّمون في قراره، لأنهم مع قبائلهم وعصبتهم، ولم يكن لعلي قوةٌ أو عصبيةٌ معهم، فكان مغلوبًا على أمره أمامهم. وهذا قدَرُه رضي الله عنه.

ذهبوا إلى أبي موسى الأشعري، وأخبروه بأن الناس قد اصطلحوا وأوقفوا الحرب في صفين واتفقوا على التحكيم. فقال: الحمد لله رب العالمين.

ثم قالوا له: لقد جعلت حكماً، من قِبل علي. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

نص كتاب التحكيم بين الطرفين وشهوده

وكتبوا كتابَ التحكيم بين الفريقيْن، ومما ورد في الكتاب: هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قاضى علي على أهل العراق، ومَنْ معهم من شيعتهم، والمسلمين، وقاضى معاوية على أهل الشام، ومَن كان معه من المؤمنين والمسلمين:

إننا ننزلُ عند حكْم الله وكتابِه، ونحيي ما أحيا الله، ونُميتُ ما أماتَ الله.

فما وَجد الحكَمان ـ وهما أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص ـ في كتاب الله عَمِلا به، ومالم يجدا في كتاب الله، فعليهما بالسنةِ العادلةِ الجامعة غير المفرِّقة[1].

وأخذ الحَكَمان العهود والمواثيق على الفريقين، أنهما آمِنان على أنفسهما وأهلهما، وأن الفريقيْن ملتزمان بالحكم الذي يصدر عنهما.

وشهدَ على كتابِ التحكيم كبارُ قادة جيش علي، كعبد الله بن عباس، والأشعث بن قيس، وكبارُ قادة جيش معاوية، كأبي الأعور السلمي، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وحبيب بن مسلمة.

اللقاء في أذرح في رمضان

واتفق الحَكَمان على أن يلتقيا في شهر رمضان في «أَذْرُح»[2].

و«أَذْرُح» قريةٌ على جبال الشَّراة، في جنوب الأردن.

وبعد الاتفاق على التحكيم، وتوكيلِ أمْرِ الأمة إلى الحكَمَيْن، انسحبَ الجيشان من صفين، وعاد كلٌّ إلى موقعه.

أمامعاويةُ فقد عاد إلى الشام، وهي بلادٌ تابعة له ومطيعة لأوامره، ولم

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

(٢) البداية والنهاية ٧: ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

يجدْ معاويةُ مشكلة ولا شَغَبًا، ولا تمردًا أو عصيانًا.

علي يواجه الخوارج الرافضين للتحكيم

وأما علي فقد غادرَ صفين عائدًا إلى الكوفة، ولكنه واجَه أمامه أخطرَ مشكلة، وهي مشكلةُ «الخوارج»، الذين خرجوا عليه في صفين لقبوله التحكيم، ثم تضاعفَتْ مشكلتهم، وتطورتْ فيما بعد.

كانت بدايةُ أمر الخوارج أثناءَ معركة صفين، فعندما رضيَ علي بالتحكيم أثناءَ المعركة، ذهب الأشعثُ بن قيس الكندي إلى بني تميم، يخبرهم بالتحكيم، فقامَ إليه «عُرْوَةُ بنُ جرير التميمي» وقال عبارة، أصبحتْ دستورَ الخوارج وشعارَهم فيما بعد.

قال: أَتحكِّمون الرجالَ في دين الله ؟

فصارَ الخوارج بعده يقولون: لا حكْمَ إلا لله. وهي كلمةُ حق، لكنهم أرادوا بها الباطل[1].

الخوارج يكفرون علياً ويفارقونه إلى حروراء

ولما وصلَ علي الكوفة، انفصلَ عنه اثنا عشر ألفًا من جيشه، وخرجوا عليه، لأنه رضيَ بالتحكيم، وبذلك حكَّمَ الرجالَ في دين الله، مع أنه لا حكْمَ إلا لله، وبذلك يكون قد كفر، وخرج من دين الله، ويجبُ أنْ يقاتَلَ لكفره وردتِه !!!.

لم يدخل هؤلاء الخوارجُ مع علي الكوفة، وإنما ذهبوا إلى قرية تُسمى «حَروراء» فسُمّوا الحرورية باسمها، كما سُمّوا «الخوارج» و «المحكِّمة»، وكانوا يسمون أنفسهم «الشُراة». أي: هم الذين شروا أنفسهم ـ باعوها ـ لله.

الرسول يخبر عن خروج الخوارج

وقد أخبرَ رسولُ الله ﷺ عن خروج الخوارج. فقد روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «تمرقُ مارقة، عند فُرْقةٍ من المسلمين، تقتُلهم أَوْلى الطائفتيْن بالحق».

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٢٨٨ـ٢٨٩.

وفي روايةٍ أخرى أنه قال: «تكونُ أُمتي فرقتين، تخرجُ بينهما مارقة، تَلي قتْلَها أَولاهما».

وقد علَّقَ أبو سعيد الخدري على الحديث، فقال لأهل العراق: فأنتم قتلتموهم يا أهلَ العراق.

دلالات هامة من ذلك الحديث

وهذا الحديثُ الصحيحُ يشير إلى عدة دلالات:

منها: إثباتُ النبوة، حيث أخبرَ رسول الله ﷺ عن خروجهم، وقد خرجوا فعلاً بعد سنواتٍ عديدة، كما أَخبر.

ومنها: خروجُهم أثناءَ افتراقِ واختلافِ المسلمين، كماحصل يوم صفين.

علي أقرب للحق من معاوية

ومنها: الحكمُ بإسلام الفرقتيْن المختلفتيْن، جيشِ علي، وجيشِ معاوية.

ومنها: الحكُم بأنَّ الفرقةَ التي تقاتل الخوارج هي أَولى الطائفتيْن بالحق. وهذا يعني أن عليًا وأصحابَه هم أقربُ إلى الحق من معاوية وأصحابه، مع أن معاويةَ وأصحابَه كانوا على الحق، ولكنَّ عليًا وأصحابَه هم الأَوْلى والأقربُ إلى الحق: «تقتلهم أَولى الطائفتين بالحق»[1].

ولما خرجَ الخوارجُ على علي، وذهبوا إلى حروراء، أَمَّروا عليهم «عبدَ الله بن وهب الراسبي».

ابن عباس يحاور الخوارج ويعيد نصفهم

وأرادَ علي أن يقضيَ على فتنتهم، وأنْ يعيدَهم إلى جماعة المسلمين، فبعثَ إليهم وهم في حَروراء عبدَ الله بن عباس رضي الله عنهما، ليجادلَهم ويقيمَ الحجةَ عليهم.

وأقامَ ابنُ عباس عندهم ثلاثةَ أيام، وكان يُجادلُهم ويُزيل شبهاتِهم، وأخيرًا تمكَّن من إقناعِ نصفهم، حيث أَعلنوا عن توبتِهم، وترْكِهم

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٢٧٩ـ٢٨٠.

الخروجَ على علي، وعودتِهم إلى جماعة المسلمين، فعادَ بهم ابن عباس إلى علي في الكوفة.

أما النصفُ الثاني فقد أصرّوا على ماهم عليه.

علي يخبر الخوارج عن موقفه منهم

وأرسلَ عليّ إلى هؤلاء قائلاً: بيننا وبينكم أن لا تسفكوا دَمًا حرامًا، ولا تقطعوا سبيلاً، ولا تظلموا ذمّيًا، ونحن لا نمنعُكم مساجدَ الله، ولانبدؤكم بالقتال حتى تبدؤونا[١].

وقد وقفَ علي يومًا خطيبًا في الكوفة، فقام له أحدُ الخوارج، وقال له: يا علي، لقد أشركتَ الرجال في دين الله، ولاحكمَ إلا لله.

فقامَ الخوارجُ من أطراف المسجد، وتصايحَوا قائلين: لا حُكْمَ إلا لله، لا حكْمَ إلا لله.

فردَّ عليهم علي قائلاً: هذه كلمةُ حق، يُراد بها باطل[٢].

شعارهم: لاحُكْمَ إلا لله. كلمة حق أرادوا بها الباطل

وهذا كلامٌ صائبٌ من علي رضي الله عنه، فما ينادي به الخوارج، من قولهم: لا حكم إلا لله. كلامٌ حق في ذاته، فمعلوم في الإسلام أن الحاكمَ هو الله، وأن الحكْمَ حكمُه، والأمْرَ أمْرُه، والحاكميةُ إحدى خصائص الألوهية. وهذا كلُّه صوابٌ وصحيح.

لكن الخوارجَ أرادوا الباطل بهذا الحق، وأرادوا توظيفَ هذا الحقِّ في الشغبِ على الخليفة، والتمردِ والخروج عليه، بل تكفيره. والكلامُ لا يدلُّ على هذا، ولا يُستخرجُ منه هذا الباطل.

علي ينصف الخوارج الذين كفروه

وفي موطنٍ آخر، أنصفَ علي رضي الله عنه الخوارجَ الذين كفَّروه واستحلّوا دمَه.

عن علقمة بن عامر قال: سُئل عليٌّ عن الخوارج: أمشركون هم ؟

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٢٨١.

(٢) البداية والنهاية ٧: ٢٨٢.

قال: لا. ليسوا مشركين، بل هم من الشركِ والكفر فرّوا !

قيل له: أفمنافقون هم ؟

قال: لا. المنافقون لا يذكرون اللهَ إلا قليلاً. وهؤلاء يذكرون الله كثيرًا.

قيل له: فمن هم يا أمير المؤمنين ؟

قال: إخوانُنا، بغَوْا علينا، فقاتلناهم بسببِ بغيهم علينا !![1].

وفي شهر رمضان سنةَ سبعٍ وثلاثين، حان موعدُ اجتماع الحكَمَين، كما اتفقوا في صفين.

اجتماع الحكمين في أذرح

وبعثَ علي أربعَمئة رجل، ليشهدوا التحكيمَ من طَرَفه، فيهم عبدُ الله بن عباس، وبعثَ معاويةُ من طرفه أربعَمئة رجل، منهم عبد الله بن عمر.

والْتقى الحَكَمان أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص في «أَذْرُح» من أعمال «دَوْمَةِ الجَنْدَل» ـ في ذلك الوقت ـ.

وأرادَ بعضُ المسلمين إشراكَ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في التحكيم، والطلبَ منه ليكون أميرًا للمؤمنين، ليجمع كلمةَ المسلمين.

الأنظار تتوجه لسعد بن أبي وقاص

وكان سعدٌ من أهل الشورى زمنَ عمر و عثمان، وهو من العشرة المبشرين بالجنة ولم يَبقَ منهم حيًا سنة سبعٍ وثلاثين إلا ثلاثة: علي أمير المؤمنين الذي يخوضُ المعاركَ ضدَّ المخالفين له، وسعد وسعيد بن زيد، وكانا قد اعتزلا الفتنةَ والقتال، وأقام كلٌّ منهما في أرضه ـ بضواحي المدينة ـ.

وكانت بعضُ الأنظار تتطلعُ إلى سعد، وتتمنى أنْ يليَ الخلافة، ويجمعَ كلمةَ الأمة، ولكنَّ نفسَه خرجتْ من الأمر، واعتزلَ الفتنة.

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٢٩.

عمر بن سعد يدعو أباه ليسعى للخلافة

روى الإمام مسلم في صحيحه عن عامرِ بن سعد بن أبي وقاص، أنَّ أخاه عمر بن سعد، انطلقَ إلى أبيه سعد، وكان في غنمٍ له خارجًا من المدينة.

فلما رأى سعدٌ ابنَه عمرَ قادمًا قال: أعوذُ بالله من شرِّ هذا الراكب !.

فأتاه ابنُه فقال: يا أبتِ، أرضيتَ أنْ تكونَ أعرابيًا في غنمك، والناسُ يتنازعون الملكَ والخلافة ؟، قم واحضُرْهم واشهدْهم، فإنك صاحبُ رسول الله ﷺ، وأحدُ أصحاب الشورى، ولم تدخلْ في شيء كرهَتْه الأمة، وأنت أحقُّ الناس بالخلافة !!.

فضرب سعدٌ صدر عمر، وقال له: اسكت. فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إن الله يحبُّ العبدَ التقيَّ الغنيَّ الخفي».

عمر يستعين بأخيه عامر لإقناع أبيه

ولمّا لم يستجب سعدٌ لدعوة ابنه عمر، استعان عمر بأخيه عامر، ليُقنعَ أباه بالخروج إلى الناس ليكون أميرًا للمؤمنين.

فأتى عامرٌ أباه، وقال له: يا أبت، الناسُ يتقاتلون على الدنيا وأنت هاهنا ؟.

سعد يريد سيفاً ناطقاً !!

فقال له: يابني، أفي الفتنة تريدُ أنْ أكونَ رأسًا ؟ ؟ لا والله لا أخرجُ حتى أُعطى سيفًا يميزُ الذين أقاتلُهم. فإنْ ضربْتُ به عنقَ مؤمن، نَبا عنه ولم يؤثِّرْ فيه، وإنْ ضربْتُ به عنقَ كافرٍ قطعَه وقتلَه !!!.

ثم قال له: يا بُني: إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب العبد الغني التقي الخفي»[1].

اجتمعَ الحكَمان في أذرح، وتدارَسا الأمر، وفكَّرا في حلِّ المشكلة.

الجو العام عند اجتماع الحكمين

ولا ننسى أنه لم يكن عندَ اجتماع الحكمين في «أَذْرح» إلا خليفةٌ واحد،

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٢٨٣.

وهو علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فهو الذي كان شيعتُه وأصحابه ومَن معه يعتبرونه أميراً للمؤمنين.

أما معاويةُ بن أبي سفيان فلم يَدَّعِ الخلافة، ولم يُنَصِّبْ نفسَه أميرًا للمؤمنين، ولم يبايعْه شيعتُه وأصحابُه على أنه أميرٌ للمؤمنين.

علي وحده أمير المؤمنين ومعاوية والٍ على الشام

أي أنَّ الخلافَ والنزاع والقتال لم يكن بين خليفتيْن وأميريْن للمؤمنين ـ علي ومعاوية ـ إنما كان بين أمير للمؤمنين بايَعَه معظمُ المسلمين، ورفضَ بعضُهم ـ وهم أهل الشام بقيادة معاوية ـ مبايعتَه، إلا بعدَ الاقتصاصِ من قتلةِ عثمان وقتْلِهِم.

أي أنَّ معاويةَ بن أبي سفيان كان يعلنُ عن نفسه أنه وليُّ دمِ الشهيد عثمان، وأنه الوالي على الشام زمن عمرَ وزمن عثمان، وأنَّ عَزْلَ علي له عن الشام غيرُ صحيح، لأنَّ عليًا ليس أميرًا للمؤمنين ـ في نظره ـ حتى يعزلَه، وأنه سيبقى واليًا على الشام، حتى يأتَي أميرٌ للمؤمنين يقتصُّ من قتلة عثمان، ويبايعُه المسلمون جميعًا، ولا يهمُّ إنْ كان عليًا، أو أيَّ صحابي آخر.

معاوية لم ينازع علياً الخلافة

فمعاويةُ لم ينازعْ علياً الخلافة، ولم يقاتِلْه من أجلها، ولم يقدِّمْ نفسَه للناس على أنه الأوْلى بالخلافة من علي، بل لما كان علي يطلبُ من معاويةَ مبايعتَه وطاعتَه، ما كان معاوية يطعنُ في أهليةِ علي للخلافة، ولا كان يقدمُ نفسَه البديلَ عن علي في الخلافة، إنما كان يطعنُ في تسرُّع علي للخلافة، وعدمِ مبايعةِ كل المسلمين له، وإبطائِه في معاقبة قتلة عثمان.

نستصحبُ هذا الأمر، ونحن ننظرُ في اجتماع الحَكَمين ـ أبي موسى وعمرو ـ حتى نعرفَ حقيقةَ الأمر.

وجهة نظر معاوية ومن معه في عدم مبايعة علي

الصورةُ أمامَ الحكَمَيْن هكذا: فريقٌ كبيرٌ من المسلمين بايعَ عليَّ بن أبي طالب أميرًا للمؤمنين، ودخلَ في طاعته، وفريقٌ آخر من المسلمين ـ معاوية وأهل الشام ـ يرفضون هذا الأمر، لا طعْنًا في أهليةِ علي، ولا

منازعةً له في الخلافة، ولكن لأنَّ استخلافَه لم يتم على الأصول الإسلامية الصحيحة ـ في نظرهم ـ ولم يبايعْه جميعُ الصحابة، ثم إنه لم يتمكّنْ حتى الآن من تطبيقِ أحكام الله، وإقامةِ الحد على قتلة عثمان، ثم إنَّ قتلةَ عثمان يحاربون معه في جيشه، وهم مجرمون بغاةٌ قتَلَة، ثم إنَّ استخلاف علي أدى إلى فرقةٍ بين المسلمين، حيث قامتْ بينهم الحروب، فحربُ الجمل قُتل فيها عشرةُ آلاف بالإضافة إلى أمثالهم من الجرحى، وحربُ صفين قُتل فيها سبعون ألفًا، بالإضافة إلى أمثالهم من الجرحى.

لماذا لا يتنازل علي عن الخلافة

فهل من المناسب مع كلِّ هذا أنْ يبقى عليُّ بن أبي طالب خليفةً وأميرًا للمؤمنين ؟ولم يرضَ به المؤمنون كلُّهم ! وإن استمرَّ على ذلك فستبقى الحروبُ بين المسلمين؟ أم يتخلّى عن الأمر، ويعودُ الأمرُ إلى أصحابه ؟، وهم أهلُ الحلِّ والعقد من الصحابة، ليختاروا المناسب أميراً للمؤمنين، الذي تجتمعُ عليه كلمةُ المسلمين !!

هذا ما بحثه الحَكَمان في أذرح.

اتفاق الحكمين على إحالة الخلافة لأعيان الصحابة

لقد اتفقَ أَبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص على أنْ يَعهدا بأمرِ الخلافةِ إلى أصحابها، وهم أهلُ الحَلِّ والعقد من الصحابة، وهم الصحابةُ الذين بقوا أحياء، والذين توفي رسولُ الله ﷺ وهو عنهم راض. من أمثال: علي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن عمر ـ وهم الذين كانوا في الشورى عند اختيار عثمان ـ اتفقَ الحَكَمان في أذرح على أنْ يلتقيَ أعيانُ الصحابة هؤلاء، وأنْ يختاروا من بينهم أميراً للمؤمنين، وأنْ يُبايعوه عن رضى في ذلك، ثم يبايعُه المسلمون في جميع الأمصار والبلدان.

واتفاقُهم على هذا الأمر، يعني تركَ علي الآن للخلافة، لأنه لم يرضَ جميعُ المسلمين به خليفة، فإذا ما أُعيدَ اختيارُه من أهلِ الحل والعقد من الصحابة فبها ونعمت، وإلا فهو يبايعُ مَنْ يرضوْنَ به أميراً للمؤمنين.

لم يخلعا معاوية ولم يثبتاه

أما معاويةُ فلم يخلعاه عن الأمر، ولم يثبتاه عليه، ولم يخلَعْه

أبو موسى ويثبته عمرو، لأنَّ معاوية ليس أميراً للمؤمنين عند التحكيم، ولم يطلبْ هذا ولم يبايَعْ على هذا.

وما بويعَ معاويةُ أميرًا للمؤمنين إلا بعدَ استشهاد علي، وبعد تنازلِ ابنه الحسن له عن الخلافة عامَ الجماعة.

إيقاف القتال لحين اختيار الخليفة

واتفقَ الحَكَمان على أنه إلى حين اجتماعِ أهل الحل والعقد من أعيان الصحابة لاختيارِ أميرٍ للمؤمنين، يبقى علي متصرفًا في البلاد التي تحتَ يده، وهي العراق والحجاز واليمن، ويبقى معاويةُ متصرفًا في البلاد التي تحت يده، وهي الشام ومصر وأفريقية، وتقعُ الهدنةُ بينهما.

ابن العاص يروي ما جرى بينه وبين أبي موسى

وقد أوضحَ عمرو بن العاص رضي الله عنه بعضَ ما جرى بينه وبين أَبي موسى عند التحكيم.

جاءَ حَضينُ بن المنذر ـ وهو من رجال علي ـ إلى عمرو فسأله: أَخبْرني عن الأمر، الذي وُلّيتَ أنت وأبو موسى، كيف صنعْتُما فيه؟

قال عمرو: لقد قال الناسُ في ذلك ما قالوا، وواللهِ ماكان الأمرُ على ما قالوا.

ولكنني قلتُ لأبي موسى: ما ترى في هذا الأمر؟ ـ أي الخلافة ـ

قال أبو موسى: أرى أنه في النفرِ الذين توفّي رسولِ الله ﷺ وهو عنهم راض، يختارون مِن بينهم أميرًا للمؤمنين.

قلت له: فأين تجعلُني أنا ومعاوية؟

قال أبو موسى: إنْ يستعنْ أميرُ المؤمنين بكما ففيكما معونة، وإنْ يستغْنِ أميرُ المؤمنين عنكما، فطالما استغنى أمرُ الله عنكما!!.

أبو موسى يروي بعض ما قاله ابن العاص

وقد روى أبو موسى عن تورُّعِ عمرو ومحاسبتِه لنفسه، وتذكُّرِه سيرةَ أبي بكر وعمر، وخوفِه من الإحداثِ بعدهما.

قال أبو موسى: قال لي عمرو بن العاص: والله لئن كان أبو بكر وعمر

تَركا هذا المال وهو يحلُّ لهما، لقد غُبِنا وأخطأا ونقصَ رأيُهما!

وواللهِ ما كانا مغبونيْن ولا مخطئيْن ولا ناقصي الرأي. وواللهِ ما جاءَنا الوهمُ و الوهن والضعفُ إلاّ من قِبلنا[1].

لم ينفذ ما اتفق عليه الحكمان

لكنَّ الخطوةَ التنفيذية العملية التي يتم بها تنفيذُ ما اتَّفق عليه الحكَمان لم تتم. فالنتيجةُ التي خَرجا بها لم تُرضِ الفريقيْن، ولم يجتمعْ كبارُ أعيان الصحابة لاختيارِ أميرٍ للمؤمنين، وبقي الأمرُ بين علي ومعاوية على ما هو عليه.

عليٌّ يتصرفُ في البلدان التي معه، ويبايعه أهلُها أميرًا للمؤمنين، ومعاويةُ يتصرفُ في البلدان التي معه، باعتباره واليًا وليس أميرًا للمؤمنين، وبينهما هدنةٌ إلى حين.

وبهذا انتهى أمْرُ التحكيم، ولم يحلّ المشكلةَ القائمة[2].

لما انتهى التحكيم بدون اتفاق، بقيت الشامُ هادئةً، تابعة لمعاوية، أما علي فقد تفاقمتْ مشكلةُ الخوارج عنده.

الخوارج بقيادة الراسبي

فقد خرجوا إلى «النَّهرَوان»، وشكَّلوا هناك جيشًا مسلحًا، وأَمَّروا عليهم أولَ أميرٍ لهم، وهو عبدُ الله بن وهب الراسبي.

وصاروا يعيثون فسادًا في تلك المنطقة، حيث سفكوا دماءَ المسلمين، وقطعوا عليهم الطريق، واستحلّوا دماءهم وأموالَهم.

الخوارج يقتلون عبد الله بن خباب وامرأته

وأولُ جريمةِ قتلٍ وقعت منهم، أنه مرَّ بهم أحدُ أصحابِ رسولِ الله ﷺ، وهو «عبدُ الله بنُ خَبّاب بن الأَرَتّ» رضي الله عنه، ومعه امرأتُه وهي حبلى.

---

(١) العواصم من القواصم لابن عربي: ١٧٨-١٨٠.

(٢) انظر توجيه كل من ابن العربي ومحب الدين الخطيب لما جرى بين أبي موسى وعمرو في التحكيم، في: العواصم من القواصم: ١٧٢ - ١٨٠. مع هوامش الصفحات الهامة.

قالوا له: مَن أنت؟

قال: أنا عبدُ الله بن خباب، صاحبُ رسول الله ﷺ.

قالوا له: حدِّثنا حديثاً سمعتَه من أبيك.

قال: سمعتُ أبي خبّابُ بن الأرَتّ يقول: قال رسول الله ﷺ: «ستكون فتنة، القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ خيرٌ من الماشي، والماشي خير من الساعي».

فاقتادوه، ثم ذبحوه، ثم ذبحوا امرأته، وبقروا بطنَها[1].

حوار علي مع الخوارج قبل قتالهم

خرجَ علي لقتال الخوارج في «النهروان» ولما الْتقى بهم جرى كلامٌ طويل بينهم وبينه، كما كلَّمهم أبو أيوب الأنصاري، وقيس بن سعد بن عبادة، فلم يعودوا للطاعة.

وبعد ذلك رفع أَبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه راية الأمان.

ونادى منادي علي: مَن جاءَ إلى هذه الراية فهو آمِن، ومَن انصرف إلى الكوفة والمدائن فهو آمن، إنه لا حاجة لنا في قتالكم، وإنما نريدُ الذين قتلوا إخواننا.

معركة النهروان ومقتل قادة الخوارج

فانصرف منهم كثيرون. وبقي حوالي ألفٍ منهم مع أميرهم الراسبي، ووقعتْ معركةُ «النهروان» بين علي وبينهم ـ وهي أولُ معركة مع الخوارج ـ وانتهتْ بمقتلِ الكثير من قادتهم.

قُتل أميرُهم عبدُ الله بن وهب الراسبي، وقُتل منهم حُرقوص بن زهير السعدي، وشَريح بن أوفى، وكانا من السبئيّين الذين شاركوا في قتل عثمان[2].

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٢٨٨.

(٢) البداية والنهاية ٧: ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

وكان من بين قتلى الخوارج في هذه المعركة «ذو الثُّدَيَّة»، أو المخَدّج.

علي يقتل ذا الثدية المخدج

روى الإمام مسلم في صحيحه عن زيد بن وهب الجهني ـ وكان في جيش علي الذي خرجَ لقتال الخوارج ـ قال: قال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يخرج قوم من أمتي، يقرؤون القرآن، ليس قراءَتُكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتُكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامُكم إلى صيامهم بشيء، يقرؤون القرآن ويحسبون أنه لهم، وهو عليهم».

الحديث الأول في قتال علي للخوارج

ثم قال علي: ولو يعلمُ الجيشُ الذين يُصيبونهم، ما قُضي لهم من الأجرِ على لسان نبيهم ﷺ لاتّكلوا على العمل. وآيةُ ذلك أن فيهم رجلاً له عضدٌ ليس لها ذراع، على رأس عضده مثلُ حلمة الثدي، عليه شعرات بيض!.

قال زيد بن وهب: فلما انتهت المعركةُ بهزيمتهم قال علي: التمسوا فيهم المخَدّج!.

فالتمَسوه، فلم يجدوه!.

فقام علي بنفسه، حتى أَتى أُناساً قتلى منهم، بعضُهم على بعض، فقال: أَخّروهم، فأخّروهم، فوجدوا المخدَّج قتيلاً مما يلي الأرض، فلما رآه علي قتيلاً، كَبّر، ثم قال: صدقَ اللهُ وبلّغ رسولُه.

فقام عبيدةُ السلماني فقال: يا أمير المؤمنين: بالله الذي لا إله إلا هو، أنت سمعتَ هذا من رسولِ الله ﷺ؟

فقال علي: والله الذي لا إله إلا هو إنني سمعتُ هذا من رسولِ الله ﷺ[1].

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٢٩١.

الحديث الثاني

وروى مسلم عن عبيدِ الله بن أَبي رافع قال: لما خرجْتُ مع عليٍّ بن أبي طالب لقتالِ الحَرورية ـ الخوارج ـ قالوا: لا حكْمَ إلا لله.

فقال علي: هذه كلمةُ حقّ أُريد بها باطل. وإنَّ رسولَ الله ﷺ قد وصفَ أُناسًا، وإني لأعرفُ صفَتَهم في هؤلاء، يقولون الحق، لا يجاوزُ هذا منهم ـ وأَشار إلى حلْقه ـ من أبغضِ خلقِ الله إلى الله، منهم أَسود إِحدى يديْه طبيُ شاة أو حلمةُ ثدي.

فلما قتلَهَم علي قال: انظروا هذا الرجلَ الأسود.

فنظروا فلم يجدوه.

قال علي: ارجعوا فانظروا، ولابد أَنْ تجدوه، والله ما كَذَبْت و لا كُذِّبتُ!!.

فعادوا فنظروا، فوجدوه مقتولاً في خِرْبة، فأتوا به عليًا. فكبَّر!![1].

الحديث الثالث

وروى البخاري ومسلم عن سويد بن غفلة قال. قال علي بن أبي طالب: إذا حَدَّثْتكم عن رسول الله ﷺ، فلأَنْ أخرَّ من السماء أحبُّ إليَّ من أنْ أكذبَ عليه، وإذا حدثْتكم فيمابيني وبينكم فإن الحرب خدعة.

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: يخرج قومٌ من أمتي، في آخر الزمان، أَحداثُ الأسنان، سفهاءُ الأحلام، يقولون مِن قولِ خيرِ البرية، يقرؤون القرآن لا يجاوزُ حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرقُ السهمُ من الرمية. فإذا لقيتُموهم فاقتلوهم، فإنَّ في قتلهم أجراً لمن قاتَلَهم عند الله يوم القيامة[2].

جابر بن عبد الله يـــروي اعتراض التميمـــــي على الرسول

وروى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنتُ مع رسول الله ﷺ بالجَعْرانَة، وهو يقسمُ فضةً في ثوبِ بلال للناس.

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٢٩٢.

(٢) البداية والنهاية ٧: ٢٩١.

فقال رجل: يا رسولَ الله اعدل !

فقال رسول الله ﷺ :ويلك، ومَنْ يعدل إذا لم أَعدل ؟ لقد خبتُ إنْ لم أكنْ أعدل.

فقال عمر: يا رسول الله، دعْني أقتلْ هذا المنافق !

فقال ﷺ: «معاذَ الله أن يتحدثَ الناسُ أني أقتلُ أَصحابي. إنَّ هذا وأَصحابَه يقرؤون القرآن لا يجاوزُ حناجرهم. يمرُقون من الدين، مروقَ السهم من الرمية»[1].

وأبو سعيد الخدري يروي قصته

وروى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ يقسم قسماً، إذ جاءه ذو الخُوَيْصِرة التميمي، فقال: اعدلْ يا رسولَ الله !

فقال ﷺ: ويلك ! ومَنْ يعدل إذا لم أَعدل ؟

فقال عمر بن الخطاب: يا رسولَ الله: أتأذنُ لي فيه فأضربَ عنقه ؟

فقال: دعْه. فإن له أصحاباً، يحقرُ أَحدكم صلاتَه مع صلاتهم، وصيامَه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرقُ السهم من الرمية...

وعلي قتله يوم النهروان

آيتُهم رجل أسود، إحدى يديه مثلُ ثدي المرأة، أو مثلُ البضعةِ تُدردر، يَخرجونَ على حينِ فُرقةٍ من الناس.

قال أبو سعيد الخدري: فأشهدُ أَني سمعتُ من رسول الله ﷺ، وأشهدُ أن علياً حين قتلَهم وأنا معه، جيء بالرجل على النَّعْتِ الذي نعتَ رسولُ الله ﷺ[2].

وروى مسلمٌ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال

(١) البداية والنهاية ٧: ٢٩٧.
(٢) البداية والنهاية ٧: ٣٠٠ ـ ٣٠١.

رسول الله ﷺ : «تمرقُ مارقة، عند فُرقةٍ من المسلمين، تقتُلُهم أَولى الطائفتين بالحق»[1].

سهل بن حنيف يروي عن قتال علي للخوارج

وروى البخاري ومسلم عن بُسْر بن عمرو قال: دخلتُ على سهل بن حنيف، فقلت: حدِّثْني ما سمعتَ من رسول الله ﷺ في الحرورية.

قال: أُحدثُك ما سمعتُ من رسول الله ﷺ، لا أزيدُك عليه شيئاً.

سمعتُ رسولَ الله ﷺ يذكر قوماً يخرجون من هاهنا ـ وأشار بيده نحو العراق ـ يقرؤون القرآنَ لا يجاوز حناجرهم، يمرقونَ من الدين، كما يمرقُ السهمُ من الرمية.

قلت: هل ذكرَ لهم علامة؟

قال سهل: هذا ما سمعتُ، لا أَزيدك عليه[2].

سبع أحاديث تطالب بقتال الخوارج

هذه الأحاديثُ السبعةُ الصحيحة، وغيرها[3]، تعتبرُ من دلائلِ النبوة، حيث أخبرَ رسولُ الله ﷺ عن خروجِ الخوارِج على المسلمين، وعدمِ فهمهم للقرآن، وعدمِ طاعتهم للإمام، وقتلِهم للمسلمين، ودعا إلى قتلهم، وأثنى على مَن قَتَلَهم، واعتبره هو الأقربَ للحق.

علي يولي الأشتر النخعي ولاية مصر

وفي سنةِ ثمان وثلاثين ولّى عليُّ بن أبي طالب الأشترَ النخعي ـ مالك بن الحارث ـ ولايةَ مصر، وكان الأشترُ من زعماء الكوفة، وبهذا الاعتبار فرضَ نفسَه على علي، وصار من كبار قادته، وكان الأشترُ من السبئيّين الذين شاركوا في قتل عثمان.

وسار الأشترُ النخعي من العراق إلى مصر، ولكنَّ الله لم يمكِّنه منها، ولم يدَعْه يذقْ فرحتها.

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٢٧٩.

(٢) البداية والنهاية ٧: ٣٠٢.

(٣) انظر أحاديث كثيرة بروايات عديدة، أوردها ابن كثير في البداية والنهاية ٧: ٢٩٠ ـ ٣٠٧.

فلما وصلَ إلى «القَلْزَم» على مشارفِ مصر، قدَّمَ أحدُ أهل الذمة فيها طعاماً له، ثم سقاهُ عسلاً مسموماً، فماتَ الأشتر بذلك السم.

الأشتر يموت مسموماً قبل وصوله

وفرحَ معاويةُ وعمرو بموت الأشتر بالعسل المسموم، وقالوا: إنّ لله جنوداً من عسل[1].

وولّى عليٌّ بعد موت الأشتر محمدَ بن أبي بكر الصديق ولايةَ مصر، وكان هذا أيضاً ممن أعانَ على حصار عثمان.

ووجَّه معاويةُ عمرَو بن العاص إلى مصر، ليقاتلَ محمدَ بن أبي بكر، باعتباره من قتلةِ عثمان.

ابن العاص يهزم ابن أبي بكر ويعيد مصر لمعاوية

ووقعت المواجهةُ بين عمرو بن العاص، ومعه ستةَ عشر ألفاً، وبين محمد بن أبي بكر، ومعه عشرةُ آلاف. وقُتل في هذه المواجهة قتلةُ عثمان الذين كانوا مع ابن أبي بكر في مصر. وانتهت المعركةُ بهزيمة ابن أبي بكر.

ثم تفرق أصحابُ ابن أبي بكر عنه، ولم يبقَ معه أحد منهم، فخرجَ محمد بن أبي بكر ذليلاً طريداً مهزوماً حزيناً، فمرَّ بخربة، فأوى إليها وهو جائعٌ عطشان، ولحقَ به مُعاويَةُ بن حَديجٍ زعيمُ أَنصار عثمان في مصر، فقتلَه فيها.

وبذلك خرجتْ مصرُ من سلطان علي، ودخلتْ في سلطان معاوية، وصار عمرو بن العاص والياً عليها[2].

وفي سنةِ تسعٍ وثلاثين حصلتْ مناوشاتٌ بين جيش علي وجيش معاوية على أطرافِ العراق في حدوده مع الشام[3].

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٣١٣.
(٢) البداية والنهاية ٧: ٣١٣ ـ ٣١٥.
(٣) البداية والنهاية ٧: ٣٢٠ ـ ٣٢٢.

معاوية يخضع الحجاز واليمن

وفي بدايةِ سنة أربعين للهجرة، بعثَ معاويةُ بُسْرَ بن أَبي أَرطأة في جيش، ليُخضعَ الحجازَ واليمن لسلطانه، فدخلَ بُسْرٌ مكةَ والمدينة، وذهب لليمن، ودخلت هذه البلادُ تحت سلطانِ معاوية[1].

قوة أمر معاوية وضعف أمر علي

وصارَ أمْرُ علي رضي الله عنه يضعف، وصار أمرُ معاويةَ رضي الله عنه يقوى، وكان أهلُ العراق من شيعةِ علي عاصين له، مشاغِبين عليه، وكان أهلُ الشام من شيعة معاوية مطيعين له، ملتزمين بطاعته. وكلما ازدادَ أهلُ الشام قوة، ازدادَ أهلُ العراق ضعفاً وتخاذُلاً.

كلُّ هذا وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه خيرُ أهلِ الأرض في ذلك الزمان، أَعْبَدُ المسلمين وأزهدُهم، وأعلمُهم وأخشاهم لله، ومع هذا كلِّه فقد تخلى عنه شيعتُه وخذلوه، حتى كرهَ الحياة، وتمنى الموت، لكثرةِ الفتن، وظهورِ المحن، وعجزِه عن فعلِ أي شيء، وعدمِ وجود جنودٍ مطيعين له.

علي يستبطىء قاتله

وكان عليٌّ رضي الله عنه يكثرُ أن يقول: مايحبسُ أَشقاها؟ ماذا ينتظر؟ لماذا لا يتقدَّمُ ليَقتل؟!!.

عن ثعلبة بن يزيد قال: قال علي رضي الله عنه: والذي فلقَ الحبة، وبرأَ النَّسَمة، لتخضَبَن هذه من هذه ـ للحيتِه من رأسه ـ فما يحبسُ أَشقاها؟

فقال عبدُ الله بن سبع: يا أميرَ المؤمنين، والله لو أن رجلاً فعلَ بك ذلك، لأبذْنا عترتَه وعشيرتَه.

فقال علي: أَنشدكم بالله أن لا تقتلوا غيرَ قاتلي!!.

فقالوا: يا أميرَ المؤمنين: ألا تستخلف من بعدك؟

علي يرفض أن يستخلف أحداً من بعده

قال: لا. ولكن أترككُم كما ترككُم رسولُ الله ﷺ.

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٣٢٢ ـ ٣٢٣.

قالوا: فماذا تقولُ لربك إذا لقيتَه ؟

قال: أقول: اللهمَّ إنك قد استخلفْتَني فيهم ما بدا لك، ثم قبضْتَني، وتركْتُك فيهم، فإنْ شئتَ أصلحْتَهم، وإن شئتَ أفسدتَهم ! !.

علي يعلم أنه سيقتل

وقال زيد بن وهب: جاءت الخوارجُ إلى علي، فقالوا له: اتقِ الله فإنك ميّت. قال: لا. والذي فلقَ الحبة وبرأ النسمة، ولكنني مقتول، مِن ضربةٍ على هذه تخضبُ هذه ـ وأشارَ بيده إلى لحيته ـ هذا عهدٌ معهود، وقضاءٌ مقضيّ، وقد خابَ من افترى[1].

علي حزين من خذلان قومه

وفي أيامِ علي الأخيرة رضي الله عنه كان حزيناً متألِّماً من قومه، محْبَطاً لخذلاَن شيعتِه وأصحابه له، يتمنى الموتَ ليستريحَ منهم!

وقد روى زهيرُ بن الأرقم بعضاً من ما قاله علي في خطبة له، قبلَ أيامٍ من استشهاده.

ويهاجمهم في آخر خطبة له

قال زهيرُ بن الأرقم: خطَبَنا علي يومَ جمعة، فقال: نبئْتُ أن بُسْرَ بن أبي أرطاة قد توجَّه لليمن ليأخذها. إني والله لأحسبُ أن هؤلاء القوم ـ قوم معاوية ـ سيظهرونَ عليكم!!

ومايظهرون عليكم إلا بعصيانِكم إمامَكم، وطاعتِهم إمامَهم، وبخيانتِكم وأمانتِهم، وبإفسادِكم في أرضكم وإصلاحِهم!

قد بعثتُ فلاناً، فخان وغدر، وبعثتُ فلاناً، فخان وغدر، وبعثَ المالَ إلى معاوية ! ولو ائتمنتُ أحدكم على قَدَح، لأخذَ علاّقته.

ويتمنى الموت

اللهمّ إني سئمتُهم وسئموني، وكرهْتُهم وكرهوني، اللهم أَرِحْهم مني، وأرِحْني منهم!!!

قال زهير: فما جاءت الجمعةُ الأُخرى حتى قُتل رضي الله عنه[2].

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٣٢٤.

(٢) البداية والنهاية ٧: ٣٢٦.

وهذا الكلامُ العجيب لعليٍّ رضي الله عنه، في أيامه الأخيرة، يصوِّرُ مقدار يأْسِه من قومه، والمعاناةِ التي يعانيها منهم، والتي لم يرَ حَلاًّ لها إلاّ تمنّي الموت!!

تآمر الخوارج الثلاثة على الصحابة الثلاثة

وقد اتفقتْ مجموعةٌ من الخوارج على قتْلِ الصحابة الثلاثة: علي ومعاوية وعمرو بن العاص رضي الله عنهم. وكانوا يرون أن هؤلاء الصحابةَ الثلاثةَ كفار، وأنهم أئمةُ الضلال، وقادةُ الفتنة، وسببُ المصائب التي حلَّتْ بالمسلمين، ولذلك لابد من قتْلِهم حتى يستريح الناسُ منهم.

في سنة أربعين، اجتمع ثلاثةٌ من الخوارج، وهم: عبدُ الرحمن بن عمرو، المعروف بابنِ مُلْجِم المرادي الحميري الكندي المصري.

والبَرْكُ بن عبد الله التميمي.

وعمرو بن بكر التميمي.

وتذاكرَ هؤلاء الأشقياءُ الثلاثة مقتلَ إخوانِهم الخوارج، الذين قَتَلهم علي بن أبي طالب في معركة النهروان ـ التي أشرنا لها من قبل ـ وترحَّموا عليهم.

ابن ملجم لعلي والبرك لمعاوية وابن بكر لعمرو

ثم قالوا: ماذا نصنعُ بالبقاء بعدهم؟ فقد كانوا لايخافون في الله لومةَ لائم، فلو شرَيْنا أنفسَنا لله، وأتينا أئمةَ الضلال الثلاثة ـ علي ومعاوية وابن العاص ـ فقتلْناهم، وأرحْنا منهم البلاد، وأخذنا منهم ثأرَ إخواننا!!.

قال ابنُ ملجم: أنا أكفيكُم عليَّ بن أبي طالب.

وقال البركُ التميمي: وأنا أكفيكم معاوية في الشام.

وقال عمرو بن بكر: وأنا أكفيكم عمرو بن العاص في مصر.

فتعاهدَ الأشقياءُ الثلاثة، وتواثقوا فيما بينهم، واتفقوا على أن لا ينكصَ أحدٌ منهم عن صاحبه، حتى يقتلَه أو يموتَ دونه. وأخذوا سيوفَهم وسَمَّوها.

والتنفيذ في السابع عشر من رمضان

واتفقوا على أنْ يكون وقتُ تنفيذ الجريمة صلاةَ فجرِ يوم السابع عشر من رمضان، بحيث يتوجَّهُ كلٌّ منهم إلى من تعهَّدَ بقتله عند صلاة فجر ذلك اليوم، فيقتلَه ![1].

البرك التميمي يجرح معاوية ويقتل

ذهبَ البركُ بن عبد الله التميمي إلى دمشق لينفذَ جريمتَه، وفي صباحِ يوم الجمعة السابع عشر من رمضان خرجَ معاويةُ إلى صلاة الفجر في المسجد، فحملَ عليه البركُ بسيفه المسموم فضربه، ووقعت الضربةُ في ورك معاوية، وجرحتْ أليتَه، ولم يمتْ معاوية.

وأُلقيَ القبضُ على البَرك، وأَمر معاويةُ بقتله، فقال لمعاوية قبلَ أن يُقْتل: إني أُبشركَ ببشارة.

قال معاوية: وما هي؟

قال البرك: إنّ أخي قد قتلَ في هذا اليوم عليَّ بن أبي طالب!

ثم أَمر بالبَرْك فقُتل.

وجاء الطبيبُ وعالجَ معاوية، وسقاه دواءً أذهبَ عنه السم، وبرىءَ رضي الله عنه.

عمرو بن بكر يقتل مدير شرطة ابن العاص ويقتل

أما عمرو بن بكر التميمي فقد توجَّهَ بسيفِه المسموم إلى مصر، ليَقتل عمرو بن العاص.

وفي فجرِ يوم الجمعة السابعِ عشر من رمضان أصبحَ عمرو بن العاص مريضاً، فلم يتمكن من الخروج ليصليَ الفجرَ بالناس، فأناب مديرَ شرطته خارِجَةَ بنَ أَبي حبيبة العامري ليصلي بالناس.

وتقدمَ خارجةُ للمحراب، فهجمَ عليه عمرو بن بكر بسيفه المسموم، وهو يظنُّه عمرو بن العاص، وقتَلَه.

ولما أُلقي القبض على عمرو بن بكر، قالوا له: لم تقتلْ عمرو بن

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٣٢٦ ـ ٣٢٧.

العاص، وإنما قتلتَ خارجةَ العامري.

فازدادتْ حسرتُه وقال: أَردتُ عَمْراً وأرادَ اللهُ خارجة ! !.

ثم أَمر به عمرو بن العاص، فقُتل[1].

وهكذا أنجى اللهُ معاوية وعمرو بن العاص من هذه المؤامرة!

أما عليُّ بن أبي طالب فقد قدَّرَ اللهُ أن ينجحَ ابن ملجم في قتله!

ابن ملجم بين خوارج الكوفة

جاءَ عبدُ الرحمن بن ملجم، ودخلَ الكوفة، وكتمَ أَمره عن أصحابه من الخوارج الذين بها، حتى لا ينكشفَ أمره، وتَبطلَ خطته.

وقد تعرفَ ابن ملجم على امرأةٍ خارجية جميلة، تسمّى «قَطام بنتِ الشَّجْنَة» موتورةٍ كارهةٍ لعلي، لأنه قتلَ أَباها وأخاها الخارجيّان يوم النهروان.

يتزوج قطام ومهرها قتل علي

أُعجبَ ابنُ ملجم بجمال قَطام، فخطبها ليتزوجها، فاشترطتْ مهرها ثلاثةَ آلاف درهم وخادماً، وقتْلَ علي بن أبي طالب ! ! !.

اجتمعت رغبةُ ابن ملجم مع رغبة قَطام، والْتقى الحقدُ في قلبيهما على قتل علي.

قال لها: والله ما جاءَ بي إلى الكوفة إلا قتل علي!

ندبت «قطَامِ» لزوجها ابن ملجم رجلاً من قومها، اسمه «وردان» ليشاركه في قتلِ علي.

وتمكَّن ابنُ ملجم من إقناعِ واستمالة رجل آخر من الخوارج، اسمه «شَبيبُ بن نجدةَ الأشجَعي»، وأَقنعه ـ بعد جدالٍ طويل ـ بالمشاركةِ في قتل علي.

المتآمرون الثلاثة في مسجد الكوفة

اتفق الأشقياءُ الثلاثة: ابن ملجم، ووردان، وشبيب، على قتلِ علي صباح يوم الجمعة السابع عشر من رمضان، سنة أربعين.

---

(١) البداية والنهاية ٧: ٣٣٠.

غمسَ ابن ملجم سيفَه بالسم، وكمن الثلاثةُ ليلةَ الجمعة مقابلَ السدة، التي يخرجُ منها علي للصلاة.

وقبيلَ دخول الفجر، من ذلك اليوم خرجَ علي بن أبي طالب رضي الله عنه من بيته، وتوجَّه للمسجد، وصار ـ وهو في طريقه إلى المسجد ـ يوقظُ الناسَ النائمين للصلاة، وهو يقول: الصلاة، الصلاة!

ولما وصلَ علي بابَ المسجد هجمَ عليه الأشقياءُ الثلاثة بسيوفهم، فضربه شَبيبٌ بالسيف، فأخطأه، ووقع السيفُ في طاقِ الباب.

ابن ملجم يضرب علياً صباح الجمعة ١٧ رمضان

وضربَه ابنُ ملجم بالسيف فأصابه، ووقع سيفُه المسموم في قَرْنِ رأسِ علي رضي الله عنه، فسالَ دمُه من رأسِه على لحيته. كما كان يشيرُ ويقول للناس، بأن لحيتَه ستُخضب من دم رأسه.

ولما ضَربَ ابنُ ملجم علياً بالسيف، صاح قائلاً: الحكْمُ لله وحده يا علي، ليسَ لك ولا لأصحابك. وصار يقرأ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

فقال عليٌّ والدم يسيلُ من رأسه: عليكم به.

أمسكَ الناس بعبدِ الرحمن بن ملجم، وقامَ رجل من حضرموت بقتْلِ وَردان، أما المتآمرُ الثالث شبيبٌ فقد هربَ ونجا بنفسه، ولم يعرفْه أحد.

وقدَّمَ علي «جَعْدَةَ بن هبيرة» فصلّى بالناس صلاةَ الفجر.

حوار علي مع ابن ملجم بعد ضربه له

وحملوا علياً رضي الله عنه إلى بيتِه. ثم جاؤوه بعبدِ الرحمن بن ملجم وهو مكتوفُ اليدين.

قال علي رضي الله عنه لابن ملجم، يا عدوَّ الله! ألم أُحسن إليك؟

قال: بلى.

قال: ما حملَك على هذا؟

قال ابنُ ملجم: هذا سيفٌ شحذْتُه أربعين صباحاً، وسألتُ الله أنْ يقتلَ به شرَّ خلقه، وقد ضربْتُكَ به.

فقال له علي: ما أراكَ إلا من شرِّ خلقِ الله، وما أراك إلا مقتولاً بهذا السيف.

ثم قال علي لمن حوله: إنْ مِتّ فاقتلوه. وإنْ عشْتُ فأنا أعلمُ كيفَ أصنعُ به.

فقال له جندب بن عبد الله: ياأميرَ المؤمنين: إنْ مِتَّ هل نبايعُ الحَسَن؟

علي يترك الاستخلاف من بعده

فقال علي: لاآمركم ببيعتِه، ولا أَنهاكم عنها، أنتم أَبصر، افعلوا ما ترونه مناسباً.

وصية علي قبل موته

وقد كتب عليٌّ رضي الله عنه وصيتَه للحسن والحسين، وباقي أبنائه وبناته، وللمسلمين جميعاً، حيث أَوصى الجميعَ بتقوى الله، والصلاة، والزكاة، وكظمِ الغيظ، وصلةِ الرحم، والحلمِ عن الجاهل، والتفقهِ في الدين، والتثبتِ في الأمر، وتعاهدِ القرآن، وحسنِ الجوار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجتنابِ الفواحش[1].

بقيِ علي مريضاً ثلاثةَ أيام، من فجر الجمعة، حتى ليلة الأحد، وكان في هذه الأيام الثلاثة يكثرُ من قولِ «لا إله إلا الله»، لا يتلفظُ بغيرها.

وفاة علي ليلة الأحد ١٩ رمضان

وفي ليلةِ الأحد التاسع عشر من رمضان سنة أربعين، توفي أَميرُ المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، متأثِّراً بالجرح البالغِ الذي سبَّبه له سيفُ ابن ملجم المسموم، وبذلك لقي الله شهيداً على يدِ ذلك الخارجي البائس.

وكان عمرُه يوم توفي ثلاثاً وستين سنة.

---

(١) انظر نص وصيته في البداية والنهاية ٧: ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

واستمرتْ خلافتُه أربعَ سنوات وتسعةَ أشهر إلا أياماً.

حيث بويعَ بالخلافة يوم الجمعة الثالث، بعد أسبوعٍ كاملٍ من استشهاد عثمان.

ولما توفي علي رضي الله عنه، غسَّلَه ولَداه الحسنُ والحسين، رضي الله عنهما، ثم تقدمَ الحسنُ فصلّى عليه صلاة الجنازة، وكبَّرَ تسعَ تكبيرات !.

دفـن علي سراً في دار إمارة الكوفة

ولما حلَّ الليل، حفروا له قبراً في «دار الإمارة» بالكوفة، وقام الحسنُ والحسين ومحمد ابن الحنفية ومَن معهم من أقاربه، بدفْنِه في منتصف الليل، وعَموا قبره وأَخفوه، خوفاً من أنْ يأتيَ الخوارج، ويَنبشوه، ويُخرجوا جثتَه ويمثلوا بها لحقدهم عليه.

عمر علي يوم توفي

وقد سُئل الإمامُ محمد الباقر ـ أحدُ أئمة آل البيت فيما بعد ـ عن قبر علي رضي الله عنه.

قيل له: كم كان سِنُّ علي يوم قُتل ؟

قال الباقر: ثلاثاً وستين سنة.

قيل: أين دُفن ؟

قال الباقر: دُفن ليلاً في دار الإمارة بالكوفة، وأُخفي قبْرُه خشيةً عليه من الخوارج.

رضي الله عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأرضاه.

حوار ابن ملجم مع الحسن قبل قتله

وبعد استشهادِ علي رضي الله عنه ودَفْنِه، أَحضرَ ابنُه الحسنُ المجرمَ عبدَ الرحمن بن ملجم ليقتله.

فقال له ابن ملجم: إني أَعرضُ عليك خصلة.

قال الحسن: وما هي ؟

قال ابنُ ملجم: إني كنتُ عاهدتُ اللهَ عند الكعبة أنْ أقتلَ علياً

ومعاوية، أو أموتَ دونهما، وها قد تمكنتُ من قتل علي. فأطلِقْ سراحي لأذهبَ وأقتلَ معاوية، ولك عليّ إن لم أتمكّن من قتله، أو إنْ قتلتُه ونجوت، أن أرجعَ إليك لتقتلني ! !

قال له الحسن: كلاّ والله. لا بدّ من أن تُقتل.

وأَمر الحسن به، فقُتل، قبحه الله[1].

الخوارج يثنون على ابن ملجم

وقد كان الخوارجُ فيما بعد، يُشيدون بما فعله ابنُ ملجم، فها هو شاعرهم عِمْرانُ بنُ حَطّان، يمدحُ ابنَ ملجم، قائلاً:

يا ضَرْبَةً مِنْ تَقِيٍّ ما أَرادَ بِها ... إِلاّ لِيَبْلُغَ مِنْ ذي العَرْشِ رِضْوانا
إِنـيّ لأَذْكُرُهُ يَوْماً فَأَحْسَبُهُ ... أَوْفى البَرِيَّةِ عِنْدَ اللهِ مِيزانا

وكذبَ ابنُ حَطّان فيما قال. فابنُ ملجم فاجرٌ شقي في قتْله لعلي، ونال بجريمته عذاب الله وليس رضوانَه، وهو شرُّ البرية وأشقاها، وليس خيرَها وأوفاها.

أهل الكوفة يبايعون الحسن بن علي

وبعد ما دُفن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفي يوم الأحد التاسع عشر من رمضان سنة أربعين، توجَّهتْ أنظارُ أهل الكوفة لمبايعة الحسنِ بن علي رضي الله عنه بالخلافة، مع أن علياً رضي الله عنه، لم يأمرهم بذلك، وإنما تركَ الأمْرَ لاختيارهم.

جاءَ قيسُ بن سعد بن عبادة رضي الله عنه إلى الحسن بن علي، وقال له: ابسطْ يدك، أبايعْك على كتابِ الله، وسنةِ نبيه ﷺ.

وبعد ما بايعه قيسُ بن سعد قام باقي الناس وبايعوه.

وكان قيس بن سعد من كبار قادة جيش علي، ومعه أربعون ألفاً من المقاتلين، وكان يرغبُ في مواصلةِ قتالِ معاوية وأهلِ الشام.

---

(١) انظر تفاصيل التآمر على علي ثم صفة استشهاده في: البداية والنهاية ٧: ٣٢٦ ـ ٣٣١.

ويعد وفاةِ علي جهزَّ معاويةُ جيشاً كبيراً لغزو أهل العراق، وكان معه في جيشه عمرو بن العاص وعبدُ الرحمن بن خالد بن الوليد.

الحسن يجهز جيشاً لمعاوية

وحثَّ أهلُ الكوفة الحسن بن علي على حشد الناس، وتجييش الجيوش، والتوجُّه لقتالِ معاوية وأهل الشام.

وتجهزَ الناس لقتال معاوية، وخرجَ في جيش الحسن عشراتُ الألوف، وكانوا كتائب كأمثالِ الرجال كثرةً وقوة.

وعينَ الحسنُ بن علي قيسَ بن سعد قائداً للجيش، وخرجَ الحسنُ معهم، وساروا قاصدين معاوية.

العراقيون ينهبون متاع الحسن ويجرحونه

وبينما كان الجيشُ معسكراً في ظاهر «المدائن» سرتْ إِشاعةٌ أنَّ قيسَ بن سعد قائد الجيش قد قُتل ! فحصلتْ فوضى عارمةٌ في الجيش، وهجم الناسُ ينهبُ بعضُهم أمتعةَ بعض، وأقبل جماعةٌ منهم فنهبوا متاعَ وسرادقَ الحسنِ بن علي نفسِه، وسحبوا البساطَ الذي تحته، وطعنَهُ بعضُهم حتى أسالَ دمه.

فعلوا هذا بخليفتِهم ! ! ! فكرههم الحسنُ كراهيةً شديدة.

وأُدخلَ الحسنُ القصرَ الأبيض في المدائن ـ مقرّ كسرى أيام الدولة الفارسية ـ وهو جريحٌ ليعالج فيه.

المختار الثقفي يعرض تسليم الحسن لمعاوية

وكان عاملُ الحسن على المدائن سعدَ بن مسعود الثقفي، فجاءه ابن أخيه «المختارُ بن أبي عبيد» ـ والده هو الصحابي أبو عبيد بن مسعود الثقفي رضي الله عنه، شهيدُ معركة الجسر ضدَّ الفرس في خلافة الصديق، وكان من صالحي الصحابة، لكن ابنَه المختار كان شيطاناً، وقد ادعى النبوةَ فيما بعد، وقتلَه مصعبُ بن الزبير ـ

وقال المختارُ لعمه: هل لك في الشرفِ والغنى يا عم ؟

قال له: كيف ؟

قال المختار: تُلقي القبضَ على الحسن بن علي، وهو جريحٌ في

القصر، وتقيِّدُه وتوثقُه، ثم تبعثُه إلى خصْمه معاوية ليقتلَه، ويعطيكَ معاويةُ المال الوفير.

قال له عمه: قبَّحك الله، وقبَّح ما جئتَ به. أتريدني أنْ أغدرَ بابن بنت رسولِ الله ﷺ ! ![1].

تألم الحسن من خذلان قومه له

تألم الحسنُ بن علي رضي الله عنه، بسببِ عصيانِ قومه له، وشغبهم عليه، وخذلانهم له، وهذه هي طبيعتُهم، وكم عانى منهم أبوه علي رضي الله عنه.

وفي سنةِ إحدى وأربعين تمَّ الصلحُ بين الحسن بن علي ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

الصلح رغبة متبادلة بين الحسن ومعاوية

راسلَ الحسنُ معاوية للصلح، بعدما رأى من خذلانِ أهل العراق له، وتفرقِهم واختلافِ كلمتهم، كما كان معاوية راغباً في مصالحة الحسن.

وقد روى الإمامُ البخاري في صحيحه قصةَ صلحِ الحسن ومعاوية، وتنازلِه عن الخلافة لمعاوية، جمعاً لكلمة المسلمين.

الحسن البصري يروي مصالحة الحسن ومعاوية

قال الحسنُ البصري: استقبلَ الحسنُ ـ والله ـ معاويةَ بن أبي سفيان بكتائبَ أمثالِ الجبال.

فقال عمرو بن العاص لمعاوية: إني لأرى كتائب، لا تُولّي حتى تقتلَ أقرانَها !

فقال معاوية ـ وكان و الله خيرَ الرجلين ـ: إنْ قتلَ هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء، فمَنْ لي بأمورِ الناس ؟ ومَنْ لي بضعفتهم ؟ ومَنْ لي بنسائهم ؟.

معاوية يوفد رجلين لمفاوضة الحسن

فبعثَ رجليْن للحسن، وهما من قريش، من بني عبد شمس ـ عبد الرحمن بن سمرة وعبد الله بن عامر بن كريز ـ وقال لهما: اذهبا إلى

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٨: ١٤.

الحسن واعرضا عليه ماشاء، وقولا له، واطلبا إليه.

فأتيا الحسن، فدخلا عليه، وتكلما معه وقالا له، وطلبا إليه.

فقال لهما الحسن بن علي: إنّا بنو عبد المطلب قد أَصَبْنا من هذا المال، وإنَّ هذه الأمةَ قد عاثَتْ في دمائها.

قالا له: إن معاويةَ يعرضُ عليك كذا وكذا، ويطلب إليك، ويسألك.

قال الحسن: فمنَ لي بهذا؟

والاتفاق على الصلح

قالا: نحنُ لك به، ونضْمَنُه له.

وماسألهما الحسن شيئاً، إلا وافَقاه، وقالا: نحنُ لك به.

فصالحَ الحسنُ معاويةَ رضي الله عنهما.

قال الحسنُ البصري راوي الحادثة: ولقد سمعتُ أبا بكرة ـ نفيع بن الحارث ـ رضي الله عنه يقول: رأيتُ رسولَ الله ﷺ على المنبر، والحسن بن علي إلى جنبه، وهو يُقبلُ على الناس مرة، وعلى الحسن أخرى، ويقولُ عليه الصلاة والسلام:

الرسول يخبر عن الصلح بالحسن

«إنّ ابني هذا سَيّد، ولعلَّ الله أن يصلح به بين فئتيْن عظيمتين من المسلمين»[1].

وهذا الحديثُ من دلائل النبوة، حيث أخبرَ الرسولُ ﷺ عن الحسن أنه سيد، وأنه حريصٌ على المسلمين، وأن الله سيصلحُ به بين فئتين عظيمتين من المسلمين.

وهذا ما تحققَ سنةَ إحدى وأربعين، حيث أصلحَ الله بالحسن بين أهلِ العراق وأهل الشام، واجتمعت الأمةُ على خلافة معاوية.

خلافة الحسن ستة أشهر

وكان تنازلُ الحسن لمعاوية عن الخلافة في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين.

---

(١) البداية والنهاية ٨: ١٧.

وقد استمرت خلافةُ الحسن بن علي ستةَ أشهر. من رمضان سنة أربعين، حتى ربيع الأول سنة إحدى وأربعين.

وبخلافةِ الحسن بن علي ستة أشهر، تكون قد كملتْ مدةُ الخلفاء الراشدين ثلاثين سنة.

وهو يكمل فترة الخلفاء الراشدين

فقد روى سفينةُ عن رسول الله ﷺ قال: «الخلافةُ بعدي ثلاثون سنة، ثم تكونُ مُلْكاً».

وقد وليَ أبو بكر الصديق رضي الله عنه الخلافةَ في ربيع الأول سنة إحدى عشرة، وتنازلَ الحسنُ بن علي لمعاوية في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين.

وهذا الحديثُ أيضاً من دلائل نبوة محمد ﷺ. حيث تحققَ هذا الحديث عملياً، عندما تنازلَ الحسن لمعاوية، وبذلك تكون قد انتهتْ فترةُ الخلفاء الراشدين، لتبدأ فترةُ الملك.

معاوية آخر الخلفاء وأول الملوك

وقد كان معاوية رضي الله عنه يقول عن نفسه: أنا آخرُ الخلفاء، وأولُ الملوك[1].

قال أحدُ قادة جيش الحسن قبل تنازله عن الخلافة لمعاوية، وهو أبو العريف: كنا في مقدمةِ الحسن بن علي، اثنا عشر ألفاً، مستميتين من الجدّ على قتال أهلِ الشام، فلما سمعْنا بصلحِ الحسن بن علي كأنما كُسرتْ ظهورُنا من الغيظ.

الحسن مبيض وجوه المؤمنين

فلما قدمَ الحسنُ بن علي الكوفة، قال له رجل منّا، يقال له أبو عامر: السلام عليك يامُذِلَّ المؤمنين!

فقال له الحسن: يا أبا عامر، لا تقل هذا، لستُ مُذِلَّ المؤمنين،

---

(١) البداية والنهاية ٨: ١٦.

ولكني كرهت أن أقاتلهم على الملك!![1].

ولما تمَّ الصلحُ بين الحسن ومعاوية في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، بايعَ أهلُ الشام معاويةَ أميراً للمؤمنين، ثم بايعته باقي الأمصار.

معاوية أمير للمؤمنين من سنة إحدى وأربعين

وكان معاويةُ قبل تنازل الحسن له والياً على الشام والأقطار الأخرى، ولم يكن خليفة، ولا أميراً للمؤمنين، لم يقدِّمْ نفسَه للناس على هذه الصفة، ولم يطلب منهم مبايعتَه بالخلافة، لأنَّ أميرَ المؤمنين وخليفةَ المسلمين موجود، وهو علي، ثم ابنُه الحسن، رضي الله عنهما.

أما بعد مصالحةِ الحسن له، وتنازلِهِ عن الخلافة له، فقد أصبحَ معاويةُ أميراً للمؤمنين، بإجماع المسلمين.

عام الجماعة سنة إحدى وأربعين

ولذلك سُمي هذا العام، وهو الواحدُ والأربعون، عامَ «الجَماعة» حيث انتهت الفرقة، واجتمعتْ كلمةُ الناس جميعاً على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

ودخلَ معاويةُ الكوفة، وبايَعَه أهلُها، وعَيَّنَ المغيرة بن شعبة رضي الله عنه والياً عليها. وارتحلَ الحسنُ والحسينُ وآلُ علي رضي الله عنهم من الكوفة، إلى المدينة المنورة، وأقاموا فيها.

رضي الله عن الصحابة أجمعين !!، وفي مقدمتهم الخلفاءُ الراشدون !!!.

---

(١) البداية والنهاية ٨: ١٩.

الفهرس






al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين